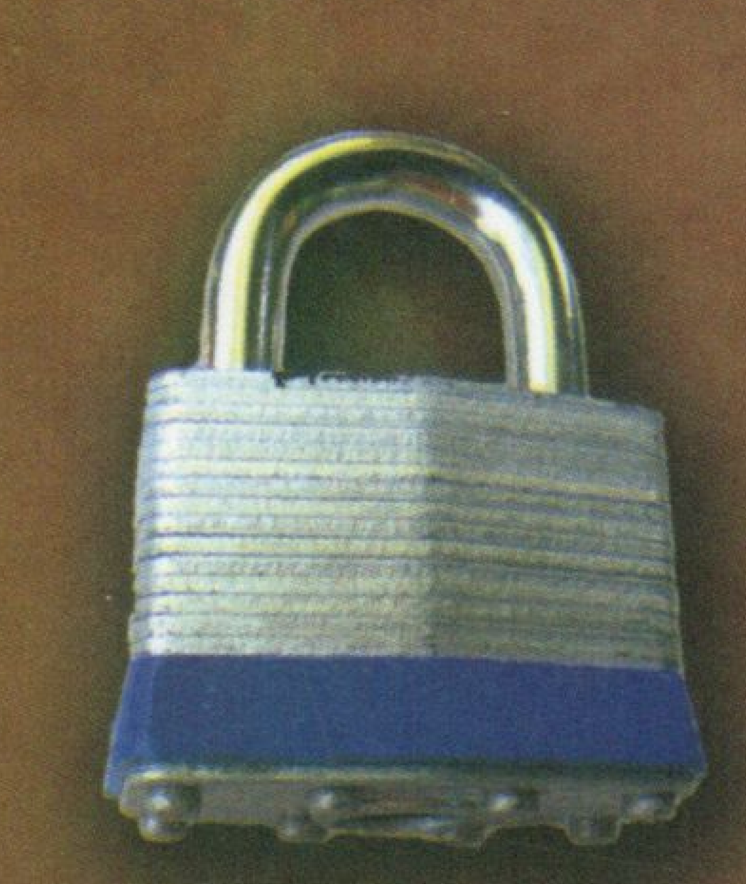
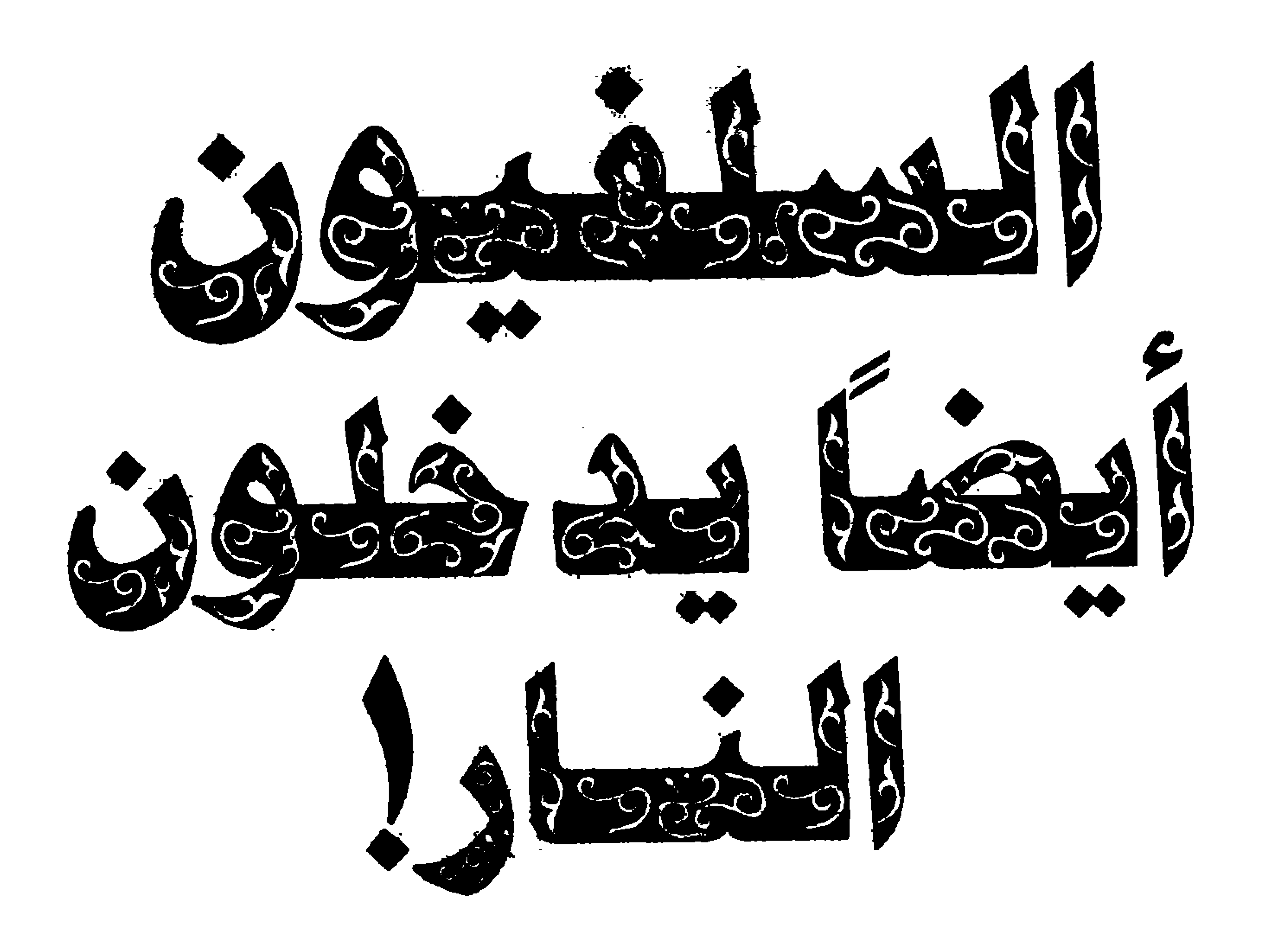
السلفيون ايضا

يدخلون النار !



وليد طوغان





قراءات فى فكر "التطرف" وفقه
"التكفير" الجديد

وليد طوغان


SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com

وليد أحمد طوغان/ صحفي وكاتب من مواليد عام 1972 شغل عدة مناصب قيادية بمؤسسة روزاليوسف. وصدرت له عدة كتب منها: عبادة الاهرام- اسرار الديانات السرية. مدعوا النبوة فى التاريخ الاسلامي- دراسة فى الاستخدام السياسي للدين. صداقة اغلى من الذهب (قصة للاطفال)- سلسلة قطر الندى. الذين اقتربوا من الموت وعادوا.

سياسي ديني
....

السلفيون ايضا يدخلون النار!

وليد طوغان

الطبعة الأولى 2012

رقم الإيداع: 2012/4160

الترقيم الدولي: 978-977-5154-02-6

الناشر
محمد البعلي

المستشار الفني
أحمد الزغبي





دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

السلفيون
ايضا يدخلون النار!

المحتويات

إهداء

إلى أبي.. الفنان أحمد طوغان
الذي علمني ما لم أكن أعلم
إجلالاً وعميق الاحترام.

بسم الله الرحمن الرحيم

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة البقرة

مقدمة

ظهر التغير على الشارع المصري بشدة بداية الثمانينيات، فقد أتقنا إغلاق الشوارع بالحصير الأخضر، وتكدست الميادين بمصلي التراويح، بينما تكدست المحاكم في الوقت نفسه بدعاوى ومنازعات أكل الحقوق وأموال اليتامى، والجور على الأرامل والمطلقات.

من لم تنهه صلاته فلا صلاة له، لكن المصريين يصلون ويصومون.. ثم يأكلون الحقوق، ويقذفون المحصنات.. أيضًا.

ازدواجية معروفة، ففي روايات "نجيب محفوظ" كان "السيد أحمد عبد الجواد" ملكًا للهلس والليل والرقص مع العوالم مع أصدقائه، بينما انزعج من رغبة أحدهم في دخول منزله لطلب واحدة من بناته بالاسم.. للزواج، استغرب "السيد أحمد" أين شاهد العريس ابنته، وهل فتحت شباك البيت؛ فظهرت للناس؟!

ارتفعت نسبة الحجاب في الشارع 50% على الأقل مقارنة بما قبل 30 عامًا، لكن لم تنخفض نسبة التقاضي في الحقوق أمام المحاكم، ولا تناسب رقم نزاعات الأحوال الشخصية في زنانيري بالانخفاض، مقارنة بما بدا تدينًا في الشارع.

لماذا التناقض؟ لأننا نميل - عادة - إلى الطقس أكثر من المضمون، الاحتفال باللفظ أكثر من المعنى عادة مصرية، ففي حلقات الذكر مثلًا؛ غالبًا ما تتصاعد الأصوات بالتراتيل حبًا في النبي، وجمال النبي، وكمال النبي.. بينما تندر قراءة القرآن في خيم المتصوفة.. ولا تسمعهم يتجاذبون أطراف الحديث في تفسيرات آياته!

ملكنا سمات الدين؛ لكننا لم نملك الدين، فلو كانت زيادة نسبة المحجبات، وحرص الشباب على تراويح رمضان - مؤشرًا على زيادة النزعة الدينية في الشارع؛ فإن وجه العملة الآخر كان يجب أن يقابله استقرار اجتماعي من نوعٍ ما؛ فتنحسر نزاعات الجيرة، وتختفي مشاحنات الطريق، وتتداول حقوق العشرة؛ فتصبح الأموال والأعراض والأنفس مصونة بإلزام المجتمع المتدين.. لا جبرًا بقوة القضاء.

لكن هذا لم يحدث؛ لذلك.. زادت أعداد المتهجدين في العشر الأواخر، بينما زادت في الوقت نفسه جرائم القتل والسرقة وقطع الطريق، وتضخمت صفحات الحوادث بقصص "زنى المحارم"، وتفاصيل كثيرة عن اعتداء الابناء على الآباء، وقتل بعضنا بعضًا داخل المساجد.. خلال صلاة الجماعة!

قبل وفاته؛ همس لي عالم الاجتماع الفذ "د. أحمد المجدوب" ـ أن خبرة 70 عامًا أتاحت له استخلاص نتيجة مؤكدة: "المصريون عندهم برد"، أصابتهم أعراض الإنفلونزا، تكسير في الجسم.. احمرار في العين، اضطراب في الرؤية.. واضطراب في السلوك، وفي محتوى التفكير.. أيضًا.

للشعوب "إنفلونزا" مثل "إنفلونزا البني آدم"، وللأزمات الاجتماعية أعراضها. أعراض إنفلونزا المصريين ظهرت في وقوف الموظف دقائق بين يدي الله في صلاة قصيرة، قبل عودته لمواربة درج المكتب للإكراميات والرشاوى.

المجتمع الوحيد الذي أضاف أسماء حركية لـ"الرشوة"؛ فسميناها "إكرامية".. وسميناها "تفتيح مخ".. قلنا عليها مرة "مفهومية"، ومرة "ميه".. من يجرى الماء جريانًا، قبل أن نسميها "شاي".

الوحيدون الذين سموا الرشوة "شاي" هم نحن.. لذلك؛ عادة ما يتلذذ موظفو الحكومة "المؤمنون" باحتساء الشاي بعد كل صلاة؛ فكانت غريبة قصة مجتمع مؤمن.. بيموت في الشاي!!

في الستينيات حدثت هذه القصة...

يحكى أن اثنين من المعتقلين في قضية "الشيوعيين" استطاعا أن يقنعا سجانهما بالنظرية "المادية الجدلية".. فحدثوه عن خلق الكون "بالصدفة"، وأن الطبيعة هي المسئولة عن الخلية الأولى التي أحدثت الخلق.

كانوا أكثر ثقافة، وبما لديهم من قدرة شديدة على الإقناع؛ وقع سجانهم في النهاية ضحية فكرة "عدم وجود الله" بعد أيامٍ قليلة من حديث متصل.

وبدأت صداقة وطيدة بين المعتقلين وسجانهما، ما جعل الفرصة تسمح بأن يطلبا منه "سجاير" رغم تعليمات السجن بحظر دخول آية أدوات ترفيه، واعتبرت السجاير ضمن هذه الأدوات.

رغم المخاطرة؛ أقسم السجان بـ"رسول الله" أن يأتي بما طلباه، حتى لو وصل الأمر لتهريب السجائر.. لكن الصديقين استغربا.. ولفتا نظر الرجل العجوز إلى أنه أقسم برسول الله، مشيرين إلى أنه اتفق معهما بعد مناقشات أن الطبيعة هي الخالق.. وسألاه: "ألم نصل إلى عدم وجود الله؟!"؛ قال: "نعم"، قالوا: "إذًا لا وجود لرسول الله"؛ فاستدرك السجان ذعرًا: "كله إلا النبي!!".

صحيح انتهت نظريات الشيوعيين، وعفي عيها الزمن، وانهارت تمامًا الأفكار من هذه النوعية؛ إلا أن قصة السجان كانت عظيمة الدلالة؛ فالرجل كان على استعداد للكفر بكل شيء.. حتى الله، في الوقت نفسه؛ لم يكن يستطيع أن ينسى رسول الله!

عجيبة..

والأكثر عجبًا؛ ما لاحظه علماء الحملة الفرنسية في العام 1878:

لما دخل جيش "نابليون" مصر، وحاصروا القاهرة، ثم ضربوها بالمدافع من فوق جبل لمقطم، اعتصم المصريون بالجامع الأزهر لقراءة كتاب "صحيح البخاري"، داعين الله أن يُذهب عنهم البلاء.

ولما اقتحم "نابليون بونابرت" الأزهر، خاف المصريون على كتب الحديث ـ كما يحكي الجبرتي ـ أكثر من خوفهم على الكتب الأخرى.

استغرب الفرنسيون.. وتساءلوا عن سطوة "البخاري" الذي يتوسل به المسلمون لله.. فينسون كتاب الله، ويلجئون لواحدِ كتب ما قيل إنه سنة رسول الله!

قرأ المصريون "البخاري" بدلًا من "القرآن"؛ فكان كتابٌ كتبه بشر عوضًا لهم عن كتاب انزله الله في أوقات تفشي الأمراض.. أو في الكوارث!

وكانت ملاحظة المستشرق الفرنسي "هنري كوريان" أيضًا مهمة؛ فالرجل ربط بين

تغير أفكار المسلمين تجاه السنة النبوية، إلى الحد الذي جعل نفوذ ما قيل إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قاله من كلام.. تفوق سطوته أحيانًا كثيرة ما جاء به "القرآن الكريم" من أحكام.

"كوربان" قال: إن المصريين بهذا المنطق في الاعتقاد؛ أهلوا أنفسهم لاستقبال أفكار "الشيعة الفاطميين"؛ فسطع نجمهم.. وانتشرت عقيدتهم.. فعرف المصريون لأول مرة قصص "أولياء الله"، الذين كشف ربهم عنهم الحجاب؛ فماتوا.. ثم عادوا للحياة.. وسافروا فوق سجاجيد طائرة.. وساروا على الماء.. وتكلموا مع بعضهم بعضًا عبر الزمان والمكان!

وأدخل الفاطميون للمصريين حب "آل البيت"، وحب أولياء الله الصالحين؛ فغالى المصريون في حب النبي، وآل النبي.. وأولياء الله؛ فأقاموا الأضرحة.. وابتكروا قصصًا لأصحابها، ثم توسلوا إلى الله بأصحاب الأضرحة.. حتى نسوا الله.. وعبدوا أصحاب الأضرحة!

أغرق المصري البسيط في الميل للسنة النبوية؛ فأسهم إغراقه في أن ينسجم مع أفكار الشيعة بدعوى التصوف، وأصبح يعتقد في "خزعبلات" بحجة حب "آل البيت".. حتى ظهر متصوفة يعتقدون فيما لا يمكن أن يحسبه المسلمون على إسلام يؤمن بالله.. وملائكته.. وكتبه ورسله.. لا نفرق بين أحد من رسله!

يرى "كارل يونج" عالم النفس الشهير - أن "الارتجاج النفسي للمجتمعات؛ عادة ما يصاحبه اهتمامٌ بطقوس الأفكار أكثر من مضامين الأفكار نفسها.

اعتبر يونج في كتابه "الأزمات"؛ أن اهتمام الشخص بملابسه المبالغ فيه (على سبيل المثال) لا يعني فقط خواءً نفسيًا من نوع ما، بقدر ما يشير إلى اضطراب في العلاقة بين تفكير الشخص ونفسه، مع خلل في رؤيته لنفسه بينه وبين نفسه.

في الأزمات؛ كانت السنة النبوية المطهرة عرضة لـ"الوضع" و"التحريف"، و"وسط صراعات" سياسية واجتماعية؛ كانت أكثر عرضة لـ"التزييف".. سواء بين المسلمين وبين بعضهم بعضًا صراعًا على الخلافة والحكم، أو بين المسلمين وغير المسلمين

لفرض النفوذ.. والسيطرة.

بمرور الوقت؛ تحولت "السنة" إلى أساس الدين، مع أنها في علوم الفقه الإسلامي؛ لم تكن المصدر الرئيسي في التشريع.

السبب ـ كما يرى البعض ـ أن اللعب بأقوال النبي؛ كان السبيل الأمثل للطعن على الدين.. من داخل الدين.. إضافة إلى أنها كانت طريقًا سهلًا لفرض نفوذ العرب على غير العرب، وسيطرة المسلمين على غير المسلمين.

لذلك؛ ساعد التكوين الفكري لبعض المجتمعات الإسلامية، الذي كان قد تغير بحكم عوامل مختلفة في دخول أحاديث نبوية مشكوكٍ فيها وإلصاقها ـ مع الوقت ـ بصلب العقيدة؛ فقلصوا الدين، وعادوا غير المسلمين.. ثم أخذوا "الجزية" من أبناء البلاد التي فتحتها جيوش المسلمين، رغم دخول أبناء البلاد المفتوحة الإسلام!

كان مثيرًا أن يأخذ المسلمون "جزية" من المسلمين.. بالحديث النبوي، وقتما لم تتوافر القدرة ولا الرغبة في إخضاع "السنن المزعومة"، و"الأحاديث الموضوعة " لإعادة التقييم؛ ما جعلها "معلومًا من الدين بالضرورة".

بالوقت ـ أيضًا ـ باتت المشكلة الكبرى التي تواجه "الإسلام".. كم السنن والأحاديث والقصص والأخبار غير المؤكدة، التي اشتهرت عن النبي؛ فحولها التراث إلى مسلمات لا تحتمل التأويل أو الرفض.. رغم أن كثيرًا منها كان يجب أن يُترك! فانتشرت "سنن" عززت الفجوة بين المسلمين وغير المسلمين، وتداول المسلمون أوامر نبوية أسست "عنصرية" من نوع ما بين العرب وغير العرب.. وبين المسلمين وغير المسلمين أيضًا!

وظهرت طائفة "المشايخ"، ثم جاء "الدعاة" الذين كانوا تطورًا طبيعيًا لفئة الكهنة المسلمين؛ فغالوا في الحلال وفي الحرام.. قبل أن تطرح في "الأوكازيون" أحاديث نبوية عن فضل "الذباب" لو وقع في إناء المسلم، ومكارم أكل "البقدونس".. وفوائد "بول الإبل"!!

حتى صورة النبي نفسه تغيرت في الذهنية الشعبية للمسلمين، فأضافوا لشخصه (ص) ما لم يضفه الإسلام؛ فقالوا إنه (ص) كان يعلم الغيب، وإنه (ص) كان يُوحى إليه

منذ ميلاده حتى وفاته.. وقالوا إن الملائكة اختطفوه صغيرًا.. ففتحوا قلبه وأزالوا منه "نقطة الدنيا السوداء"، وإمعانًا في الكارثة، اعتقد كثيرٌ منا أن بوله (ص) كان مصدرًا لشفاء الأمراض!!

كانت أزمة اجتماعية شديدة.. وأزمة دينية أيضًا.

الأزمات في عمر المجتمعات لا تحسب بالأشهر؛ إنما يحسبونها بمئات السنين؛ لذلك، وبعد مئات السنين.. عرف المسلمون "الطب النبوي"، وحولت طوائف المشايخ وصفاته إلى مادة سريعة الانتشار على شاشات الفضائيات.

واختزل "المشايخ" الإسلام في أحكام جماع الرجل وزوجته، وأدعية دخول دورات المياه، وجعلوا لها أحكامًا ومحظورات.. فرووا فيها الأحاديث.. قبل أن يختلفوا في أسانيدها ورواتها.. إلى أن فسر أحدهم الأحلام.. بكتاب الله وسنة رسول الله.. وصدقنا!!

ضيقوا الدين.

اختصروه؛ فتركوا "الحقوق" و"المعاملات"، وصدروا قضايا "الحيض" و"أصول الجماع" وأحوال "المستحاضة"، حولوه إلى معجزات في الشفاء بـ"بول" النبي، ونبوءات القرآن في فوائد "البقدونس".. وجعلوا منها دليلًا على "ربانية الإسلام".. وتأكيدًا على "تنزيل الرسالة من رب العالمين"!!

أحبوا النبي، فأثبتوا قداسته.. بقدرة بوله على الشفاء، وتكلموا عن سوابق بول إبله (ص) في علاج الأمراض بأحاديث "مرفوعة"!!

"المرفوع" من الحديث؛ هو ما ينتهي سند رواته إلى النبي - صلى الله عليه وسلم، ولدى علماء الحديث أن "المرفوع" صحيح.. يقيني، يحسب على قول النبي (ص).. بلا جدال!

مصيبة.

بعد أعوام قليلة من وفاة النبي (ص) كثرت المصائب؛ ففي بداية الخلافة الأموية تداول المسلمين لأول مرة حديث "الأئمة في قريش"، الذي قصر خلافة المسلمين وولاية

أمرهم.. على العرب من أقارب النبي فقط.

كان "الأئمة من قريش".. كارثة أيضًا؛ فقد ابتكره البعض لدعم سلطانه.. وتداوله آخرون لإثبات أحقيتهم في حكم المسلمين وغير المسلمين.. فأبيحت الحرمات، وانتهكت الأعراض.. وأريقت الدماء.. في سبيل الله.. وبأوامر من رسول الله!

وروى البخاري "حديث الذبابة".. وروى "الأئمة من قريش".. وفي كتب الحديث نسب للنبي "ص" قوله: إن الشمس بعد غروبها تذهب فتسجد تحت عرش الرحمن، ثم تستأذن فلا يؤذن لها، ويوشك أن تسجد؛ فلا يقبل منها، ثم يقال لها ارجعي من حيث جئت؛ فتشرق في الصباح"، وفي رواية أخرى "فتخرج من مغربها"؛ فيما روى أبو ذر.. أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

واضع الحديث لم يكن يعلم أن غروب الشمس من فوق الجزيرة العربية لا يعني اختفاءها، أو حبسها عند عرش الله، إنما شروقها فوق الجزء الآخر من كوكب الأرض.

فالذي حكى الحديث؛ ابتكره بعقليته.. وبخلفيته المعرفية في وقته.. لذلك؛ شكك الكثيرون فيه، رغم تمسك المسلمين به.

وحتى إن كان حديث الشمس من أقوال النبي (ص).. فيجوز تركه.. فهو (ص) إن كان قد قال؛ فقد تكلم بعقلية القريشي قبل 1430 عامًا؛ ما أثبتت الحقائق العلمية وإدراك البشرية خلافه.. بعد ذلك بقرون.

بعضهم قال "حديث الشمس متروك".. فهاج عليه المشايخ؛ لأن الذي جاء في كتب الحديث.. لا يمكن تركه.. أو إلغاؤه.. أو الإعراض عنه.

"المتروك" من الحديث هو "ما يرويه متهم بالكذب أو ما يكون مخالفًا للمنطق ولقواعد العلوم".

و"المتروك" أيضًا؛ هو ما يُعرف عن راويه "الخلط أو الغفلة"، و"غفلة" الراوي في أن يكون فيما رواه "مخالفة القواعد العقلية لمرض أو لجهل".

لذلك؛ كتب "موسى بن نشيط" في "التهذيب": "ومن الناس من لا يُكتب حديثه لكثرة

اختلاطه أو غفلته وإن كان من أهل الصدق".

المعنى أن هناك من رواة الحديث من ليس مجروحًا في سيرته أو في معاملاته؛ لكن كثرة اختلاط الأمور عليه (لجهل أو لكبر سن أو لنسيان)؛ كانت أسبابًا للطعن فيما رواه من أحاديث، وما ينسبه من أقوال لشخص النبي (ص).

حذر كثير من الباحثين المحدثين من الإصرار على تداول مثل هذه الأحاديث على عوام المسلمين.. تمامًا مثلما حذر بعض أهل الفقه من نشر "المتروك" بين المسلمين.. لما قد يحدثه من خلط في العقيدة.. ووهن في الإيمان.

لكن هذا لم يحدث.. والمنسوب من أقوال للنبي (ص) أصبح على المشاع، على عينك يا تاجر.. بينما سكتت المؤسسة الدينية الأولى (الأزهر) عن الفصل فيما يحدث.. من دون أن يعرف أحد.. لماذا؟

ليست القضية في أحاديث "الذبابة" أو "حديث الشمس" أو ما شابه.. إنما القضية في منهج التفكير.. الذي تفوق به كتابٌ كتبه بشر - قيل إنه يحوى ما قاله رسول الله - على كتاب الله!

في مراجع علوم الحديث.. أن الإمام البخاري "انفرد بالرواية عن أربعمائة وعشرين رجلًا، تكلم فيهم بالضعف ثمانون رجلا"، وانفرد "مسلم" بالرواية عن ستمائة وعشرين رجلًا، تكلم فيهم بالضعف مائة وستون رجلا".

ما المعنى؟!

المعنى أن كثيرًا من أهل علوم الحديث شككوا في ثمانين رجلًا من رجال أسانيد صحيح البخاري.. وشككوا أيضًا في صحة أسانيد مائة وستين رجلًا من "أسانيد" الإمام مسلم.

"الإسناد" في علوم الحديث؛ هو الطريق الموصل إلى متن الحديث أو موضوعه.. وهم الرجال الذين انتقل الحديث على ألسنتهم من عصر إلى عصر حتى وصل إلينا.

لا نعرف للآن؛ لماذا قدسنا هؤلاء إذا كان منهم "الغافل".. ومنهم "الضعيف"،

ولا نعرف أيضًا سر سطوة كتاب مشكوك في أسانيده للحد الذي يعتبره بعض المشايخ الأصح بعد كتاب الله!

لم نكن نعلم ما الذي يمكن أن يؤدي إليه "تسييس" تلك السنن.. والذي حدث أنها غيرت التفكير، ونشرت "التواكل".. وأسست "للخرافة"، ونشرت "الخزعبلات".

مستقبلنا أيضًا مظلم.. ومبهم.

لأن في نهاية طريق مسلمين؛ ظهر فيهم من يؤكد صحة أمر نبوي بأن يغمس أحدهم الذبابة التي وقعت في إناء يشربه.. تجنبًا للمرض لا يمكن أن يكون مبشرًا.

لم ننتبه.. ولا نريد أن نفعل؛ فدخلنا مرحلة أخرى لعبت فيها السياسة بالسنة النبوية.. التي لقداستها؛ ما استطاع أحد أن يعيد فحصها، ولا تجرأ منا من يخضعها للفحص من جديد.. حتى جاء اليوم الذي دخلنا المساجد لنقرأ "البخاري" بدلًا من القرآن الكريم.. وسعى بعضنا إلى "بول الإبل" بدلًا من عيادات الأطباء.. والمستوصفات.. ومعامل التحاليل.

لا يزال المسلمون يصبون على تاريخ المسلمين مزيدًا من المواد القابلة للاشتعال.. إيمانًا واحتسابًا.

قلنا إن كله من عند الله.. مع أن كثيرًا من الذي نسبناه إلى الله ورسوله.. لم يكن يرضي الله.. ورسوله.

ليس لدينا حتى الآن قدرة على الفحص.. لا أحد يعرف أيضًا لماذا، لم نقرأ التاريخ، والذي فعل منا، لم يأخذ من التراث إلا أرذله.. مع أن في التراث ما يشير إلى أمورٍ خطيرة لا نريد أن ننتبه لها.. حتى الآن.

في كتاب "اختصار علوم الحديث" لـ"ابن عبد ربه".. قال "ميسرة الفارسي" إنه وضع أحاديث في فضائل القرآن لم ترد على لسان النبي (ص)، وقال ميسرة أيضًا إنه وضع في فضل "علي بن أبي طالب" سبعين حديثًا.

أما "أبو عصمة نوح بن أبي مريم" الملقب بـ"نوح الجامع"؛ فقال إنه وضع على

لسان "عبد الله بن عباس" حبر الأمة الإسلامية وأشد رواة الحديث صدقًا ومكانة.. أحاديث في فضائل القرآن سورة سورة، لا يعرف "ابن عباس" عنها شيئًا.

ورُوي أن "أبا حاتم السبتي" دخل مسجدًا؛ فسمع شابًا يقول "وحدثنا أبو خليفة.. حدثنا أبو الوليد عن شعبة.. عن قتاد.. عن أنس قال... ثم ذكر حديثًا.. فسأله أبو حاتم: "هل رأيت أبا خليفة الذي تروي عنه؟! قال: لا، قال: كيف تروي عنه ولم تره؟! قال الشاب: أنا أحفظ هذا الإسناد؛ فكلما سمعت حديثًا ضممته إلى هذا الإسناد".

ويروي "الحافظ بن كثير" أن هناك من أدخل على المسلمين أحاديث متروكة وموضوعة بقصد تفريقهم، وقال "حماد بن زيد": وضعت الزنادقة على رسول الله أربعة عشر ألف حديث لم يحدث بهم النبي (ص).

من هؤلاء "عبد الكريم بن أبي العوجاء" الذي قال قبل أن يقتلوه: "أدخلت فيكم أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال وأحلل فيها الحرام".

وقال "حماد بن سلمة": "أخبرني شيخ من الرافضة (إحدى الفرق الإسلامية) أنهم كانوا يعملون على وضع الأحاديث.

أما مؤلف "المفهم في شرح صحيح مسلم" وهو "الإمام أبو العباس القرطبي" فقال: "استجاز بعض الفقهاء نسبة حكم دل عليه القياس الجلي إلى رسول الله.. فيقولون قال رسول الله كذا وكذا".

ربما لذلك اعتقد الإمام "الشافعي" في صحة حديث واحد، هو: "من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار".

لم ينكر "الشافعي" باقي ما قيل إن النبي (ص) قاله، لكنه نظر إليه بعين الشك والريبة حتى يتأكد.

وليد طوغان

القاهرة في 2011

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخرةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة الإسراء

كلنا أحباب اللّٰه!

(1)

ما الذى قدمته جماعات الإسلام السياسى كى يدعوا أنهم الأولى بإقامة دولة الدين وأن على المسلمين فريضة أن يرتضوا بهم وكلاء الله؟

الإجابة: قدموا كل ما ينبغى معه فصلهم عن إدارة الدنيا، قبل سحب ولايتهم على الدين، إذا كان الله سبحانه قد ولاهم من الأساس.

فقد ولى الإسلاميون الدين شطرهم هم، وناحيتهم وحدهم قبل محاولاتهم تطويعه لما أرادوه من حكومة وسلطة، لذلك عصفت رغباتهم فى ولاية أمور المسلمين أحيانا كثيرة بالمسلمين، رغم ادعاءاتهم بحراسة الدين.. وبأوامر قالوا إنها من عند الله.

السؤال الثانى: هل السلفيون هم وحدهم أحباب الله كما يحبون أن يظهروا أنفسهم؟
الإجابة: لا. السؤال الأهم: هل يصلح الفكر «السلفى»، الجامد للتماشى مع عصر واسع مرن؟ الإجابة أيضا لا.

فالذى حدث، أن جمد السلفيون الإسلام بعد أن رجعوا به إلى الخلف، ثم علبوه وقالوا إنهم احتكروا ماركاته، وخلطاته بسيرهم على خطى السلف الصالح، رغم أن السلف الصالح لا أمروا ولا شهدوا والأقرب أنهم لم يكونوا ليرضوا لو عرفوا.

السؤال: هل قدم السلفيون للإسلام جديدا؟ الإجابة: لم يحدث.

سؤال خامس: هل يمكن للسلفية إصلاح الدين وتجديد خطابه ومن ثم إصلاح الدنيا حسبما أراد الله ومثلما حثت شريعته كما يقولون؟

الإجابة: لا بوادر لهذا ولا تاريخ. ربما لذلك كان طريفا إعلان تياراتهم نية المشاركة السياسية، بعد يناير2011 أملا فى إصلاح الدنيا.. وكان مدهشا أيضا.

سبب الأزمة أن الذين يظنون أنهم وحدهم أهل الله ويوصفهم المحتكرين وحدهم

لحقائق الله، كانوا فى الوقت نفسه، هم الذين يرفعون رايات التعاون كثيرا، والجدل أحيانا مع من لا يعترفون، بأن لله حقوقا جعلها حكرا على أحد، وأنه سبحانه لم ينص على طرق بذاتها للتعاطى مع أمور الدنيا ومن ثم أمور السياسة. رغم أن السلفية لا يرون ذلك، لذلك هم يحرمون الفصل بين الدنيا والدين، ويؤكدون الوصل ويخرجون المعارضين من الملة.

تعاونهم مستحيل، والتوافق معهم مستحيل أيضا، فالسلفيون يرون أنهم أدرى المسلمين بشئون دنيا المسلمين، ويرون أيضا أنهم القيم على الدين القيم وهم يكذبون، لذلك فربما يدخلون النار.

تاريخيا كل محاولاتهم للانخراط فى المجتمعات الحديثة باءت بالفشل فخطاب «أهل السلف» واحد «جامد» بينما خطابات مجتمعات العلم والاجتهاد «واسعة»، «حرة» لا الدين فيها حكر على أحد، ولا الإسلام قائم فيها بأحد.. ولا قائم لأحد.

والإسلام على عكس ما يرى أهل السلف ليس دينا سلفيا، فلم تنص شريعته على أن «السلف الصالح» رضوان الله عليهم كانوا هم الإسلام، ولا أن أقوالهم وأعمالهم، رضى الله عنهم جميعا كانت عماد الدين، لكن بعض الذين ولدوا بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام على وفاة الصحابة لايزالون مصرين على ذلك.

يدخل السلفية النار أيضا لأنهم أحدثوا فى العقيدة مثلما أحدث الهراطقة والوضاعون، فإذا كان هؤلاء قد خاضوا فى الإسلام تجريحا وذما؛ فإن السلفية على الجانب الآخر جمدوه واحتفظوا به فى ثلاجات التاريخ لتفسد المواد الحافظة إسلامهم مع أن الله سبحانه لم يشرع الدين إلا لصلاح المجتمعات، وصلاح المجتمعات لا توجد أدواته فى «ثلاجات» التاريخ!

ربما لا يعلمون، لكن المنهج السلفى دعوة للعودة بالدين إلى الوراء، فتقليد السلف الصالح، والمحاولات المستميتة لمحاكاة زمانهم بزماننا رغم تغير الظروف واختلاف البلاد وتلون العباد، كانت فاحشة تاريخية ومقتا اجتماعيا وساء سبيلا.

«أهل السلف» إذن ليسوا أهل الله، حتى لو قالوا ذلك. فهم «مقلدون» تراثيون، مع

أن الدين تقدمى عفا الله فيه عما سلف، أى ما مضى قبل نزول الرسالة، وجاءت شريعته واضعة المستقبل أمام أعينها.. للذين يتفكرون.. والسلفية لا يفعلون!

فى الاصطلاح تعنى «السلفية»: الاعتقاد بضرورة العودة إلى نهج الصحابة والتابعين وتابعى التابعين فى أصول الدين والمعاملات. «أو هى فى تعريف آخر» انزال حكم السلف، أو المسلمين الأوائل على الواقع بصرف النظر عما تقتضيه المقارنة بين ظروف زمان الأوائل وبين ظروف زماننا. فالأجيال من جيل الصحابة حتى تابعى التابعين هم المقصودون بالسلف أما ما جاء بعدهم من أجيال فهم الخلف وفى اللغة أن الخلف تال على السلف وأن السلف هو ما قبل أو ما مضى.

مكمن الأزمة ومحل الخطورة فى إصرار التيارات السلفية على الاعتقاد في توقف الاجتهاد فى فهم الدين وتأويل نصوصه ومعرفة علل آياته، على ما مضى وعند من مضى.

وهم يرون أن اجتهادات الأوائل فى التفسير وفى المعاملات كانت هى الدين مع أن هذا ليس صحيحا ولا معقولا، فقد سمّى الله شريعته بـ«الدين القيم»، بما يحويه التعبير من قدرة على التطور والتجديد وإضافة إلى ما فيه من مرونة لاستيعاب كل ما يطرأ من تغيرات مجتمعية أو ما يدخل على ظروف اتباعه من مشاكل ومعضلات حياتية.

إذًا الإسلام ليس هو السلف ولا السلف الصالح رضوان الله عليهم، كانوا هم الاسلام لأنهم لو كانوا، فالمعنى وقتها انتهاء الرسالة المحمدية بوفاة الشخص الأخير من جيل تابعى التابعين، ما يعنى أن كل ما ظهر فيما بعد من علوم أصول فقه وعقيدة وفلسفة إسلامية كان عليها لو صح هذا أن تشتغل على فهم ما فهمه أجيال السلف الصالح من الدين لا أن تشتغل على كيفية فهم الدين نفسه.

فالسلف كانوا بشرا وما سنه البشر القدماء يمكن أن يكون تراثا لكنه لا يمكن أن يكون مقدسا، فالمقدس هو الذى يأتى من عند الله مهما طال على وجوده الزمن، بينما التراث هو الذى تركه الأقدمون سواء ما كتبوه من تلقاء أنفسهم أو ما تركوه من محاولات تفسيرهم لمقاصد الله.

لذلك يمكن القول أن سلوك الخليفة أبو بكر (رض) مثلا فى واقعة ما وتفسيره لحكم قرآنى ما، كان انعكاسا لتدين أبى بكر (رض) أو مرآة لفهمه الشخصي للدين، فى الوقت نفسه لا يمكن القول أن سلوكه (رض)، واجتهاداته فى الفهم، هو بالضرورة الدين نفسه.. والفارق بين الحالتين كبير.

اعتبار سلوك السلف مرادف للإسلام يعنى تحويل الإسلام إلى تراث.. والإسلام ليس كذلك، لذلك فالأولى اعتبار مسالكهم فى فهم الإسلام وتطبيقاته اجتهاد وفق ثقافتهم وقدرتهم على الاستيعاب بما يتماشى مع أرضيتهم المعرفية والعقلية ذلك الوقت.

اجتهادات السلف الصالح هى التى كانت تراثا وميراثا لأنها من عند أنفسهم، بينما لا يمكن القول بأن القرآن الذى من عند الله كان كذلك، فكتاب الله ثابت نصه منذ عصر السلف للآن، بينما المتغير هو تفسيرات السلف له واجتهاداتهم فيما يرون أنه القصد من آيات الله فى بناء المجتمعات وتقدمها.

لماذا إذًا لن يدخل السلف الصالح النار؟ لأنهم فهموا طبيعة الإسلام وقدرته على استيعاب الخلاف والاختلاف على عكس ما فهمه الشيخ محمد حسان أو الشيخ ياسر برهامي.

ثم إن السلف أنفسهم لم يكونوا سلفيين، ففى خلافة أبوبكر (رض)، حدث خلاف شديد بينه وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بعدما جهز الأول جيشا للخروج إلى ما سمى بحروب «الصدقة»، بينما رفض ابن الخطاب الحرب وشهر عنه قوله (رض): «لو لم تكن فتنة لمنعت أبا بكر».

السبب كان فى إصرار أبي بكر على الاقتداء بالرسول فى كل ما فعله دون اجتهاد ويصرف النظر عن ظروف تصرفات النبى (ص) فى وقائع بعينها، لذلك قرر الخروج لحرب قبائل امتنعت عن دفع أموال كانوا يدفعونها للنبى بعد وفاة النبى.

فى الأزمة بدا أبو بكر سلفيا، بينما كان عمر تقدميا، حرا وعلى خلاف أبى بكر رأى عمر أن خروج جيش المسلمين لحرب قبائل تدين بالإسلام لا يجوز . ورأى أيضا أن الأموال التى كانت تلك القبائل تؤديها للنبى (ص)، كانت مقصورة على النبى (ص)

وحده فى حياته بنص الآية الكريمة «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكنا لهم» «التوبة – 103».

رأى عمر أن خروج جيش المسلمين لقتل مسلمين حرام. كما رأى أن رغبة أبى بكر فى محاكاة كل تصرفات النبى (ص)، بلا ضابط رغم تغير الظروف ليس من الدين، بينما لم تخرج كل تصورات أبى بكر عن استعداده لحرب «كل من يمنعنى عقالا كان يعطيه للنبى» كما قال (رض) بلا اجتهاد، وبلا أدنى فرصة لمعرفة أسباب أو علل اعطاء النبى (ص) «العقال»!

الخلاف بين السلف والخلف سلسلة فى تاريخ الإسلام لم يظهر لها حلول للآن مع أن نتائجها متكررة ومستمرة، فهي لا تخرج عن صدام بين تصورات مجتمعات «التقليد» على قدرتها على التجديد وبين مجتمعات ترغب فى التجديد.

تلك النوعية من الصدام تظهر فى الصراع الفكرى بين مدرسة «الحديث» فى المدينة المنورة وبين مدرسة «الرأى» أو «الاجتهاد» فى العراق.

فرغم طول المدة وتغير الظروف بعد وفاة النبى (ص)، ظلت مدرسة المدينة التى شكلت نواة «السلفية» على نهجها فى «التقليد»، و«التقييد»، رافضة كل ما ابتكرته مدرسة العراق من فلسفة وتحرير واجتهاد. فقد استقر فى عقيدة معظم لأئمة المدينة حتى إغلاق باب الاجتهاد فى القرن الرابع الهجرى، إن كل ما يخرج عن دراسات السنة وأسانيد الحديث وتفسيرات القرآن وفق اجتهادات الصحابة الأوائل هو خروج عن الدين، لذلك قامت كل مدارس الفلسفة الإسلامية وحركات التجديد الدينى من مدرسة الرأي فى العراق منشئة علوما كثيرة رفضت التقليد ورفضت فى الأساس قبول كل المنقول من السنة النبوية دون التيقن أولا من أن النبى (ص) قد قاله أم لا.

على خلاف «سلفية المدينة»، تحسب فقهاء العراق، وفحصوا، واحتذروا ثم نقضوا غالب ما جاء من مدرسة «السلفية»، حتى وصلوا إلى أبعد مدى.

فشهر عن الإمام الشافعى مثلا، رفضه التسليم والإيمان بكل ما نقله أهل المدينة بوصفه منقولا عن النبى (ص). وأعلن الشافعى اطمئنانه إلى أن حديث واحد هو الذى

تأكد أن النبى (ص) قد قاله فعلا وهو: «من كذب على متعمدا..».

تحسب الشافعى من نفاذ اللامعقول إلى المنقول، قابله فيضان فى المدينة بتداول كل ما شهر أن النبى (ص) قد قاله من حديث دون التيقن ما إذا كان (ص) قد قاله بالفعل أم لا، وهذا كان قمة ما أحدثه المنهج السلفى من مشكلات فى الدين وقتها. ولما تلونت التيارات السلفية فيما بعد وتغيرت، أحدثت ثانى ما يمكن أن يحدث فى الدين من مشكلات، إذ أصرت على رفض إعادة تصحيح ما حدث، أو إعادة التفكر فى الذى حدث.

والنتيجة انتقال خطيئة السلف، إلى الخلف، ففى كتابه الموطأ قال الإمام مالك فقيه المدينة أنه جمع كل ما نمى إلى سمعه من حديث بصرف النظر إن كان صحيحا من عدمه قال مالك أنه جمع فى الموطأ كل ما سمع أن السلف قد رووه عن النبى وقال فى مقدمته «ضم كتابى هذا مع الصحيح الضعيف والمشهور والمرسل» والثلاثة الأخيرة أنواع لا تأخذ بها غالب مدارس الفقه الإسلامى.

ومن المدينة أيضا شهر عن الإمام أحمد بن حنبل «أستاذ ابن تيمية السلفى» عمله بالحديث الضعيف وتفضيله له عن الاجتهاد وإعمال العقل وقال ابن حنبل: «الحديث الضعيف أحب إلى من الرأى» والرأى يعنى الاجتهاد!

التصورات عن تعاون السلفية مع الليبراليين أو قوى اليسار مثلا، وفق إعلاناتهم الأخيرة عن رغبتهم فى الانخراط السياسى والاجتماعى بعد يناير2011 حتى الآن غائمة وضبابية وربما الأصح أن يدخل أصحاب «مدرسة التقليد» إلى الساسة وحقول السياسة، بنفس ما دخلوا به ساحة التفسير والتأويل أول مرة.

الأصح، أن تدخل أحزاب السلفية ساحات السياسة بالاملاءات لا بالتوافق مع أن المجتمعات الحديثة توافق لا تراشق، كما أن السياسة اجتهاد لا اجهاد وغلبة أو سيطرة.

الصدام بين «أهل السلف» وبين مجتمعاتهم حتمى لأنه لا سبيل لقبول «السلفية» بالتجديد فى السياسة، أو استيعاب الآخر، تماما كما لم يقبلوا التجديد فى الدين باستيعاب الجديد. إضافة إلى أنه لا سبيل إلى اقناعهم بهذا لا هنا ولا هناك فى الوقت الذى لا يمكن للمجتمعات الحديثة ولا لمواطنيها تصور أن تكون سياسة بلادهم فى

المستقبل حكرا على أفكار الساسة القدامى ولا وقفا على اجتهادات المسلمين الأوائل.

ثم إن «السلفيين» الجدد لم يقدموا ما يمنع هذا التداخل، ولا هم هيأوا ما يمكن أن يحسن صورتهم لدى الذين يرونها تزداد قتامة. منهج أهل السلف فى رفض التجديد بالضرورة سوف يكون وبالأعلى السياسة كما كان وبالا على الدين.

فأهل السلف هم أهل السلف، جمودهم فى السياسة هو نفس جمودهم فى الدين للحد الذى أدخل على الدين ما ليس فيه وأبقى على الذى ما كان يليق له أن يبقى من دعوات تقديس الأوائل والقرب من تأليه تراث الذين قد سلفوا.

خذ عندك فى الفقه على سبيل المثال حتى الآن لازالت كثير من مدارس السلفية تأخذ بثبوت نسب الطفل لأبيه مادامت قد حملت به الزوجة رغم عدم ثبوت التلاقى بين الزوجين!

ففيما يسمى بالزواج «الحكمى»، إذا عقد رجل فى بلد عقدا على امرأة فى بلد آخر بتوكيل أحد أقاربه ثم حملت الزوجة يثبت نسب المولود للزوج ودون الداعى لإثبات قدومه من البلد التى كان فيها وحتى إن لم يكن قد جاء فعلا!

وسبب ثبوت النسب فى هذه الحالة كما يرون هو قول بعض السلف أنه يجوز للزوج أن يكون من «أصحاب الكرامات»، وهم الذين فتح الله عليهم بالقدرة على التواجد فى أكثر من مكان فى نفس الوقت فيما يعرف فى التراث الشعبى بـ«أصحاب الخطوة». فقالوا إنه يجوز للرجل، فى هذه الحالة أن يجامع زوجته دون أن يلقاها فعلا ودون أن تدرى هى وهو حكم ما كان ليبقى لولا الخوف من الاقتراب من أحكام الأوائل وإعادة فحصها!

وإليك هذه المشكلة، أيضا فلدى كل مدارس السلفية لا يثبت نسب الطفل لأبيه فى الزواج الباطل حتى مع ثبوت التلاقى بين الرجل والمرأة، فإذا عقد مجنون أو صبى غير مميز قرانه على فتاة أو تزوجت مسلمة بغير مسلم، ولو دون علمها بديانته فإنه لا يترتب على عقد زواجهما سوى ثبوت المهر للأنثى بينما لا يثبت نسب طفل ذلك العقد لأبيه!

فى المقابل استقرت مدارس كثيرة فى الفقه، على ثبوت نسب الأطفال فى الزواج الفاسد لأبيهم، متعللين بالحرص على مصلحة الأولاد، إضافة إلى ثبات المهر للمرأة

وضرورة أن تعتد عدة الطلاق قبل الزواج بآخر بعد التفريق بينها وبين زوجها.

ماذا يعنى هذا؟ يعنى أنه فى الزواج الفاسد الأقوى من الزواج الباطل، يثبت نسب الأطفال بينما لا يثبت النسب فى الزواج الباطل بينما يثبت فيه المهر للزوجة فى الحالتين!

تناقضات ومثلها الكثير لازال ساريا حتى الآن والمنهج السلفى هو المسئول عن منع الاقتراب أو التصوير من تلك الأمور للحد الذى حرم مجرد الإعلان عن ضرورة إعادة فحصها لجبرها أو حلها بما يوافق العقل ويتماشى مع تطور الظروف، المهم أن التيارات التى منعت فحص القديم فى الدين هى نفسها التى أعلنت بعد يناير استعدادها مشاركة المجتمع سياسيا وفق ما يريد المجتمع من تجديد!

شرع الله الدين لصلاح المجتمعات، رغم اختلاف أهواء الأفراد أو الجماعات؛ لذلك.. يري جمهور أهل الفقه أن الإسلام عادات تصح بها الدنيا (المقصود هنا هو المعاملات)، وعبادات يصح بها الدين.[1]

لكن الإمام "ابن تيمية" (فقيه السلف)؛ يقدم عادات العبادة علي عادات المعاملة، بينما يخالفه الإمام "الشافعي" والإمام "أبو حنيفة"، فغير أن الإمامين أكثر ميلًا للتيسير من "ابن تيمية"؛ فإن لهما رأيًا آخر له وجاهته.

فـ"الشافعي" مثلًا؛ يري أن الهدف من التشريع الديني هو أصلاح المجتمع، وتنظيم العلاقات، ومنع التشاحن أو الافتئات علي الحقوق بين أفراده، وعلى هذا؛ فإن المعاملات وفق هذا المنطق يجب أن تكون مقدمة، أو أولى من العبادات التي هي علاقة وصلة بين العبد وربه.

لا يعني هذا تقليل "الشافعي" من قيمة العبادات؛ إنما تأكيد من الإمام على أن

1- راجع (مبادئ علم الاقتصاد الإسلامي) د. خلاف عبد الجابر خلاف. معهد الدراسات الإسلامية (عام 2003). وفي كتابه (محاضرات في منهج الدين المقارن). للدكتور إبراهيم الفيومي. يعرف الدين ثلاثة تعاريف قائمة على التأمل الباطني. والحدس. وتعاريف قائمة على الموضوعية. وضمن التعريفات القائمة على التأمل الباطني. يعرض في ص 10 تعريف هربرت سبنسر أن الدين هو: الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية. وأشار سبنسر إلى أن الغيبية هي العنصر الأساسي في الدين. فيما يشير شلاخر (المرجع نفسه) إلى أن الدين هو قوام حقيقة شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة. بينما يعرفه ماكس مولر بأنه «محاولة تصور ما لا يمكن تصوره». والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه.. وكلها تعريفات جنحت بالدين إلى الفكر الغيبي. وقدمته على إشارات الإسلام بأكثر من صيغة على أن المقصود بالشرع. صلاح المجتمعات. إلى جانب التقوى. وإقامة العبادات.

القاعدة الفقهية أن حقوق الله محل عفوه، بينما حقوق العباد هي محل القصاص.

المعني؛ أنه إذا ترك العبد صلاة، ثم استغفر؛ فإن الله يغفر، بينما لو اعتدى عبد على آخر، واستغفر، فلن يغفر الله إلا بعفو صاحب الحق، فإذا لم يعفُ العبد.. وجب القصاص، فالقصاص من المعتدي علي حقوق العباد في الفقه؛ يمنع الفوضى، ويغلق الباب علي الاعتماد علي عفو الله، حيث تضيع الحقوق، وتُنتهك الحرمات، وتفور المجتمعات بالفوضى والدماء.. والبلطجة.

ولصلاح المجتمع، ودرء الحدود بالشبهات، ومنعًا للفوضى والأخذ بالشبهة؛ ظهرت قاعدة الاستصحاب أصيلة في الفقه الإسلامي، والاستصحاب هو استمرار الشيء على أصله، حتى تغير الأصل بدليل جديد يحوله إلى ضده أو مخالف له.[2]

فوفق الاستصحاب؛ لا تثبت جريمة علي متهم إلا بإقراره أو بالدليل، على أساس أنه ولد بريئًا بيقين، بينما اتهامه شك، وفقهًا لا يلغي الدليل اليقيني إلا دليل يقيني آخر، بمعنى أنه لا يجوز عقاب المتهم بالشك؛ لأن الأساس فيه البراءة "استصحابًا لأصله".

اللجوء للاستصحاب في الصراعات الطائفية، وفي الأزمات مهم؛ إذ إن تلك القاعدة التي اعتمد عليها كثيرٌ من أئمة الفقه الإسلامي تغلق الباب علي الظنون بما يؤلب المجتمعات بعضها علي بعض في أمر مشكوك فيه؛ فتتنازع الطوائف، وتتمسك الجماعات كل بآرائها وظنونها.. والنتيجة كوارث اجتماعية.. وطائفية أيضًا.

آراء الإمام "الشافعي" في التيسير اجتهاد، كذلك آراء الإمام "ابن تيمية"، والاثنان لم يخرجا لا على صحيح الدين، ولا عن روح الإسلام كل في عصره، لكن السؤال: ما الذي يجعلنا نرجح رأي أحدهما على الآخر في واقعة ما، إذا التبست الآراء، وغمت الأحكام؟

الإجابة: المصلحة، فقد اجتمع أهل الفقه على أنه حيثما توجد المصلحة، فعندها

2- (محاضرات في الفقه الجنائي الإسلامي). المستشار محمد بهجت عتيبة. ص 48 (يعرف الأصوليون الاستصحاب بأنه استدامة إثبات ما يكون مثبتًا من قبل. أو نفي ما يكون منفيًا من قبل).. أي بقاء الحكم الثابت نفيًا أو إثباتًا حتى يقوم دليل على تغير الحال. وهذا ما يتفق مع المبادئ الحديثة في الفقه الجنائي (المرجع نفسه). في أن الإباحة ثابتة لا تحريم فيها حتى صدور النص الذي يحرم الفعل الذي ينص على العقاب.

والغرض من تطبيق هذه القاعدة تحقيق أمرين: الأول: أن البراءة تكون ثابتة حتى يقوم دليل يغير هذه البراءة. وثانيًا. أنه لا يجوز العقاب على أفعال ارتكبت قبل تأثيم هذه الأفعال من ولي الأمر. وإلا يكون قد خالف أصلًا شرعيًا مقررًا.

شرع الله، والمعنى أن المصلحة غالبًا ما تتلاقى عند الفقه الأيسر، وحيثما يرفض المجتمع التشدد، ويأخذ في الاعتبار ظروف العصر وملاءمة الأحكام الفقهية لتراكيب المجتمعات.

حديثًا، بدا أن كثيرًا من السلفية لا يأخذون بالأيسر، وهي الأزمة التي ظهرت ملامحها، مشيرة إلى حتمية صراع إن آجلاً أو عاجلًا بين هؤلاء، وبين طوائف فكرية ودينية لم تعد تتحمل الميل إلى التشدد منذ الثمانينيات من القرن الماضي.

ففي أزمة زوجة كاهن "دير مواس" عام 2010؛ أقامت الجماعات السلفية الدنيا ولم تُقعدها بعد إشاعة إسلام "كاميليا"، واحتجاز الكنيسة القبطية لها عقابًا على الإسلام، كانت الأزمة خطيرة، وتصعيد السلفية أيضًا كان خطيرًا، مع أن "كاميليا" لم يثبت إسلامها بيقين، ورغم أن مسيحيتها أصلية استصحابًا لديانتها وقت الميلاد.

هذا من جانب، من جانب آخر؛ فإن الوقيعة بين المصريين بسبب إسلام "كاميليا" أو عدمه؛ لم يكن في صالح مجتمع كان يميل إلى النظر للأمام؛ بلم شمل المصريين جميعًا، للعمل وفق صالح المصريين جميعًا، لم ير كثيرٌ من جماعات السلفية إلا تحت أرجلهم، هم أشعلوا نيرانًا وفق تصوراتهم عن الجهاد، وأوقدوا نارًا، بوهم حماية الدين.. مع أن في صحيح الدين: درء المفاسد مقدم على جلب المنافع.[3]

المعنى: أن درء مفسدة تطاحن أقباط ومسلمي مصر، وتربص كل منهما بالآخر؛ كان في صحيح الدين، وروح الإيمان؛ أولى من جلب منفعة إرجاع "كاميليا" المشكوك في إسلامها.

السؤال الثاني: هل كان غرض جماعات السلفية من أزمة "كاميليا" الإصلاح؟

الإجابة: لا شك في غيرة السلفية على الدين؛ لكن هذا لا ينفي في الوقت نفسه اقتران غشم القوة بتلك الغيرة، ولا ينفي إلا أنهم فقدوا الانتباه لعوامل أخرى كثيرة خلال معاركهم الجهادية؛ فلم يقدموا مع رؤيتهم لما يصح به دينهم، رؤية أخرى جديدة تنصلح بها مجتمعاتهم، فإقامة الدين على أنقاض المجتمعات.. ليس من الدين!

3- قاعدة فقهية إسلامية. تعمل جنبًا إلى جنب مع قاعدة سد «الذرائع». ويعرف سد الذرائع بأنه رفع الوسائل التي تؤدي إلى المفاسد. والأخذ بالوسائل التي تؤدى إلى المصالح «محاضرات في الفقه الجنائي الإسلامي» (سبق الإشارة إليه). ومؤدى ذلك لدى عموم الجمهور أن وسيلة المحرم تكون حرامًا. ووسيلة الواجب تكون واجبة.

لكن معظم السلفيين لا يجتهدون، أو قل إنهم لا يجتهدون إلا في حدود اجتهادات المسلمين الأوائل، مع أنه يجوز لهم الاجتهاد وفقًا لظروف العصر، وتغير الأحوال، والثقافة. أكثرهم يأخذ بالكثير من فقه "ابن تيمية"، بينما للإمامين "الشافعي" و"أبو حنيفة" آراء في المسائل نفسها أيسر حلًا، وأكثر ملاءمة للدين والدنيا من دون الخروج على شرع الله.

يرى معظم "أهل السلف" أنهم يعملون شرع الله، وهم الذين ينزلون حكم الله، وهم وحدهم الذين يقيمون حدود الله.. مع أن هذا غالبًا لم يعد صحيحًا.

يُروى أن رسول الله (ص) سأل أحد ولاته وهو في الطريق لإمارته: بمَ تحكم؟ فأجاب: بكتاب الله، فقال (ص): وإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله؛ فقال (ص): وإن لم تجد؟ فأجاب الوالي: أعمل بحكم الله؛ فقال النبي: لا؛ بل اعمل حكمك أنت واجتهد، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم.

لا أحد يعرف للآن كيف يريد شباب السلفية إنزال حكم الله.. في أرض الله، رغم تغير الظروف، وشيوع الثقافات، ورغم الأدلة الفقهية التي ضبطت كثيرًا من القواعد؛ فلا التفتوا إليها ولا اجتهدوا معها؟

هم مؤمنون لا جدال؛ لكن الذي لا جدال فيه أن أغلبهم.. ليسوا مفكرين ولا مجتهدين. مصطلح "السلفية" نفسه تقليد، وهو أيضًا ليس وصفًا دينيًا؛ فالدين تقدمي، بينما التيار السلفي دعوة واضحة للرجوع إلى الخلف تمسكًا بالسلوك القويم لـ"السلف الصالح".[4]

الاستئناس بمسالك الأوائل مفيد، لكن من غير المفيد؛ اعتبار سلوك هؤلاء الأوائل أكثر من اجتهادات بشر، ومن غير المعقول الإصرار على رفع هذه الاجتهادات إلى مراتب النصوص السماوية أحيانًا.

الفجوة بين جماعات السلفية ومجتمعاتها؛ هي نفسها الفجوة بين اجتهادات السلف في أمور الدنيا قبل 1400 عام، وبين ما يمكن أن يحدث لو تمسكنا باجتهاداتهم في

4- (تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية). د. صوفي أبو طالب. ص 4 و5. فالتيار السلفي (الأخذ بما أخذ به الصحابة والتابعون وتابعو التابعين) هو النقيض من التيار العلماني. فالتيار السلفي يلتمس الإصلاح بالتحفظ على ما ورد في الكتاب والسنة من أحكام. وما خلفه المسلمون الأوائل من قيم وأفكار بينما فحص هذا من عدمه لا يزال محل الجدل.

أمور الدنيا.. بعد مرور أكثر من 1400 عام.[5]

غير ذلك، فالدعوة لتقليد السلف هي انسحاب من مجتمعات تخطت فكر السلف بمئات السنين. والإصرار على التمسك بفلسفات "أبي بكر وعمر" (رض) في تسيير أمور الدنيا الآن، ليست في صالح "أبو بكر وعمر" (رض) باعتبارهما - رضوان الله عليهما؛ ليسا معصومين.. ولا مقدسين في الفكر الإسلامي السليم.

فالذي أتى به الدين؛ هو من عند الله، أما الذي أتى به أشخاص لتفسير مقاصد الدين؛ فهو من أمور الدنيا، وفي أمور الدنيا.. يجوز الاختلاف، ويجوز تغير الأحكام مع تغير الزمان.

الإمام "الشافعي" عدل فقهه بعد انتقاله من العراق لمصر؛ لأن العرف في العراق، كان مخالفًا لأعراف المصريين، وما كان عليه المجتمع المصري وقتها؛ كان مختلفا عما كان عليه المجتمع العراقي.. لذلك؛ بدل "الشافعي" اجتهاده، ونقض بعض آرائه الشرعية القديمة.

ثم إن ليس كل ما اجتهد فيه السلف يمكن سحبه على الدين، باعتبار أنه هو ما أراده الله لعباده؛ فقد حدث أن اختلف "عمر بن الخطاب" مع "أبي بكر" في تفاسير كثير من آيات الأحكام، ورغم أن "أبا بكر" و"عمر".. "سلف "؛ فإن عمر (رض) رد اجتهاد "أبي بكر" في الخروج لحروب الردة ورفضها في البداية، وشهر عنه قوله: لو لم تكن فتنة لمنعت أبا بكر.

و"عثمان بن عفان" (رض) "سلف" هو الآخر، لكن هذا لم يمنع السيدة "عائشة" من الخلاف معه للحد الذي أسهبت فيه كتب التاريخ.[6]

ولم يخلُ تاريخ السلف من عواصف فكرية.. بدءًا من مآخذ الصحابة على "عثمان بن عفان" ولايته (رض) لأقاربه، وإرجاعه "العاص بن وائل" للمدينة بعد وفاة النبي، مرورًا بمناقضة السيدة "عائشة" لـ"ابن عباس" في فقه الزواج، وانتهاء باشتداد "عمر

5- (مدعو النبوة في التاريخ الإسلامي)، وليد طوغان، دار الخيال، ص 207 وما بعدها.

6- (عبقرية الإمام علي)، عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة لمؤلفات، المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني، و(الطبقات) لابن سعد، و(مروج الذهب) للمسعودي، وراجع الطبري، (تاريخ الرسل والملوك)، الجزء الثالث، ص 439.

بن الخطاب" على "أبي هريرة"؛ حتى قيل إنه ضربه لكذبه في الحديث النبوي.[7]

يجوز اعتبار التيارات السلفية أصولية، ويجوز اعتبار جميع تيارات الأصولية الدينية "دوجماتيك".

ماذا تعني "دوجماتيك"؟ تعني احتكار الحقيقةَ، أو الإيمان بالحقيقة الواحدة، أو الحقيقة الإلهية من وجهة نظر واحدة وحيدة.. وجهة نظرهم هم، باعتبارهم هم وحدهم أهل الله.[8]

كعادة الأصوليين؛ لدى السلفية يقين غير مبرر بأنهم هم وحدهم أحباب الله، وأن الحقائق الإلهية تبدأ وتنتهي عندهم؛ لذلك؛ فعندما يدخل الأصوليون أرض السياسة مثلًا، فإنهم لا يدخلون للتفاوض والسجال، وفق ما تحتمه عليهم ملاعب السياسة، وأساليبها، إنما يدخلون للسيطرة وفرض الرأي؛ تأكيدًا لاعتقادهم في مصدر آرائهم الإلهي.

الأصولية الدينية هي الدعوة للعودة بدول العصر الحديث إلى ما كانت عليه عصور الديانات الأولى، بصرف النظر عن تغير الظروف، وتبدل الأزمان.

رغبة الأصوليين مثلًا في الاشتغال بالسياسة؛ كانت معضلة من معضلاتهم الملحوظة في العصر الحديث، فالسياسة متغيرة، والدين ثابت، والسياسة متلونة؛ بينما لا يقبل الدين التلون أو التغير. السياسة هي فن تحقيق الممكن، والمتاح؛ بينما لا يقبل الأصوليون في الدين بغير إعمال النص، وبعضهم يختلف في التأويل؛ فيتقاتلون على مجرد الاختلاف!

سأل عمر بن الخطاب ابن عباس ذات مرة: على ماذا يختلف المسلمون بعدنا، فكتابنا واحد، ورسولنا واحد؟ قال ابن عباس: سوف يجيء قوما بعدنا، يقرءون القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيؤولونه، فيختلفون على تأويله، ثم يقتتلون على ما اختلفوا فيه.[9]

تاريخيًا؛ كانت معظم أزمات التاريخ بسبب تأويلات الأصوليين للنص، والاختلاف

7- (الشفاعة). كتاب أخبار اليوم للدكتور مصطفي محمود.. (محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدبن والمعارضين). ص 91, 92.

8- راجع (الأصولية والعلمانية). الدكتور مراد وهبة. و(مزيد من العلاقة بين «الدوجاتيك» والفكر الأصولي الديني). وظهور الدوجماتيك. ووقائع الخلاف بين العلمانيين والكنيسة في أوروبا بعد الثورة الفرنسية.

9- (الطبقات) لابن سعد. مرجع سابق.

على محددات التأويل في تسيير أمور الدول؛ فعندما تداخلت السياسة في الدين، قاتل الأصوليون المسلمون بعضهم على الاعتقاد، وقاتل الأصوليون المسيحيون أبناء دياناتهم على الهوية، كما قاتلوا بعضهم على الرأي.

لذلك؛ كانت الدعوة لإخراج السياسة من الدين وجيهة، ولم تكن الدعوات لفصل الدين عن السياسة ضد الدين؛ إنما تحرير له من منغصات السياسة؛ فالدين سماوي، والسياسة دنيوية. ثم إن مبادئ الدين واحدة؛ لكن مبادئ السياسة متغيرة، ومتعددة.[10]

دوجماتيكية "السلفيين" في السياسة، هي نفسها "الدوجما" الاجتماعية، وهي السبب مثلًا في موقفهم غير المحدد من الأقباط، أو اعتبارهم صفًا ثانيًا أحيانًا كثيرة في بلادهم، رغم أنهم مواطنون.

فالأقباط في نظر الأصوليين المسلمين مخالفون لمبادئ العقيدة الأفضل لديهم، والمعنى أن حقوقهم سوف تكون منقوصة، حتى مع الدعوة لقبولهم في المجتمع، ورغم كل ما يدعو إليه مشايخ السلف من حريات لغير المسلمين.

الملاحظة؛ أن مجرد إشارة مشايخ السلفية إلى قبولهم "غير المسلمين"، تعني أن هناك واقعين اجتماعيين لدى هؤلاء المشايخ؛ الواقع الأول هو المسلمون، والواقع الثاني هو غير المسلمين، والمعنى تفرقة؛ رغم ما يبديه المشايخ من تسامح.

"الدوجماتيك" بعد الثورة الفرنسية مثلًا، تسببوا في فساد اجتماعي وسياسي دام أكثر من 100 عام.. حتى تنبه الفرنسيون. فقد كانت أحزاب الدوجماتيك الدينية على النقيض من الأحزاب السياسية، ففي السياسة قد تتآلف مجموعة من الأحزاب رغم اختلاف الغايات، وتناقض الأفكار، وعدم وحدة المبادئ أحيانًا كثيرة.[11]

10- (نشأة الفكر الفلسفي الإسلامي). على سامي النشار. ج1. 1981. و(جوهر الإسلام). المستشار الدكتور محمد سعيد العشماوي.

11-إدموند بيرك. (انعكاسات الثورة في فرنسا). 1969. وفي كتابه «الأصولية والعلمانية». كتب الدكتور مراد وهبة: إن العقل الإنساني ينزع بطبيعته نحو توحيد المعرفة الإنسانية. وهو من أجل هذا يتجول في كل مجال من مجالات هذه المعرفة. ثم هو يضمها جميعًا. ويربط فيما بينها برباط ووحدة عضوية واحدة. بحيث لا يمكنه فصل عضو عن الكل إلا بالقضاء عليه كله. ونزوح العقل نحو التوحيد. هو في حد ذاته نزوح نحو المطلق. فالإنسان يسعى إلى الحقيقة المطلقة. بحكم خوفه الدائم. وإحساسه بعدم السكينة في هذا الكون المجهول.

مبادئ الأحزاب المدنية تحمل سطوة الإلزام على أعضائها بوصفها مبدأ سياسيًا، وهو ما لم يكن يمكن مقارنته بسطوة إلزام مبادئ أحزاب الجماعات الدينية، بوصفها مبادئ إلهية، فالأحزاب المدنية دائمًا ما تسعى إلى تحقيق الممكن لا المفروض، وعلى أساس التوافق لا التدافق، بينما لدى الأحزاب الدينية من الخطوط الحمراء ما لا يجعل من التوافق ممكنًا مع الآخر معظم الأحيان.

ففي فقه السلفية المسلمين مثلًا: لا تصح ولاية المرأة، كما لا تجوز ولآية الأسير والضرير، ولديهم: لا تجوز ولآية غير المسلم علي المسلم، كما لا تصح الشورى إلا بين أغلبية مسلمة، فمن شروط صحة الشورى لدى المتشدد من مدارس الفقه الإسلامي أنه لا يعتد بأغلبية غير المسلمين على المسلمين، ولا يجوز اتفاق الأغلبية على ما يخالف اجتهاد مشايخ السلف، فإن حدث: يجوز الخروج على الأغلبية بالسلاح!

المعنى: أن تفكير جماعات السلف (لو اتفقوا) على دخول الحركة الحزبية والانخراط في المجتمعات الحديثة بدلًا من العمل تحت الأرض: يشير إلى رغباتهم في إصباغ المجتمع بألوانهم: لا الاختلاط مع الألوان الموجودة في الطريق للون جديد.

لسنا الضد لجماعات السلفية: إنما هم الأضداد لمجتمعات ترفض العودة للخلف باسم الدين، وتنادي بالحكم على النوايا والمحاسبة على ما في الصدور.

في أسوأ أزماتنا، لم يخرج منا من يتشدد في العقوبات، وينكل بأبناء الوطن، فيهدد بناتهم، ثم يقطع أذن مدرس لمجرد الشك في سلوكه، ناهيك على أنه لا عقوبة في مدارس الفقه الإسلامي.. تنص على قطع الأذن.[12]

ويرفض السلفية علمانية الدولة، باعتبار العلمانية الضد، ورغم ما في هذا التصنيف من كلام وحديث: هم يرون أن العلمانية إلحاد، وهو ليس صحيحًا: فالعلمانيون مؤمنون، أو منهم متدينون.. كل ما هنالك أنهم يفصلون إدارة الدولة.. عن شئون الدين كفًا للصراع

12 - إشارة إلى واقعة تعدى مجموعة من السلفيين على المدرس القبطي أيمن متري في صعيد مصر عام 2011. فقاموا بقطع أذنه زعمًا بتنفيذ حد الحرابة عليه: لاعتقادهم بإيوائه إحدى السيدات سيئات السمعة (مارس 2011). إلا أن النيابة العامة قد حفظت التحقيق بعد تنازل القبطي. الذي كان قد صرح لوسائل الإعلام بحقيقة ما توصلت إليه السلطات من أن مجموعة من الشباب المنتمين لإحدى الجماعات السلفية هم الذين نفذوا الاعتداء عليه زجرًا له على أعماله «الحرام».

بين مختلفي الديانة في الوطن الواحد.

فلا العلمانيون كفرة، ولا السلفيون وحدهم أحباب الله. العلمانية اتجاه فكرى، واعتبارها لفظًا مضادًا للدين أمر غريب، وعجيب، يشير إلى فساد التعليم في مصر منذ ثورة 1952 وحتى الآن.

التعليم، والثقافة الشعبية أدّيا ببعض المصطلحات في الشارع المصري إلى مناطق حمراء، صارت محرمة فيما بعد، فالعلمانية صارت موازية للكفر، أو هي الكفر، مع أن هذا ليس صحيحًا.

والثقافة الشعبية أيضًا هي التي أدت إلى اعتبار السلفيين هم وحدهم أهل الله، مع أن هذا لم يكن هذا صحيحًا أيضًا؛ فالسلفية اتجاه فكرى، يجوز أن يظهر الخطأ في بعضه، كما يجوز أن تظهر أخطاء في كثير من الأفكار العلمانية.

لكن العلمانية مبدأ عام، يمكن اعتباره مرادفًا لمفهوم المواطنة، أو مدنية الحكم في دولة ما، والعلمانية على هذا الأساس صيغة أشمل من صيغ الحكم، فالفكر السلفي ديني، والاتجاه العلماني مدني، والفكر الديني خاص باتباع الدين الواحد، بينما العلمانية اتجاه عام لاستيعاب جميع أبناء البلاد على اختلاف الأديان، واختلاف الاتجاهات الفكرية.

لم يقل أحد إن الحكومة العلمانية بالضرورة حكومة كافرة، ولا علاقة لما يرتبط في الشارع من تهويمات وخيالات حول مفهوم العلمانية بالواقع. يجوز أن يكون أعضاء الحكومات العلمانية مؤمنين مسلمين كانوا أو مسيحيين، أو يهودًا، ويجوز أن يكونوا ملاحدة، فلا علاقة للديانة في النظم العلمانية.. بأداء أعضاء الحكومة.

والفارق بين الحكم المدني، والحكم الديني.. كبير، فالدولة المدنية تسعى لاستيعاب جميع مواطنيها باختلاف أديانهم؛ بينما الدولة الدينية تسعى لفرض اجتهادات دينها على مواطنين لا يؤمن كثيرٌ منهم به، النتيجة خصام.. وصدام.. ودماء لو لم يأذن الله بالعفو.

والعلمانية ليست طائفية، لكن الدين بالضرورة كذلك؛ فسن قوانين إسلامية في دولة ما، ثم إلزام غير المسلمين بتنفيذها، لا بد أن يؤدي إلى صراعٍ بين "طائفتين"؛ الأولى

تعتبر مصدر إلزامها للثانية إلهيا، بينما تسرّ الأخرى الكبت داخلها لحين الانفجار.

الفكر السلفي ليس مقصورًا على المسلمين وحدهم، ففي المسيحية هناك من يمكن اعتبارهم "سلفيين"، وفي اليهودية أيضًا.

فالسلفية كاتجاه يقوم على إحياء ما كان يقوم به الأوائل في بداية عصر الرسالة؛ يعني التمادي في التمسك بعادات بولس الرسول "سلفية"؛ لأن بولس الرسول من "السلف الأوائل" للديانة المسيحية، والإصرار على أداء "عادات" يوشع بن نون هي "سلفية يهودية".

صحيح يجوز اعتبار ما كان يقوم به السلف في عصور الأديان الأولى اجتهادًا، وتقربًا من الله على طريقتهم؛ لكن لما تغيرت الأزمان؛ وجدت العصور، يجوز للخلف - الذين هم نحن - أن نعبد الله بطرق عصرية من دون مخالفة الأصول، ويجوز لنا الاجتهاد بما يخالف اجتهادات السلف من دون أن نكون لا كفرة ولا طغاة.

فقد شرع الله الأديان للاستمرار، بينما عادات واجتهادات السلف موقوفة على أزمانهم وعصورهم، وثقافاتهم.. وهو ما ليس عيبًا في السلف، ولا نقيصة في الخلف أن يتدبروا أديانهم، مستوعبين تغير العصور، واتساع الثقافات.

أبو بكر الصديق (رض) كان سلفًا للإمام "الشافعي" مثلًا، وكان "الشافعي" خلفًا لـ"أبي بكر"، مع ذلك لم يقدم "أبو بكر" من الفقه الإسلامي مثلما قدم "الشافعي"، ولا قدم "عثمان بن عفان" (رض) للمسلمين، مثلما قدم "مالك" و"أبو حنيفة" من اجتهادات في فقه البيوع والرهن والارتفاق، وعدالة الشهود، وعدالة الرواة.

ليس عيبًا في "السلف" أبي بكر أو عثمان، ولا هي درجة أعلى للخلف، الشافعي وأبي حنيفة، إنما تغير الزمن، واتساع الرؤية في الفترة الزمنية بين أبي بكر (رض) والإمام الشافعي هي التي أتاحت للأخير استيعابًا أكثر، ورؤية أوسع للدين.

المعنى مرة أخرى؛ أن السلفية ليست هي الدين، وهي مرفوضة إذا كانت سوف تتسبب في إغلاق باب اجتهاد "الخلف" تمسكًا بآراء "السلف".. هذا من جانب. الجانب الآخر أن "السلفية" فقه ديني، لا يجوز إلا أن يحكم من يرتضي الدين أولًا، وهي بهذا

المعنى غير العلمانية، التي لا تنظم المجتمعات حسب الدين أو اللون.

السلفية الدينية آفة العصر الحديث، سواء مسيحية أو يهودية؛ فالدين لله، والوطن للجميع. والذين قالوا إن الهجوم على السلفية لقطعهم أذن مسيحي في أسيوط ؛ لم يعد مناسبًا في وقت قتلت فيه عائلة مسيحية ابنتها لإسلامها وزواجها من مسلم في كرداسة، يزايدون.. ويمارون، ولا يفقهون حديثًا.

حادثة قطع أذن القبطي بعد 25 يناير 2011، مثلها مثل قتل المسيحية المسلمة في كرداسة. الحادثتان مصيبة تؤكد وجهة نظرنا؛ فالبعد الديني واضح، والصراع الطائفي شديد الوضوح أيضًا.

على العكس، حادثة قتل المسيحية لزواجها من مسلم كانت أخف وطأة؛ إذ عنصر القتل على "الشرف" نسبته كبيرة في ظروف مختلفة بالمجتمع المصري، بينما قطع أذن القبطي في أسيوط.. كان إيذاء على "الهوية" الدينية!

لذلا ؛ فالسلفيون مجني على عقولهم. ظلمهم الذين أخرجوهم، وجنى عليهم الذين أنشئوهم أول مرة.

بعض التيارات الإسلامية الأصولية خرجت "تخليص حق"، فالوهابية – مثلاً – ضربت الجزيرة العربية أملًا في الرد على هجوم فكري شيعي حزم جزيرة العرب، وأسس قاعدة لا يستهان بها في جبل الدروز بالشام، وعلى أطراف العراق.. وفي مصر.

صحيح أن التيارات السلفية أقدم من حركة "محمد بن عبد الوهاب" في السعودية، لكن الحركة الوهابية خرجت بهدف أساسي؛ هو تخليص حق المسلمين من خرافات "الغنوصية".[13]

13- يشار إلى مصطلح «الغنوصية» إلى أنه مرادف أو مكافئ لمصطلح «العقائد الباطنية» المنتشرة لدى بعض مذاهب الشيعة. وهي تلك التي تعتقد في أن لكل ظاهر باطنًا. وأن الباطن يحتاج إلى تفسير دائم. وتفسير الباطن في الكون. قد يدل على ما لا يدل عليه الظاهر.

وأخذ الشيعة تلك المفاهيم من تراث الفرس القدماء. إذ تقوم معارفهم الإيمانية على «النور الإشراقي». أي «الحدس المعرفي» لدى بعض الفلاسفة المسلمين. وكثير من المتصوفة. فالعلوم «الإشراقية». عكس العلوم التجريبية في التعريفات الحديثة. وغالبًا ما تقوم أسس العقائد لدى المتصوفة (مثلًا) نتيجة للحدس والإشراق. ويرى بعض الدارسين. أن الإشراق. التصقت به الكثير من «بقايا الغنوصية» القديمة.

الملاحظة المهمة؛ أن التيار السلفي هو الوحيد في تاريخ الحركات الإسلامية، الذي لم تطرأ عليه أية تغيرات فكرية، فلا يزال أبناؤه يتدارسون الآراء القديمة، والمسائل القديمة، وحلول الصحابة القديمة للمشاكل الفقهية القديمة أيضًا.

والتيارات السلفية التي ظن مشايخها أنهم خرجوا لصون الإسلام من الاعتداءات الفكرية؛ وقعت نفسها في بحور إبطال العقل بالنقل.. فمارست التقليد على أنه أمر الله، وامتهنت اللجج كأنه من العقيدة، ثم حرمت "الاجتهاد"؛ فصارت تحمل أسفارًا!

فالذي حدث.. أن حاول السلفيون العودة بالعقيدة للأصول، إلا أنهم تجمدوا، وتثلجوا على اجترار اجتهادات عقائدية، موقوفة على جيل تابعي التابعين.

تاريخيًا؛ لم تنشأ حركة فلسفية دينية لدى مدرسة المدينة السلفية، في حين تنوعت الانطلاقات العقلية في التفسير والتدبير بالعراق.

سلفيو المدينة: سموا فقهاء العراق بأهل "الرأي"، وامتنعوا عن الأخذ منهم والرد عليهم، وكان الرأي "آفة"، والاجتهاد "خطيئة"، مع أن معظم مدارس "التقليد" في المدينة هم الذين كانوا خطيئة التاريخ الإسلامي.[14]

بعد مئة وخمسين عامًا من وفاة النبي، كان السلفيون الأوائل قد استقروا على تحريم "الرأي"، وأبطلوا "العقل" بـ"النقل". "العقل" هو فك طلاسم النصوص القرآنية حسب المصلحة، وطبقًا لمتغيرات الواقع، بينما "النقل" هو التمسك باجتهادات الصحابة في التفسير، والأحكام الشرعية حتى لو تغير الزمن، وضاقت المصالح.

14- (أصول الفقه)، الشيخ محمد الحضري، ص 7. و(دراسات في أصول الفقه الإسلامي)، للأستاذ الدكتور خلفة أبو بكر حسن ص 52 و53 و54 (بتصرف)، وكتاب الإمام ابن تيمية «أصول الفقه» من ص 1 إلى 43. والمشهور عن الإمام أحمد بن حنبل قوله (الحديث الضعيف أحب إلي من الرأي)، مع ملاحظة أن الرأي هو الاجتهاد. وهو مخالف لأسس مدارس الشافعية والمتكلمين، الذين تقوم منطلقاتهم من تحقيق القواعد الأصولية من دون التأثر بالفروع الفقهية.

وفي كتابه (أصول التشريع ومناهج الاستنباط) للأستاذ الدكتور حمد الكبيسي ص 23 يرى: أن مدرسة المتكلمين كانت ذات اتجاه نظري تجريدي، يرمي إلى تقرير القواعد الأصولية كما تدل عليها الأدلة: فتجعل هناك موازين لضبط الاستنباط، ومعايير لسلامة الاستدلال، حاكمة لاجتهاد المجتهدين، لا محكومة بالفروع الفقهية.

وفي (أصول الفقه) للشيخ عبد الوهاب خلاف ص 18: «فإن منهج المتكلمين، عقلي، ينظرون للحقائق بصورة مجردة، لذلك نزحوا للبحث في أصول الدين، ونظرياته، بصورة مجردة، وكان دأبهم في علم الكلام، هو التوصل للحقائق، من دون نزوع إلى التقليد، كما أهل مدرسة المدينة، إنما باعتماد التحقيق والبحث

ما المعنى؟ المعنى أن السلفيين الأوائل، فسروا، ثم عاشوا وفق تفاسيرهم، بينما عمدت مدرسة "الرأي" في العراق إلى الحياة أولًا، مع تطويع النصوص.. لمصلحة الكافة.

اجتهدت مدرسة "الرأي" في العراق لاستيعاب كثيرٍ من المتغيرات التي طرأت بعد وفاة النبي؛ لكن السلفيين الأوائل لم يفعلوا.. وجاء السلفيون الجدد ليبنوا سياجًا حول الإسلام، فيحبسوا أنفسهم وراءه.. وينادوا "إنما نحن مؤمنون".

تاريخيًا، كانت المعارك المتواصلة بين السلفية وأهل التجديد في استيعاب الأصول. فبينما غير الإمام الشافعي فقهه بعد قدومه إلى مصر من العراق لاختلاف العرف في البلدين؛ مات أحمد بن حنبل "السلفي" متمسكًا بقوله "الحديث الضعيف أحب إلى من الرأي"![15]

ليست "السلفية" هي الحل لأزمات القرن الواحد والعشرين، تمامًا مثلما لم يكن عمرو خالد وخالد الجندي وعمر عبد الكافي وآخرون هم الحل لأزمات الشباب المصري والعربي بدءًا من منتصف التسعينات من القرن الماضي.

صحيح كان الشباب في حاجة إلى قدوة، وإلى مثل أعلى، وسط تفسخ اجتماعي شديد، وأزمات أكثر شدة.. لكن مثلما لم يكن الدعاة "الشيك" حلًا؛ فلم تكن السلفية هي الأخرى حلًا.

فرغم أن الدعاة "الشيك" كانوا قد توغلوا، وانتشروا منذ التسعينيات وسط تفاؤل البعض خيرًا لهدآية الشباب؛ ظهر فجأة بعد يناير 2011 أنه ما كان لهؤلاء الدعاة أثر، وما كان لهم مكان حقيقي بيننا رغم كثرة البهرجة، وذيوع الصيت.

بعد يناير 2011، اختفي الدعاة "الشيك" فجأة، وظهر الطغاة فجأة أيضًا. ذهب عمرو خالد، وخالد الجَندي، وملكة زرار، وسعاد صالح، وجاء حويني السلفية، ويعقوب، وشومان.. الذين قالوا، وظنوا أنهم وحدهم المؤمنون.

15- المرجع السابق. دراسات في أصول الفقه. خليفة بابكر الحسن. ص 54. ومن خصائص مدرسة الشافعية. الجنوح إلى الاستدلال العقلي. وهو ما نتج عن انفصال هذه المدرسة عن الفروع والاعتماد عليها في الفقه. بل اعتمدت على التجريد. الذي يستوجب كفاية الأدلة العقلية (لا النقلية وحدها) كي تسند القاعدة الأصولية.

ما حدث أكد النظرية، ففي الأزمات عادة ما يملأ "حزب الله" الفراغ؛ بينما تحتاج النتائج لسنوات حتى تظهر، وتتضح.. فتتكشف ألوان الشياه.

في العشرين عامًا الأخيرة؛ كان عمر عبد الكافي وياسين رشدي وسيد عبد الظاهر ثم عمرو خالد وخالد الجندي نجوم المرحلة، ولما اتهمناهم ببث "تدين سطحي"، ومحاولات تربح نجحوا فيها بتصدير الدين الشكلي.. قالوا: اطلعوا من البلد.

ما دفعنا به في الماضي ظهر في المستقبل؛ فبعد يناير، خرج السلفيون من القمقم، فلا عاد لخالد تأثير، ولا بات لحديثٍ لعمرو سطوة. وبعد يناير؛ خطف السلفية الأضواء، وتداول الناس خطب الحويني وأحاديث شومان ونوادر الشيخ حسين يعقوب على المقاهي وفي الأزقة، ومنتظر أن ترتفع أسهم الجلابيب القصيرة في سوق ملابس الشباب، بعدما هوت أسهم بدل عمرو خالد، وماركات بارفانات خالد الجندي.. وكانت موضة.

لماذا اختفى الدعاة.. وظهر الطغاة؟

الإجابة: كل أزمة وظروفها، والمثل يقول: كل برغوت علي قد دمه، فغير أن أثر الدعاة لم يكن كبيرًا كما بدا وقتها.. وخفتت نجومهم سريعًا بعدما ظهر البديل؛ فإنهم أيضًا تحصلوا مقامًا محمودًا، مع أنهم لا قدموا "فقها جديدًا"، ولا كفوا عن بيع الشباب "وَهْم العودة إلى الله" على طريقتهم.

لما حذرنا من أضغاث خالد الجندي وعمرو خالد قبل سنوات؛ اتهمونا في الدين، ولما تخوفنا من تلاعبهم بقصص التراث، وتفسيرات بعضهم الكارتونية لآيات القرآن، واحتكمنا للمنطق قالك: ضد الدين، مع أنه لا عمرو خالد ولا خالد الجندي ولا الشيخ مجدي إمام كانوا هم الدين؛ على العكس؛ لعب بعضهم بالدين!

لم يكن الدعاة الشيك فقهاء مجددين؛ لذلك طغى السلفية بعد يناير.

الأزمة أن للسلفية فقهًا حقيقيًا؛ رغم التحفظات علي نتائج اجتهادهم، بينما لم يكن الدعاة "الشيك" سوى كرات "بينج بونج"، خفيفة، بصوت وصدى عالٍ؛ لجودة الصناعة لا لثقل المادة.

الأزمة بعد يناير في فقه السلفية.. لماذا؟ لأنه إذا كان أثر عمرو خالد، وعمر عبد

الكافي قد قلب المجتمع ـ في أقل من عشر سنوات ـ بضجيج بلا طحين؛ فإن أثر فقه السلفية خلال سنوات معدودة.. كارثة، لأن السلفيين اختاروا الفقه الأشد، ولديهم في الوقت نفسه من الأدلة والبيّنات ما افتقده عمرو خالد وخالد الجندي.

حجج فقهاء السلف قوية، بينما كانت حجج الدعاة الشيك ضعيفة، ولما كان الدعاة الشيك قد استطاعوا على ضعفهم قلب المجتمع رأسًا على عقب قبل يناير؛ فإن فقهاء السلف يمكن أن يشعلوا الدولة بعد يناير أيضاً.

في فقه الإسلام عشرات الآراء، اختار السلفيون منها الأغلظ، والأشد والأكثر ميلًا للعسر. نظريات الخروج على الحاكم بالسلاح موجودة في كتب الدراسات الإسلامية، مثلما تحوي الكتب نفسها آراء أخرى بعدم جواز الخروج على الوالي درءًا للفتن.[16]

التفريق بين المسلمين وغير المسلمين في الملبس والشكل موجود هو الآخر في الكتب الشرعية، بينما الكتب نفسها تحوي آراء أخرى في المشاركة والتسامح وقبول الآخر.

في كتب الشرع أيضًا ما يوجب تغيير المنكر باليد، وفيها ـ في الوقت نفسه ـ ترك التغيير للحاكم؛ إعمالًا لقاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.[17]

أخذ السلف الأصعب مما سلف، ويبدو أنه كتب علينا التأرجح إما بين الـ"لا فقه"، وإما بين "فقه طغاة"، احتكروا الحقيقة واختاروا العسر رغم شغفنا باليسر.

قبل يناير2011؛ اختار الدعاة كاميرات التليفزيون، وأضواء البلاتوهات؛ بينما اختار السلفية بعده؛ قطع الأذن، وهدم الأضرحة، وتهديد الأقباط.

قبل يناير أزمة، وبعد يناير مصيبة ومقتٌ.. وساء سبيلًا، وخوف واضح من صدام.

ففي إبريل 2011، أي بعد أقل من 3 أشهر من انتفاضة يناير، ربط البعض بين استقبال قداسة البابا شنودة للأنبا بيشوي سكرتير المجمع المقدس.. في مقابلة وصفت

16- (فتح القدير) ج 4، ص 469، وما بعده، المحلى ج 11، ص 97، وروى عن عمر بن الخطاب، عن النبي الحديث: من نزع يده من طاعة إمامه......... إلى آخر الحديث ». و(مسائل الخروج عن الحاكم بتأويل)، في حاشية الدسوقي، ج 4 ص 298، و(كشاف القناع) ج6 ص 158، والمسألة نفسها في (التشريع الجنائي الإسلامي) للأستاذ عبد القادر عودة، ج2 ص 687.
17- مرجع سابق، وقاعدة سد الذرائع لدى الأصوليين.

بالاستعراضية بعد قطيعة طويلة بين الاثنين، وبين ما طرأ من تغيرات على شكل وطرق عمل الجماعات السلفية بعد 25 يناير.[18]

كان استقبال البابا شنودة للأنبا بيشوي منطقيًا، خصوصًا مع عودة الأخير من رحلة دعوية ورعوية بكنائس الولايات المتحدة وإيطاليا وكندا وجميع كنائس أوروبا ولبنان، إلا أن اهتمام الكنيسة الزائد بالإعلان عن استقبال البطرك للأنبا بيشوي الموصوف بـ"صقر الكنيسة"؛ كان سببًا في تكهنات، مفادها رسالة صريحة ومباشرة من الكنيسة لمشايخ السلفية.

اعتبر مراقبون استعراض الكنيسة باستقبال البابا للأنبا بيشوي، بعد ما تردد عن خلافات شديدة بين الطرفين.. ردًا من نوع ما على عدة حوادث طالت، أو هددت الأقباط في عدة محافظات؛ أشهرها حادثة الاعتداء على المدرس أيمن متري، وقطع أذنه في أسيوط ممن وصفوا بأنهم تابعون لإحدى الجماعات الأصولية في الصعيد.

استعراضات القوة التي نفذها منتسبون للجماعات السلفية بعد سقوط نظام مبارك، وتهديداتهم التي طالت الأقباط على وجه الخصوص؛ كان لا بد أن تواجه بخطوة ما من الكنيسة. ربما صدفة أن يتزامن هذا مع توقيت عاد فيه الأنبا بيشوي من رحلة كان قد بدأها قبل 4 أشهر من ذلك التوقيت للخارج، ولمّا عاد حظي باستقبال حافل من رأس الكنيسة، رغم توتر بين الاثنين على خلفية اتهامات شعبية للأنبا بيشوي بالمسئولية عن عدم التهدئة بين المصريين إثر عدة حوادث طائفية.

كانت رسالة واضحة؛ مفادها أنه إذا كان لدى الأصوليين المسلمين نيات لم تظهر بعد؛ فإن لدى الكنيسة نيات هي الأخرى تترجمها عودة الأنبا بيشوي سكرتير المجمع المقدس إلى دائرة الضوء، مع الوضع في الاعتبار ما يواجه سيرة الأنبا بيشوي من أقاويل تحمله مسئولية تأجيج مشاعر الأقباط تجاه حوادث طائفية قبل يناير.

18- إشارة إلى صعود نجم التيارات السلفية بعد أحداث يناير 2011. وما نسب إلى مشايخهم من التأليب على الأقباط. وإعادة الحديث عن عقد الذمة. مقارنة بخفوت نجمهم قبل هذا التاريخ. ويمكن الإحالة إلى أحداث حرق الكنائس القبطية في إمبابة شهر ابريل من العام نفسه. والاتهامات الموجهة لرؤوس السلفية. وكان الشيخ أبو يحيى على رأس القائمة. وما نسب للشيخ محمد حسن يعقوب من تكدير الوحدة الوطنية في خطبه.

التحفز، والاستعداد المستمر لم ينطلق نفيره فقط في أوساط الكنيسة؛ فبعد إزاحة التيار السلفي الستار عن نفسه بلا مساحيق تجميل بعد 25 يناير؛ دق النفير نفسه في أوساط جماعة الإخوان المسلمين، وفي أوساط الأحزاب والتجمعات السياسية الليبرالية، إضافة إلى الجماعات الصوفية التي نابها من أول المواجهات حرائق في عدة أضرحة لأولياء يرونهم صالحين، في حين تعتبر الجماعات السلفية أن التمسح بتلك العتبات كفر وبوار وشرك صريح بالله[19]!

ما هو مثار القلق بالتحديد من جماعات السلفية بعد يناير، رغم تواجد هذه الجماعات بالشارع المصري، وتوغلها، ونفاذها فيه إلى حد كبير منذ السبعينيات؟

غير انفضاض القبضة الأمنية عن المنتمين لفقه العنف والميالين إلى الاعتقاد في ضرورة تغيير المنكر باليد منهم؛ فإن مثار القلق هو التحول الملحوظ في الفكر السلفي، برغبتهم في العودة للمشاركة السياسية والاجتماعية على طريقتهم، وما تبع ذلك من تحول لدى بعضهم من الكف عن العنف لإقامة الدين، إلى استخدام العنف لإقامة الدولة.

مثار القلق الثاني؛ هو أن إعلان بعض رءوس مشايخ السلفية عن جواز تأسيس أحزب سياسية بعد طول معارضة، مع إطلاقهم الحريات لشبابهم بالمشاركة في الأحزاب، يناقض إصرار نفس المشايخ الدءوب طوال أكثر من 30 عامًا على عدم الاشتغال بالسياسة.. باعتبارها منافية لسيرة السلف الصالح، واعتبار هذا العزوف من صلب العقيدة وتمام الدين.[20]

على رأس قائمة التخوفات من التغيرات؛ مواقف السلفية تجاه الأقباط، أو ما يتعلق بمواقفهم تجاه القضايا الخلافية، كإقامة الحدود، والخروج على الحاكم بالسلاح، أو فرض الزّيّ الإسلامي على الرجال والنساء في الشوارع، والعودة إلى مسالك سبق ورفض مشايخهم الإقرار بها؛ كتغيير المنكر باليد، أو الدعوة لإقامة دولة الدين - كما يرونها هم.

19- إشارة إلى دعاوى بعض الجماعات السلفية لاستصدار الحكومة المصرية قانونا لهدم أضرحة الأولياء، بتأكيد حرمانيتها وتنافيها مع الشرع عام 2011، مع الإحالة للحرائق التي شبت بالفعل في كثيرًا من أضرحة الأولياء التي يبجلها الصوفية في المحافظات، في نفس التوقيت.

20- خطب الشيخ محمد حسان، ودعوات الشيخ محمد حسين يعقوب، وأبو إسحاق الحويني، في الفترة ما بين فبراير 2011 وحتى شهر يوليو من العام نفسه.

نزوح «مشايخ السلفية لتغيير الاتجاه 180 درجة، يشير من جهة أخرى إلى تغير ما، متوقع، ومنتظر في صفوف التابعين ـ 180 درجة أيضًا، وهو ما ظهر في انشقاق كثير من شباب جماعات السلف عن مشايخ جماعات السلف.

انشقاق شباب السلف عن مشايخهم، ونزوحهم للتعامل مع المجتمع المحيط وفق اجتهاداتهم؛ كان واضحًا في واقعة قطع أذن المدرس القبطي؛ لمجرد الاشتباه في سكن سيدة متعددة العلاقات في شقة يمتلكها بأسيوط.

حادثة "متري" لها دلالاتها؛ صحيح انتهي الأمر بتنازله وهو المجني عليه، لكن تنازله لا يشير إلا إلى ضغوط؛ تؤكد بالضرورة تنامي نفوذ المنتمين لجماعات السلف في الصعيد.

قبل التغيّرات؛ كان شباب السلفية مأمورين من المشايخ بخطوط عريضة؛ أولها عدم الاشتغال بالسياسة، ومنها الكف عن تغيير المنكر باليد حتى حين.

وبعد التغيّرات؛ جاء المشايخ أنفسهم، وناقضوا مبادئهم بالدعوة لتأسيس أحزاب سياسية أو السماح للشباب بالانخراط فيها، وإذا كانت آراء المشايخ محل جدل بين هؤلاء الشباب من قبل وطوال أعوام طويلة قبل يناير؛ إلا أن هذا الجدل كان مكتومًا طوال هذه الفترة بدعوى الطاعة، لكن.. مع تغيرات ليست هينة لحقت بسياسات مشايخ السلفية بعد يناير 2011؛ فإن شبابها رأوا أنهم لن يكونوا متهمين إذا انشقوا بعد صدمتهم في تغير مشايخهم، واعتقدوا أنهم لن يكونوا مخالفين إذا انحازوا لتطبيق ما كان المشايخ ينهونهم عنه في وقت ما، ورأوا أنهم لن يكونوا ملومين لو أنهم نزحوا لتطبيق ما كانوا مأمورين بالابتعاد عنه، وهو ما حدث فعلًا بعد 25 يناير؛ إذ إن بعض شباب السلف قد اختاروا مثلًا البدء في تغيير المنكر باليد؛ فقطعوا أذن قبطي نكالًا به، وهدموا الأضرحة نكالًا من الله، بينما تبرأ رءوس السلفية من هذا.. وكانت براءة حقيقية، فالذي نفذه شباب السلف؛ لم يكن أمرًا من مشايخ السلف.. وهي الأزمة الأولى.[21]

21- ظهر الخلافات بين شباب السلف وجماعاتهم على مسرح الأحداث، فور إعلان المشايخ عن جواز الانخراط في الأحزاب السياسية وتأسيسها، بعد معارضة ذلك قبل يناير 2011، في الوقت الذي أعلن فيه بالفعل عن تأسيس حزب النور، أول الأحزاب السلفية بعد يناير 2011

ازمة جماعات السلفية الثانية؛ تدور حول تصورات التيار السلفي عن نفسه بوصفه هو وحده محور الدولة الإسلامية الجديدة؛ فقد اعتبر السلفيون ـ كما معظم الجماعات الأصولية الدينية ـ أنهم الطريق الأوحد لعودة الخلافة الإسلامية على طريقة السلف الصالح، وبالصورة التي يرتضيها أتباع السلف الصالح وحدهم.. الذين هم أعضاء جماعات السلفية بالضرورة.[22]

كأي تيار سياسي ديني؛ فإن مفهوم الدولة علي طريقة أهل السلف.. هو السبب في ترقب حذر من الأقباط مثلًا، وتحفز مماثل لدى جماعة الإخوان المسلمين، إضافة إلى أن مفهوم الدولة العصرية على "طريقة السلفية" كان السبب الأساسي في معركة تخطت حدود التكفير بين السلفية والصوفية، وهو السبب نفسه في الصراع الداخلي بين أبناء البيت السلفي نفسه؛ حيث ظهرت الخلافات شديدة بين أفراده حول مسائل كانت كلها لا تبشر بالخير، اتفقوا عليها، أو استمروا على اختلافهم فيها.

منذ نشأة جماعتي سلفية الإسكندرية، وسلفية شبرا؛ المدرستين الأم في سجل الجماعات السلفية خلال سبعينيات القرن الماضي.. والخلاف بين الفصيلين لا يتعدى خلافًا في التفاصيل حول مبادئ بدأ الشارع المصري يستفيق على خطورتها نهاية التسعينيات من القرن الماضي أيضاً، فالمدرستان تتفقان مثلًا؛ على تكفير الحاكم إذا لم يحكم بما أنزل الله، بينما الفارق بينهما في طريقة الخروج على الحاكم، وتوقيت هذا الخروج.

تتفق المدرستان أيضاً على ضرورة وقف انتشار المحرمات في المجتمعات الإسلامية، وتعتبران السياحة على سبيل المثال من المحرمات والموبقات؛ لما بها من تبرج وسفور ومعاصٍ، ولما بها من "جاهلية"، لكن المدرستين مختلفتان في طريقة التعامل مع تلك الجاهلية، ومحددات استخدام العنف لمنعها.

تتفق المدرستان ـ أيضًا مرة ثالثة ـ على الاعتقاد بأن أي انحراف عن الشريعة بزيادة أو نقصان فهو كفر، مع الإشارة إلى أن ضوابط الحكم على مدى مخالفة أمر ما للإسلام؛ خاضعة لاجتهاد مشايخهم في المقام الأول، ليصبح ما اتفق عليه المشايخ معلومًا من الدين بالضرورة، لا يجوز الاجتهاد فيه، ولا العدول عنه؛ إلا بعد عدول المشايخ!

22- خطب الشيخ أبو إسحاق الحويني، والشيخ مفتاح الشهير بأبي يحيى وآخرون بعد يناير 2011.

لذلك كله، لم تكن دعوة مشايخ السلفية لتأسيس أحزابٍ سياسية بعد يناير 2011 محل جدل داخل جماعاتهم فقط؛ إنما كانت مثار بلبلة في أوساط معظم المراقبين لشئونها.

سبب اللغط؛ مجموعة من الأسئلة كانت بلا إجابات، دارت كلها حول تصورات مشايخ السلفية عن كيفية مشاركاتهم السياسية، وتصوراتهم عن محددات تلك المشاركة، إضافة إلى المبادئ التي من المفترض أنهم سوف يتداولون بها السياسة داخل أحزابهم إن تم تأسيسها بالفعل، وتخيلاتهم عن التعاطي مع التيارات السياسية الأخرى، ومدى مصداقيتهم السياسية في التعامل مع هذه التيارات.

يمكن إضافة بحرٍ من علامات الإستفهام إلى ما سبق، ويمكن إلحاق ألوف من العلامات الحمراء حول تغيّرات استراتيجية ليست مأمونة حتى الآن.. ألمت بجماعات السلفية، مع تأكيد أن السبب في اللغط المتجدد عن تلك الجماعات؛ كان المسئول عنه الأول هم أبناء تلك الجماعات أنفسهم.

فمنذ ذيوع صيت حركة أبناء السلف في سبعينيات القرن الماضي، المعلن منهم وعنهم عقيدتهم غير القابلة للتشكيك في عدم جواز التعامل مع المجتمع من منطلق ما يعرف بـ"الديمقراطية " الحديثة.

فهم يرون أن "الشورى" هي أساس السياسة في الإسلام، وأن "الديمقراطية" مخالفة لمبدأ الشورى، لذلك؛ فـ"الديمقراطية" حرام على حد وصف أحد مشايخهم على إحدى قنواتهم الفضائية.

منذ نشأتهم.. تنادي التيارات السلفية بحرمة المشاركة في المجالس النيابية، فالمجالس النيابية - على حد دعواهم - تتداول الحكم بغير شرع الله. مجلس الشعب مثلًا؛ يجعل من الدستور الذي وضعه أعضاؤه من البشر حاكمًا مقدمًا على شريعة الله عز وجل، وهو أمر الكفر.. إن لم يكن هو الكفر، وهو ما تناقض مع دعوات اعتبرت غريبة على منهج مشايخ السلف بعد يناير أجازوا فيها تأسيس الأحزاب، وأجازوا لأتباعهم الترشح للمجالس النيابية التي كانت حرامًا، وتتداول الديمقراطية التي كانت حرامًا هي الأخرى لمخالفتها الدين!

(2)

الباحث الإسلامي د. عبد الكريم بكار لا يؤمن بالتيارات السلفية. وهو يرى ـ كما هو واضح من كتاباته ـ أن الأصولية جمود، بينما الدين واسع وسريع.. وأن يسره أكثر من عسره.

في العام 2008؛ هز د. بكار الخليج العربي، وزرع رءوس المشايخ هناك في التراب، وقلب الطاولة على "السلفيين" بالذي قاله، ولم يقله أحد قبله بهذه الطريقة في هذه الدول.

قال د. بكار إنه ليس مع ما سمّاه "إسلام النخبة"، ولا مع نخبة "الإسلام" وأهل سلفه، لأنه لا يجوز اعتبار كثيرٍ من المشايخ نخبة المسلمين من الأساس. وقال د. عبد الكريم إنه لا كهنوت في الإسلام. ورهبانية ما كتبناها عليهم، كتبوها على أنفسهم.. وما راعوها حق رعايتها.

واتهم د. بكار "نخبة المسلمين" من مشايخ السلفية بتضليل عوام المسلمين، قال إن التسابق لزرع انطباعات بغياب القيم في الغرب، ومحاولة تأكيد اقتراب الحضارة الأوروبية من الانهيار.. كذبة كبيرة، تكلم بها "المشايخ".. وتاجروا بها، وأثروا على حسابها، واسترزقوا من ورائها، ثم صدقها العوام.

فقد أعطى "نخبة المسلمين" للبسطاء انطباعًا بخلو المجتمعات الغربية من القيم الصحيحة لبعدها عن الإسلام، مع أن هذا لم يكن صحيحًا، وخالت علينا، بعد أن لقننا "النخبة" كيفية الخلط بين حياة الدين والحياة المدنية!!

ويرى د. عبد الكريم بكار أنه لا معنى لمصطلح "صراع الحضارات"؛ لأن الاعتقاد في التنافس بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية وهم، فلا يوجد في القرون الخمسة الأخيرة واقعيًا ما يمكن أن نطلق عليه "حضارة إسلامية".

يرى بكار أنه بعد عصر النهضة الأوروبية لم يعد إلا "حضارة" واحدة في العالم، هي

حضارة الغرب؛ لكن هذا لا ينفي معارك ثقافية مختلفة، تتنازع فيها أكثر من "ثقافة"؛ ثقافة إسلامية وثقافة هندية وثقافة صينية.. وثقافة أوروبية أيضًا، فالغرب كان قد بدأ منذ عشرات السنين نهضة جديدة لم يحدث أن وصل إليها المسلمون، والذي علينا نحن - المسلمين - الاعتراف بهذا، تمامًا كما علينا أن نعترف بأن الصراع الدائر بين الغرب والإسلام - إن كان هناك صراع - في الثقافات والمصالح. فالثقافة هي مجموعة عقائد وأفكار وتقاليد، لكن الحضارة شيء آخر، وأبعاد أخرى.

قيادة السيارة مثلًا ثقافة، لكن صناعتها.. حضارة.

المسلمون لم يصنعوا سيارة حتى الآن، والدول الإسلامية التي حاولت؛ فشلت في منافسة الألمان والتشيك والروس.[23]

لكن الأصوليين المسلمين حرموا قيادة السيارات على النساء، وهي ثقافة، أو سلوك، وقالوا في تحريم قيادة السيارات على النساء كلامًا كثيرًا، فأصلوا وجوب منع النساء من قيادة السيارات بالشرع، وتكلم المشايخ بالفقه والدين، وذكر بعضهم أحاديث نبوية، واحتكم كثيرون إلى كتاب الله في فقه عدم جواز قيادة المرأة لسيارتها.

بعض فقهاء اليمن حرموا قيادة السيارات على الرجال والنساء حتى الستينيات من القرن الماضي، وحتى وفاة الإمام البدر؛ كان مجرد امتلاك سيارة حرامًا، فما بالك بقيادتها التي وصفوها بالبدعة.. والبدعة ضلالة.

الإمام البدر اعتبر الكهرباء حرامًا أيضًا، وفي صنعاء رفضت القبائل القتال بالبنادق لأنها لم ترد في سيرة السلف الصالح!!

منع قيادة المرأة للسيارات، أو تحريم قيادتها سلوك، والسلوك ثقافة، لكنه ليس حضارة، والصراع الدائر في أوروبا بين مسلمين يعارضون قيادة زوجاتهم السيارات، وأوروبيين يرون أن منع المرأة من القيادة "سذاجة" لا صراعًا بين حضارتين.. إنما نزاع بين ثقافتين.

23- د. محمد شحرور، الكتاب والقرآن، الإسلام والتراث، الطبعة الرابعة 1999.

المعنى؛ أنه لا حضارة إسلامية جديدة الآن، لكن الصراع الموجود هو بين موروثات المسلمين وبين تقاليد غربية بثقافات مختلفة.

يرى بعض الباحثين أن المسلمين لم ينشئوا حضارة ما، رغم وصول جيوشهم إلى أسيا الصغرى شرقًا، والمحيط الأطلنطي غربًا في عصور الإسلام الأولى؛ فإنهم وقتها، استطاعوا فرض ثقافة من نوع خاص، لكنها لم ترق لمستوى الحضارات.

فعندما احتلت جيوش المسلمين البلاد المجاورة باسم "الفتح" ونشر الدين في عصور الإمبراطورية الإسلامية؛ لم تستطع الحضارة الإسلامية أن تفرض نفسها على أبناء تلك الدول، صحيح لم يكن هناك تواصل عالمي سريع بين أنحاء العالم؛ لكن هذا لم يكن السبب؛ فالسبب الرئيسي أن حضارة أهل الجزيرة العربية كانت الأدنى بين حضارات أهل فارس والهند وبلاد أسيا الصغرى.. وجنوب أوروبا، بينما لم يتميز المسلمون.. إلا بالدين.

ربما لذلك؛ فإن معظم العلماء المسلمين الذين ظهروا في عصور الخلافات الإسلامية الأولى كانوا من أبناء البلاد المفتوحة؛ فلا كانوا عربًا، ولا كانوا من أبناء حضارة الجزيرة العربية، لكن العرب نسبوهم إلى أنفسهم، وأصروا على هذا النسب.

وكانت النتيجة ـ عراكًا ثقافيًا مكتومًا بين العرب والفرس على: الرازي والشهرستاني والدهلوي والبخاري وابن ماجه والترمذي، وحتى على سيبويه (أبو النحو).. فالرجل هو الآخر لم يكن عربيًا؛ رغم أن العرب لم يكفوا عن النزاع في نسبته إليهم هو الآخر!![24]

كان التعصب سمةً من سمات الثقافة الإسلامية إلى حد ما، واستمر، وانتقل وركب على ظهر التاريخ حتى وصل إلينا بتفاصيل مختلفة.. ومبدأ واحد.. ومنطق واحد، منطق النصرة للعشيرة والقبيلة.. مهما كانت الأسباب، وبصرف النظر عن الحقوق.

لما ظهر الإسلام؛ انتقلت أدوات الصراعات التاريخية، والرغبات القديمة في السيطرة من الصراع الثقافي إلى مائدة الصراع الديني؛ ليتجلى النزاع بين العرب وغير

24- (من تاريخ الإلحاد في الإسلام). الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي. وراجع (رسائل فلسفية) لأبي محمد بكر بن زكريا الرازي. ج 5 ص295. و(المنتظم في التاريخ). لابن القيم الجوزي. ج 13. ص 261. وراجع أيضًا (فصول من أعلام النبوة). لباول كراوس. 1936. ص 362.

العرب، وبين العرب وبعضهم في صور دينية؛ أدت إلى ظهور طبقات "الدوجما"، وهم الذين احتكروا الحقيقة المطلقة - على حد توصيف علم الاجتماع الديني.

"الدوجماتيكي" هو الشخص الذي يعتقد في امتلاكه الحقيقة الوحيدة الصحيحة، فلا يقبل نقدها.. ولا تراوده الرغبة في نقضها.

ظهر "الدوجماتيك" في فرنسا، وإنجلترا وألمانيا بعد انفصال الدولة عن الكنيسة بعد صراع شديد، لكن المجتمع الفرنسي والإنجليزي والألماني كانت له الشجاعة على الاشتغال والتحليل والنقاش والتفهم.. ثم وضع النظريات، فلا حجر على وجهات النظر، ولا أتلف بالقصد آراء المختلفين. لذلك؛ تجاوز الغرب محنًا فكرية كثيرة، لم يستطع أن يتجاوزها المسلمون.

في العام 1871؛ نشر فيلسوف أوروبي كتابه "الثقافة البدائية" بعدما كانت الكنيسة قد سيطرت على كل شيء.. فبدا كأنه لطم المجتمع (المتزمت) على خده، وكشف له أن هناك أفكارًا غير مسيحية، لأقوام كانت النظرة إليهم دونية قبل ذلك، وبيّن أن لهؤلاء الأقوام فكرًا جديرًا بالاحترام.

وفي العام 1875؛ نشر فريزر كتابه "الغصن الذهبي"، فأدهش رجال الدين في أوروبا قبل سنوات طويلة من استيعابه. السبب؛ أن فريزر قال إن أفكار المسيحية ليست هي الأفكار الوحيدة؛ فهناك من لهم أفكار مختلفة التفاصيل، لكنهم مسيحيون أيضًا.[25]

وقال إن المسيحية نفسها ليست هي الديانة الوحيدة، وإن وجود الطوائف المسيحية؛ يعنى أن هناك أكثر من وجه لعبادة الله، وأكثر من فكرة للإيمان به. وهو ما جعل البابا يوحنا الثالث والعشرين يدعو إلى عقد مؤتمر الفاتيكان الثاني لمناقشة الفكرة التي تقول إن الله قد طرح نفسه في أشكال مختلفة من الإيمان، وكانت - إلى حد ما - بداية ولو لقليل من الإصلاح الديني؛ فقد اكتشف المستنيرون من رجال الكهنوت في المؤتمر أن هناك طرقًا أخرى للدين، ووجوهًا ثانية للتفكير فيه.

وفي الهند في توقيت مقارب؛ انعقد المؤتمر الأول لمعبد "التفاهم" بمدينة كلكتا،

25- الدكتور مراد وهبة. مرجع سابق.

دُعي إليه ممثلون عن أديان الأرض الاثني عشر، ودار النقاش حول ما إذا كان رجال الدين يملكون "الحقيقة المطلقة" أم لا يملكونها، وخرج المؤتمر بتوصيات تؤكد اقتناع المشاركين بأن هناك أكثر من وجه للحقيقة.. ففي الأديان المختلفة حقائق، وبين أتباع الدين الواحد أكثر من حقيقة أيضًا.

وإذا كان رجال الدين الواحد يملكون شكلًا من أشكال الحقائق؛ فإن هذا ليس مبررًا لتعاليهم على رعاياهم المؤمنين، ولا هو مبرر لإعلاء دينٍ على آخر؛ لأنه لو حدد رجال الدين الحقائق، وأغلقوا على أنفسهم أبواب الغرف، ثم لا ناقشوا، ولا فتحوا الباب لأفكار جديدة، فالمعنى أنهم لا يحذفون الحقائق في الأديان الأخرى فقط.. إنما يفتحون الباب لاحتكار العقيدة في دينهم، وبين رعاياهم فقط، بينما ينظرون إلى أصحاب الديانات الأخرى على أنهم.. ليسوا متدينين، ولا يعرفون الله لمجرد أنهم مخالفون في الفكر!

في الصراع التاريخي، رغم أن الغلبة كانت دائمًا لأصحاب الحقائق المطلقة أو "الدوجماتيك"؛ فإن أفكارًا أخرى كثيرة كانت جديرة بالاهتمام.

ففي القرن الخامس قبل الميلاد مثلًا؛ أنكر "انكساجوراس" الطبيعة الإلهية للأجرام السماوية، الفكرة التي كانت سائدة بين كهنة اليونان في ذلك الوقت، قال "انكساجوراس" إن القمر أرض، به جبال وطرق ووديان، وإن الشمس والكواكب أجرام ملتهبة.

كلام "انكساجوراس" كان صحيحًا، بُرهن عليه فيما بعد، لكنه - وقتها - لم يفتح الباب لعقول ملاك الحقيقة المطلقة؛ فاتهموه بالإلحاد، فقد كان الثابت دينيًا أن كل ما هو سماوي؛ فإنه إلهي بالضرورة، وإن الخوض في مثل هذه المعتقدات بأية طريقة مخالفة للأفكار الموجودة؛ إجرام في حق الدولة، وإلحاد في حق الله. لذلك حاكموا "انكساجوراس"، وحكموا عليه بالإعدام لأنه فكر؛ فاضطر الرجل للهرب خارج أثينا.

ولما ظهر "براتوجوراس" عام 450 في أثينا؛ شن حربًا رهيبة على "الدوجماتيك" بكتابه "الحقيقة"، لكن معركته مع رجال الكهنوت لم تكن متكافئة كالعادة.

"براتوجوراس" كان ككثير من الفلاسفة الذين ملّوا مبدأ الحقيقة الواحدة في ذلك الوقت، وفشلوا في الانسجام مع التسليم باحتكار رجال اللاهوت للحقائق على أساس

تفسيراتهم هم للنصوص الدينية، لا حسب المقصود من هذه النصوص.

في كتابه "الحقيقة" قال "براتوجوراس" إن الإنسان هو مقياس الواقع، والحقيقة نسبية تتحدد حسب اقتناعات الإنسان.. ومبادئه. ووفق هذا الافتراض؛ رتب "براتوجوراس" عدة نتائج اعترض عليها رجال اللاهوت، واتهموه هو الآخر بالإلحاد، إلى أن جاء "سبكتوس امبريكوس" في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي.

أطلق اليونان على سبكتوس لقب "التجريبي"، أو الفيلسوف الذي يُخضِع كل فكرة للنقد والتجريب.[26]

وأقام سبكتوس مدرسته في "الشك" كطريقة محايدة في اختبار "صحة الأفكار"، فقد اعتبر أن مجرد "الشك" طريق لقطع الطريق على "الدوجماتيكية"، فالشكاك عكس الدوجماتيكي، والدوجماتيكي مرتبة أقل فكريًا من الشكاك، لكن الأمر انتهى بسبكتوس كما انتهى بالآخرين.. لصالح "الدوجماتيك".. ورجال اللاهوت!

احتكار الحقيقة الدينية؛ كان مشكلة "ابن رشد" الأثيرة بقرطبة في القرن الثاني عشر الميلادي، فقد اتهموه هو الآخر بالإلحاد لأنه حاول إقامة الدليل العقلي على أن الأصل ألا يكون هناك تعارض بين الفكرة الدينية.. والمنطق.

فقال إن المنطق عقل، وإن عمل العقل يؤدي إلى شيء من اثنين؛ إما تأكيد ما جاء به الشرع، أو اكتشاف ما لم يأتِ به.

وقال ابن رشد إنه إذا أكد العقل ما أتى به الشرع، يسود الشرع؛ لأنه ليس متعارضًا مع العقل. أما إذا لم يوافق العقل على ما أتى به الشرع؛ فالخطأ إما في تأويل النص الشرعي، أو في طريقة التفكير العقلي.

وقال ابن رشد.. إن التوقف أمام النص الشرعي، ورفض إعمال العقل فيه كارثة؛ لأن عمل العقل لا بد أن يظهر لنا حقائق كانت غائبة، وربما كان كشف هذه الحقائق الغائبة

26- ظهر اسبكتوس التجريبي. أو «اسبكتوس امبريكوس» زعيمًا لطائفة الشكاك في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد. وهو الذي قال بالمذهب «الحجي». ومعناه أن «لكل حجة حجة مضادة لها». وقامت فلسفته على «التجريب». ورفض العلوم الإشراقية.

هو مقصود النص الديني في الأساس، بينما نظرة رجال الدين الضيقة هي التي كانت السبب في غياب تلك الحقائق عنا.

لذلك؛ دعا ابن رشد الفلاسفة ورجال الدين إلى إعادة تأويل النص الديني، وعرّف التأويل بأنه "إخراج مدلول اللفظ من دلالته الحقيقية إلى دلالته المجازية".[27]

قال إن للفظ دلالتين.. حقيقية ومجازية، الدلالة المجازية أوسع وأشمل من الدلالة الحقيقية التي هي دلالة مباشرة.

وقال: "في الدلالة المجازية يخرج اللفظ من مدلول الحالة المعينة إلى المدلول الشامل، فنستطيع استنباط الحكم العام من سبب الحكم في الحالات الخاصة، وهو ما يفتح الطريق أمام تغيير الأحكام بتغير الأزمان، وتغير الظروف".

لذلك؛ رفض "ابن رشد" تكفير المفكر، أو الذين يعيدون تأويل النصوص الدينية، وعارض الإمام الغزالي عندما كفر الفارابي وابن سينا بعد محاولتهما إعادة تأويل الحقائق الشرعية التي كانت معلومة من الدين بالضرورة في زمانهما؛ ما أثار رجال الدين عليهما.

وفي القرن السابع عشر، توصل "جاليليو" إلى أن نظرية "كوبرنيكوس" في ثبات الشمس، ودوران الكواكب حولها صحيحة. كان فكرًا جديدًا.. وجديرًا بالاهتمام، لكن "الدوجماتيك" الذين كانوا يحتكرون فكرة دوران جميع الأجرام السماوية، بما فيها الشمس على أساس تفسيرات الكتاب المقدس؛ اتهموا "جاليليو" بالإلحاد هو الآخر.. وحولوه إلى محاكم التفتيش بوصفه واحدًا من الهراطقة، والمجدفين في الدين.

"الدوجما" لفظ يوناني، معناها الأول "حقيقة" أو "مبدأ"، قبل أن تحولها المجامع المسيحية المقدسة إلى لفظ مرادف "للحقيقة الوحيدة" أو "المبدأ الصحيح"، الذي يخرج من يخالفه من المسيحية، تمامًا كما يوصف في الإسلام منكر "المعلوم من الدين بالضرورة" بالكفر.

27- ابن رشد. تهافت الفلاسفة. جزء 2 في مسالة التأويل النصي.

ومثلما كانت "الدوجماتيكية" كارثة؛ كانت الأصولية كذلك هي الأخرى.

"الأصولية" اشتقوها من "الأصول"، وهو تعبير إنجيلي مأخوذ من مصطلح "الأساس الديني الصحيح"، لذلك؛ عُرف الأصوليون أنهم الذين على استعداد لخوض آية معارك للحفاظ على "الأصول الدينية" كما يرونها، وكما كانت عليها أديانهم في عصور الرسالات الأولى.

بمعنى آخر؛ هم الذين على استعداد للقتال المستمر، وسفك الدماء، للحفاظ على ما يعتقدون هم أنه أساس أو أصل ديني؛ لكن هذا لا يعني بالضرورة من جهة أخرى أن الذي يعتبرونه "أصل" هو في الحقيقة كذلك.[28]

الفكرة لدى الأصوليين أن حقائق الإيمان، وافتراضات المفسرين الذين ظهروا قبلهم لا يمكن أن تخضع للنقد أو النقاش، حتى لو تطورت الظروف والمجتمعات، و حتى لو ظهر ما يستلزم التغيير.

فرفض الأصوليون المسيحيون مثلًا أفكار مدارس "نقد الإنجيل" التي ظهرت بعد ملاحظة الاختلافات في تواريخ وأسماء المدن بالترجمات المختلفة للكتاب المقدس، ورفض الأصوليون مناقشة وجهات نظر نقاد الإنجيل في ضرورة اعتبار الكتاب المقدس تسجيلًا لتطور تاريخي ديني، فقد رأى الأصوليون أن الفكرة التي يحاول نقاد الإنجيل بحثها تخالف ما استقر عليه المسيحيون الأوائل من مسلمات.

رفض الأصوليون أي تأويلات جديدة للنص الديني، هو الذي جعل الصراع مستمرًا بضراوة في أوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الأصوليين والعقلانيين، فالعقلانيون رفضوا مسلمات رجال الدين، واعتبروا أن إعادة فحصها على أساس رؤية جديدة للكتاب المقدس لا هي إثم ولا هو خروج عن الدين.[29]

28- أول من سك مصطلح «الأصولية»، وعكسه على متدينين تطرفوا في الحفاظ على ما يتصورون انه أصل العقيدة، كان رئيس تحرير مجلة (نيويورك وتشمان)، في افتتاحية عدد يوليو 1920. وعرف الأصوليين بأنهم «الذين يناضلون بإخلاص من أجل الأصول». وأغلب الظن أن التي مهدت لسك هذا المصطلح سلسلة كتيبات بين عام 1909 و1915. عنوانها كان الأصول، ووزع منها ثلاثة ملايين نسخة، أرسلت إلى القساوسة والمبشرين اللاهوتيين ومدارس الأحد وجمعيات الشبان المسيحيين والشابات المسيحيات.

29- في القرن السابع عشر؛ ظهر جاليليو، وقال إن الشمس ثابتة، وإن الكواكب هي التي تدور حولها، فأغضب رجال الدين؛ إذ إن من الحقيقة الدينية ذلك الوقت أن الشمس هي التي تدور، وهو ما أدى إلى محاكمة جاليليو أمام محاكم التفتيش.

الصراع بين أفكار "جاليليو" وأفكار الأصوليين كان صراعًا ثقافيًا، لا صراع حضارات، كان صراعًا بين "الدوجاتيكية" و"الاجتهاد العقلي"، وبين "التفكير المنطقي"، قابله الدوجماتيك بالتكفير، مع أن أفكار "جاليليو" ظهر اتساقها الكامل مع الحقائق العلمية فيما بعد.

فقد تمسك الأصوليون بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس، وما التف حوله من تراث صنعه رجال قبلهم، ورفضوا إعمال العقل، بينما رفض "العقلانيون" التمسك بحرفية تفسيرات الكتاب المقدس القديمة؛ لأنهم رأوا أن إعادة تفسير نصوصه وفقًا للمنطق واجبة.

وفيما ظل الصراع مستعرًا في أوروبا؛ ظهرت حركة أصلاح ديني مؤثرة قادها "لوثر كينج" لإعادة تقييم الأصول الدينية، أو بالتحديد إعادة تأويل النص المقدس بعد تدمير ما سمّاه كينج بـ"الأسوار الثلاثة" التي تقف في الطريق للإصلاح الديني.

"سلطة رجال الدين" كانت السور الأول الذي رأى "كينج" أن عليه تدميره في عقول القاعدة العريضة من بسطاء المجتمع، لم يقصد "كينج" احتقار الكهنة، أو ازدراءهم، إنما اعتقد أن خضوع أفكار رجال الدين للفحص لا يؤثر على هيبتهم كما كان يرى المجتمع ذلك الوقت، فمساواة رجال الدين بغيرهم؛ تعني أن من حق الذين ليسوا رجال دين أن يفهموا هم الآخرون، فلا يوجد نص مقدس يؤكد حق الكهنة وحدهم في فهم الحقائق الدينية وتأويلها.[30]

وشن "لوثر" هجومًا شديدًا على عصمة الكهنة والبابا؛ فقال إن رجال الكهنوت كثيرًا ما يلعبون بالعامة، بافتراض أنهم وحدهم أصحاب سلطان تأويل النص، فيتلاعبون أحيانًا بالألفاظ والمفردات، وأحيانًا بالحقائق.. ويقتنع العامة، ثم فجأة يظهر أن الكهنة

وفي القرن السابع عشر أيضًا؛ ظهر كتاب «رسالة في التسامح» من دون أن يعرف في البداية مؤلفه. وكان الكاتب هو الفيلسوف الإنجليزي جون لوك. حيث هاجم «الأصوليين» وفكر الكنيسة. وسماهم «أصحاب الحمية والمتعصبين». وكانت أحداث جسام في هذا العصر: إذ إن الوقوف في وجه «الكهنة» أمر لم يكن واردًا في أوروبا ذلك الوقت. وأصدر جاليليو وقتها كتابه الأزمة (رسول إلى النجوم).

30- قال بهذا الرأي في أوروبا لوثر كينج في بدايات ظهوره في نهاية عصور الظلام الأوروبية (عصور سيطرة الكنيسة). ورأى كينج أن الإصلاح الديني لن يتأتى إلا من خلال هدم ثلاثة أسوار. السور الأول هو الاعتقاد في عصمة البابا (رجال الدين من الخطأ). والسور الثاني هو المساواة بين رجال الدين. ومن هم ليسوا رجال دين في تفهم النص الديني. بينما كان السور الثالث أنه من حق كل إنسان أن يفهم ما أراد الله أن يقوله في النصوص التي أرسلها إلى الإنسانية (رسائل مارتن لوثر كينج بتصرف).

ليسوا على حق، وأن طريقة كثيرين منهم في الاستدلال لم تكن صحيحة.[31]

ولما ردّ الكهنة بعصمة البابا من الخطيئة، وقالوا إنهم لا يمكن أن يخطئوا لأن البابا يراقبهم، والبابا لا يخطئ؛ رد "لوثر كينج" بحربٍ أخرى شديدة على مبدأ العصمة الدينية، مشيرًا إلى أن ميلاد البابا، ووظيفته، لاحقان على إنزال الكتاب المقدس، فالإنجيل أقدم من البابا، وإن تشريعات الله صدرت قبل ميلاد البابا، فإذا كان البابا معصومًا من الخطأ، بشكل يمكنه من إدارة حياة المؤمنين من دون تشريع؛ فما الحاجة إذا للكتاب المقدس؟ وما نفع الإنجيل إذا كان البابا يعلم ما يحاول الإنجيل شرحه للمؤمنين وغير المؤمنين؟

المعنى عند لوثر؛ أنه إذا أتى الكاهن بفعل خطأ، فالعيب ليس في الدين، إنما الخطأ بشرى، وهو ما يعني بصورة أخرى أن تعاليم الكهنة ليست هي تعاليم الدين في جميع الظروف، وإذا أتى البابا بتعاليم مخالفة لتعاليم الإنجيل؛ فإن من حقنا الوقوف إلى جانب روح الإنجيل، وليس في صف تعاليم البابا!

وفق هذا؛ فإن احتكار البابا ورجال الدين تأويل الإنجيل لا يجب أن يكون مسلمة دينية؛ لأنه من حق جميع المؤمنين تأويل الآيات المقدسة، وفق ظروف معينة وعلوم معروفة، ومن ثم تصبح تفسيراتهم اجتهادًا قابلًا للرد، كما أن تفسيرات البابا والكهنة للنصوص المقدسة هي أيضًا اجتهادات قابلة للرد، وهي القاعدة المشابهة لما نادى به بعض المسلمين المستنيرين في القرن الثامن عشر الميلادي على أساس أن "أقوال العلماء لا يحتج بها، إنما يحتج لها".

أضرت "الدوجماتيكية" بالعقائد، ورغم الحركات العقلانية الكثيرة التي دخلت في صراع شديد مع الدوجماتيك؛ فإن "احتكار الحقيقة" ظل سمة أساسية من سمات المجتمعات الأصولية.

احتكار الحقيقة هو الذي أدى بالمشايخ المسلمين إلى إغلاق باب الاجتهاد في الإسلام في القرن الرابع الهجري.. بلا سبب ولا منطق، ولمّا فعلوا؛ دخل المسلمون عصر

31- مارتن لوثر كينج. الرسائل. المرجع السابق.

"التقليد"، فتم الاكتفاء بالأدلة الشرعية، والأحكام الدينية التي شرعها الأولون، ربما لذلك زاد التعصب وتعالت نبرة "احتكار الحقيقة"، في الوقت الذي كان فيه معظم الحضارات لا تؤمن بحقيقة مطلقة، أو بنظرية واحدة.[32]

احتكار الحقيقة، أخطر من احتكار الحديد، فثقة المحتكر - عادة - مثل ثقة الجاهل، لذلك؛ كان الاعتقاد في حقيقة واحدة سبب الأزمة.

تحول الدين إلى تراث، ثم أصبح التراث حكايات شعبية، وانتهي الأمر بأن قصصًا كارتونية كثيرة أصبحت معلومًا من الدين بالضرورة.. والمعلوم من الدين بالضرورة لا يخضع للنقد، ولا النقض.

في مؤلفه الموسوعي لاحظ "الجبرتي" أن المصريين إذا حلت بهم كارثة اعتكفوا في المساجد لقراءة صحيح البخاري.. داعين الله أن يرفع عنهم البلاء!!

وعندما دخل جيش "نابليون" الجامع الأزهر، خاف المصريون على كتب الحديث أكثر من خوفهم على المصاحف.[33]

وأظهرت أوراق تحقيقات قضية "ريا وسكينة" عام 1920؛ أن المتهمين يحلفون بـ"البخاري" لنفي التهم عنهم، أو لإثبات أقوالهم أمام النيابة، وفي تحقيقات قضية "أدهم الشرقاوي": أيضًا، لم يرد فيها أي قسم بالله، أو بكتاب الله، فقد كان المتهمون يقسمون بالبخاري أيضًا![34]

هذه الملاحظات مهمة.

ففي فترة تاريخية ما؛ كان التراث قد حل محل العقيدة، وقتها تحول كتاب "صحيح البخاري" إلى "مقدس ديني"، للدرجة التي استعان به المصريون في "أيماناتهم" بدلًا من القسم بالله.

32- الأستاذ الدكتور صوفي أبو طالب. تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية. ص 23 (الدخول إلى دور التقليد). يبدأ من إغلاق باب الاجتهاد أواخر القرن الرابع الهجري، وفي عصر التقليد. خيم الجمود. والتأخر على العالم الإسلامي. وتفشى التعصب وجمدت الملكات الفقهية (المرجع نفسه).

33- كتاب (وصف مصر). طبعة دار المعارف. الحياة الدينية للمصريين.

34- تحقيقات قضية «ريا وسكينة». كتاب (رجال ريا وسكينة). صلاح عيسى.

تاريخيًا؛ امتدت استعانة المصريين على الشدائد بالبخاري مدة طويلة، مثلت فيها كتب الحديث عرضًا عن كتاب الله في الأزمات الاجتماعية وفي.. "الملمات"!!

كانت إشارة إلى التحول في شكل العقيدة، وهي أيضًا بقعة ضوء مسلطة على الذي فعله التراث بالدين بعد أكثر من ألف عام على نزول الرسالة.

علاقة المسلمين غير المفهومة بكتاب البخاري مثلًا، هي التي دعت المستشرق الفرنسي "هنري كوربان" لتأكيد أن طريقة تعاطي المسلمين الفريدة مع السنة، لم يحولها إلى مرتبة أعلى من مرتبة القرآن فقط؛ إنما ساهم هذا المنهج في رواج وسطوع نجم الفاطميين الشيعة في مصر، وفتح الباب لسرعة انتشار معتقداتهم في القاهرة القديمة، مع أنها كانت بعيدة إلى حد كبير عن أسس العقيدة الإسلامية الصحيحة.

فقد قبل المصريون السنة وأفكار الفاطميين الشيعة، رغم التناقض البيّن بين عقائد السنّة وثوابت الشيعة، كان اعتقاد المصري في الشيء وضده، والتسليم الكامل بالاثنين مثار دهشة الكثير من الباحثين.. ربما للآن.

رأى "كوربان" أيضًا أن الإسلام مال لدى المصريين إلى صالح الحديث النبوي، صحيحه أو المشكوك في صحته على حد سواء، و بدرجة التصديق نفسها، فلم تعد العبرة بصحة الحديث، بقدر ما أصبحت العبرة في "التبرك" بكل ما قيل إنه منسوب للنبي.

عقلية المصري البسيطة التي أغلقت على نفسها الحجرة وغرقت في "السنة" و"الأثر"، هي التي ساعدت فرق الشيعة المختلفة على النجاح في تحويل عوام المسلمين إلى غلاة في "مظاهر الدين" وأساتذة في "الطقوس".. وفي الإيمان بـ"الخرافات" أيضًا.

تصورات العامة، ومنهجهم في فهم العقيدة، هو الذي أخذهم بعيدًا عن "لب الدين". لذلك؛ لم يستطع عوام المذهب السني ـ مثلًا ـ اكتشاف "الخلل" في تصورات المذهب الشيعي عن الإسلام، ولا اقتنع المشايخ بضرورة رفض ما استطاع الشيعة إدخاله على الإسلام، وقالوا إنه من عند الله.. وما هو من عند الله.

لـ"كارل يونج" عالم النفس الشهير نظرية تؤكد أن "الارتجاج الديني" عادة ما يصاحبه احتفال بالطقوس أكثر من الاهتمام بمضامين الأفكار.

"يونج" يرى أن للمذاهب والصراعات السياسية دورًا مهمًا في إعادة تشكيل الأفكار الدينية لدى المجتمعات، فالسياسة عادة ما تستخدم تيارات الدين ومذاهبه.. إما أداة للهيمنة، أو طريقًا للسيطرة.

ربما لذلك كانت سيرة الرسول (ص) أكثر عرضة للتزييف والاستغلال والوضع حتى بين المسلمين وبعضهم في الأزمات التاريخية.

فوسط صراعات سياسية وعرقية، نُسبت للنبي (ص) أحاديث لم يقلها، ووقائع لم تحدث، وأضيفت إلى سيرته هو (ص) ما لا يعقل، لصالح مذاهب سياسية، وتيارات ترغب في "الحكومة" استخدمتها للتفوق على المنافسين.[35]

بعض أفعال النبي (ص) فسرت بعد سنوات من وفاته.. حسب الأهواء بعيدًا عن أسبابها أحيانًا، وبصرف النظر عن عللها، وظروفها أحيانًا أخرى.

كان خللًا استمر وتوغل، حتى وصل الأمر بعد أقل من 200 عام من وفاة الرسول (ص) إلى ظهور تيارات فقهية ترى أن "سنة النبي (ص) تنسخ القرآن، وأن أفعاله (ص) تلغي نصوصًا إلهية.. بحكم "الدليل الوجوبي"، لا من منطق الاجتهاد.. وادعت هذه التيارات أنها تحاول إحياء سيرة السلف، وكانوا "سلفيين".

قسمت كتب الفقه الإسلامي علاقة السنة النبوية، بالقرآن من جهة الأحكام إلى ثلاثة أنواع: الأول "السنة الموافقة للقرآن".. وفيه يكون فعل النبي (ص) أو قوله مؤكدًا لما في كتاب الله كقوله (ص): لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب عن نفسه". والحديث موافق لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ" - (سورة النساء - 29). وقوله (ص): "اتقوا الله في الضعيفين المرأة والعبد".

النوع الثاني: السنة الشارحة لما في كتاب الله، وهي أقوال النبي (ص) المبينة لمعاني الآيات القرآنية الكريمة، كالأحاديث الشارحة للأموال التي تجب فيها الزكاة، والأموال التي لا تجب فيها، والمقدار الواجب في الزكاة، والأحاديث النبوية التي بينت مواقيت الصلاة وعدد ركعاتها.

35- تاريخ الخلفاء للسيوطي، ومروج الذهب للمسعودي، وراجع الخلافة الإسلامية، للمستشار محمد سعيد العشماوي.

من السنة الشارحة أيضًا: ما يوضح للمسلمين ما لم يوضحه القرآن الكريم، كقوله تعالى "حَتَّى يتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ" ـ (سورة البقرة ـ 187).[36]

فقد حدث أن أخذ بعض الصحابة عقالين، أبيض وأسود، ووضعهما تحت وسادته، وأكل وشرب في غرفته حتى لم يستطع تمييز العقال الأسود من العقال الأبيض، وحكى للنبي (ص) الذي ضحك مشيرًا إلى أن المقصود بالآية الليل والفجر.

الملاحظ فيما سبق من أنواع السنن توافقها مع الأصل القرآني، أو ما يمكن أن نطلق عليه اجتهادًا نبويًا على أساس النص في عصور الإسلام الأولى، لكن الإشكال ظهر فيما بعد في نوعين من السنة، وكانا دليلًا على ما أضيف على مفهوم سنة النبي (ص) من تصورات لم تكن صحيحة، وتغيرات لم تكن منطقية، وكانت نتائجها محل جدل.

فقد اعتبر الفقهاء نوعين جديدين من السنة، ترتبت عليهما أكثر من ملاحظة.. أولاها أنهما كانتا تفصيلتين لمبدأ واحد، والملاحظة الثانية أن صياغة إحداهما كانت فتحًا لباب إطلاق سلطة النبي (ص) في التشريع، ليس بعيدًا عن النص القرآني فقط؛ إنما مخالف له أحيانًا أخرى.

فكتب الفقهاء عن السنة "المخصصة" لأحكام القرآن، وبها منعوا ميراث قاتل أبيه، اعتمادًا على حديث النبي (ص): "لا ميراث لقاتل"، وقالوا إن الحديث قد خصص حكمًا عامًا للآية الكريمة: "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ" ـ (النساء ـ 11) ـ بحجب ميراث قاتل أبيه عنه.[37]

ثم كتب الفقهاء عن السنة "الناسخة لأحكام القرآن"، فقالوا إن الحديث النبوي "لا وصية لوارث" يلغي حكم الآية الكريمة: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ" ـ (سورة البقرة ـ 180)، لذلك؛ استقر رأي كثير من الفقهاء

36- البرديسي. أنواع السنة في أصول الفقه. والدكتور على الخفيف. مكانة السنة. وأنواع السنن. عبد الحميد متولي «الشريعة كمصدر» ص 102 وما بعدها.

37- (الوجيز في الميراث) للدكتور يوسف قاسم. وراجع قواعد أصول الحديث للدكتور أحمد عمر هاشم. والباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير. تحقيق الشيخ شاكر صبيح.

على أنه لا تنفذ وصية المتوفى لأصحاب الأنصبة الشرعية في الميراث، كالأب والأم والأبناء.[38]

لم يتعامل الفقه مع الحديث النبوي باعتبار أقواله (ص) اجتهادية، والسبب أن الموروث التراثي عن صورة النبي، وحدود سلطته التي استمرت تتغير من زمن إلى آخر؛ كانت قد أدت بأقواله بصورة أو بأخرى إلى أن تتفوق أحيانًا على الأصل القرآني.

وتغيرت النظرة السلفية ـ بمرور الزمن ـ لشخص النبي، وحدود رسالته (ص)، وهي النظرة نفسها التي جعلت من كتاب "صحيح البخاري" في نظر العامة من المسلمين، مقدمًا على كتاب الله في مراحل تاريخية معينة.

لم يكن الإشكال في ظهور ما تكلمت عنه بعض جماعات السلف.. ما سُمي بـ"السنة الناسخة"، التي بمقتضاها يمكن لحكم نبوي أن يوقف حكمًا قرآنيًا لظروف تقتضي هذا، فقد فعل عمر بن الخطاب الأمر نفسه، فاجتهد وألغى سهم المؤلفة قلوبهم الثابت بالنص القرآني، بعد اشتداد عود الدولة الإسلامية وظهور قوتها بعد وفاة النبي.

إنما كان الإشكال في "صياغة" مبدأ "إلغاء أحكام القرآن بأحكام النبي"، فهو (ص) لم يلغِ، إنما اجتهد وفق مبدأ قرآني، أو على أساس روح التشريع الإلهي، وأخذ بأسباب التشريع، ومرونته، تمامًا كما اجتهد عمر بن الخطاب بتوقيف أحكام بعض آيات القرآن؛ لتغير الظروف، ومثلما اجتهد علي بن أبي طالب (رض) وفق مفهومه عن مرونة التشريع القرآني، فجعل حد شارب الخمر الجلد، قياسًا على حد القذف، رغم أنه لا حد لشارب الخمر في القرآن الكريم.

على كلٍ، اعتماد بعض فقهاء السلف ما سمَّوه بـ"السنة الناسخة"، واعتبارها "لاغية" لأحكام القرآن، كان سببًا أساسيًا في تصور كثير من التيارات السلفية فيما بعد؛ أن للنبي (ص) حقًا في التشريع يوازي الحق الإلهي فيه، مع أن الحق الإلهي أصل، والسنة النبوية مجرد فرع، ترتب على أصل.

لقد كان للنبي (ص) حق الاجتهاد في تفسير النص الديني، وبيان علة أحكام آياته

38- المرجع السابق. وما بعده.

في عصور الإسلام الأولى، تمامًا كما استخدم الصحابة هذا الحق فتعاملوا مع روح النص لا مع حرفه، لكن تراثنا الديني غير صورة النبي (ص) التي أرادها الله، ثم أضاف حقوقًا إليه (ص) بدت أزمة في تاريخ الفكر الديني فيما بعد، إضافة إلى ما أشاعته تلك الصورة الجديدة للنبي (ص) من سوء فهم، وأدت إلى اضطراب في استنباط الأحكام الشرعية في عصور متقدمة.[39]

"موروث" المسلمين "التراثي" في التعاطي مع السنة، هو الذي ساعد دخول أسانيد أحاديث ضعيفة ومشكوك فيها إلى العقيدة، والتصاقها بصلب الدين، في الوقت الذي لم يعد لدى كثير من مشايخ المسلمين القدرة والرغبة في إخضاع "ما يشاع" عنه أنه "حديث نبوي" للنقاش.

لذلك تحولت أي "إشاعة" تراثية عن الرسول وصحابته إلى "مسلمات"، وأصبحت آية إشارة "قديمة" عن سلوكه وصحابته من "المتواتر".

بعد أكثر من ألف وأربعمئة عام من الهجرة؛ بدت المشكلة فيما قيل إنه "متواتر" من السنن، في الوقت الذي لم يكن قد ثبت هذا "التواتر" فعلًا.

كانت أزمتان، الأولى فيما علق بهذه "المسلمات" من "شوائب"، والثانية، في أن هذه المسلمات لم تعد محلًا لإعادة التأويل أو الفحص، ما يعني أنه لم يعد هناك سبيل لغربلتها في غياب "جرأة" إعادة فتح ملفات عصور الإسلام الأولى.. من جديد.

لذلك، انتشرت أحاديث عما قيل إنها "تصرفات" و "أقوال" نبوية، كانت سببًا في تعزيز الفجوة بين المسلمين وغير المسلمين، إضافة إلى مساهمة ذلك النوع من السنن في تأسيس "عنصرية" من نوع ما بين العرب وغير العرب، ناهيك عما أضافه المشايخ من المزيد من المغالاة في الحلال والحرام، مع غلو في الاستئثار بالحقائق واحتكارها.[40]

فظهرت أحاديث نبوية عن فضل "وقوع الذباب في إناء المسلم" ومكرمة نبات

39- الطبري، مرجع سابق. وراجع خطبة الخليفة أبو جعفر المنصور، وأحوال الشريعة. للدكتور سعيد العشماوي. وانظر: مدعو النبوة في التاريخ الإسلامي. دراسة في الاستخدام السياسي للدين. وليد طوغان. ص 69 و75.

40- السيوطي. مرجع سابق. والحديث المشهور «أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور له». وراجع: الفريضة الغائبة المرحوم الدكتور فرج فودة. والتاريخ الإسلامي العام. للدكتور على إبراهيم حسن. مكتبة النهضة المصرية.

"البقدونس"، وارتبط "بول الإبل" بما أطلق عليه العوام "الطب النبوي"، مع أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يكن طبيبًا، ولو كان؛ فإن الخروج عن اجتهاده في الطب وارد؛ لأن ما يمكن أن يجتهد فيه أطباؤنا بعد 1400 عام من التطور والتكنولوجيا والاستعانة بالأشعة السينية.. وتكنولوجيا النانو، يفوق بالضرورة اجتهاده (ص)، من دون أن يخالف هذا منهج الدين، ومن دون أن تخرجنا هذه الحقيقة من الإسلام.

كان مثيرًا أن يربط المسلمون بعد أكثر من 1400 عام من الرسالة "بول الإبل" بكلام النبي.. ويصدقوا!!

المثير أيضًا؛ أن يربط المشايخ بين تفسير الأحلام وتأويلات القرآن الكريم وتفاسيره.[41]

لكن.. بعد الاستعاضة بأحاديث "البخاري" عن كتاب الله من دون تدارك هذا الخطأ؛ كان طبيعيًا أن يرتد المسلمون على كتاب الله نفسه بتصورات فككت الدين، لكنها في الوقت نفسه رفعت أسعار "المشايخ"، ليزيدوا في المغالاة!!

بعضهم أتقن المغالاة، وبعضهم أدمنها، رغم أن هناك من لا يزال يبحث، ويلف، ويدور بحثًا عن حلول عصرية لقضايا فقهية توازن بين العقل والنقل.. أو بين الفكر والتراث، بين المنقول والمعقول.. لكن يبدو أن الطريق لا يزال طويلًا، ولا يزال الأذان في مالطة عادة.. إسلامية.

أهم ما خرج به الملتقى العالمي لخريجي الأزهر - مثلًا - عام 2009، هو تأكيد أن منكر السنة "غير المتواترة" ليس كافرًا، وأن ما هو أدنى مرتبة من "السنة المتواترة" ليس ملزمًا.

في الملتقى اعتبر مجموعة من العلماء المسلمين - أكثرهم من المجددين - أن تعطيل التفكير الفلسفي جريمة شرعية، وأن تحريم إعمال العقل ومنعه من إطلاق أدواته يعتبر تعطيلًا لأحكام القرآن.. وتوقيفًا لكلام الله.

41- إشارة إلى ما انتشر من برامج على الفضائيات الإسلامية لتفسير الأحلام بادعاءات المشايخ الاعتماد على الكتاب والسنة بدءًا من عام 1999، وسط معارضة الكثير من علماء الأزهر.

كان كلَاما جيدًا، وبارقة أمل أن يصدر من أزهريين ومشايخ، والأمل الأكبر كان أن يظل هؤلاء المشايخ على أقوالهم رغم كل ما يمكن أن يسفر عنه اختبار هذه الأقوال من نتائج.

ما هو "المتواتر" من السنة أو الحديث النبوي؟ وما هو "غير المتواتر"؟

"المتواتر" من السنة هو ما رواه مجموعة من الصحابة بلغ حد "التواتر" (أكثر من 3 صحابة في أكثر من مكان في عصر واحد)، وهو ما وصل إلينا بإسناد صحيح، ويتطابق في المتن أو في منطوق الحديث، غير مخالف لأحكام كتاب الله، ولا تأويلات آياته.

وفي علوم الحديث؛ "المتواتر" أقوى الحديث النبوي حجة، وهو التالي بعد كتاب الله في مصادر التشريع.

حجية "المتواتر" في الفقه الإسلامي، وقوته في الاستدلال؛ هي التي جعلت الكثير من الأئمة قبل الإمام الشافعي يعولون عليه، للحد الذي وصل شطط بعضهم إلى الاعتقاد في جواز إلغاء الحديث "المتواتر" لأحكام القرآن، مع أن هذا عمليًا لا يمكن أن يكون صحيحًا، ولا منطقيًا.[42]

وفي الوقت الذي اعتبر فيه جواز بعض أهل السلف إلغاء أحكام القرآن بالسنة سببا في مشاكل فقهية كثيرة وكبيرة؛ عصف فيها الخلاف بين المشتغلين بعلوم الحديث، بدءًا من عصر الإمام الشافعي.

فاعتبر الإمام الشافعي مثلاً.. أن الحديث الذي يرقى إلى درجة التواتر؛ هو حديث واحد فقط هو: "من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"، اختار الإمام الشافعي هذا الحديث من بين 596 ألف حديث شهروا عن النبي.. وقال الشافعي: "هذا ما اطمأن إليه قلبي"!![43]

كلام الشافعي لم يجعل باب الجدل في سباق إثبات عدد الأحاديث المتواترة مفتوحًا

42- السنة الناسخة. مرجع سابق.

43- أصول الفقه. زكريا البرى. ص49.

حتى الآن فقط؛ إنما كان سببًا مباشرًا في إعادة النظرة الشكلية لكتاب الإمام البخاري، ثم كتاب تلميذه مسلم من بعده.

ففيما يعتبر معظم المشايخ أن "صحيح البخاري" هو أصح كتاب بعد كتاب الله؛ اعتبر آخرون أن "الحديث الصحيح" مرادف للحديث "المتواتر".. وهو ما لم يكن صحيحًا أيضاً.

فغير أنه لا يعقل أن يكون لكتاب بشري سند من الصحة؛ يجعل حجيته موازية لحجية كتاب الله؛ فإن الحديث الصحيح لم يكن مرادفًا في المعنى "عمليًا" للحديث المتواتر.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، وعلى عكس المشايخ؛ فإن كثيرًا من الباحثين المستنيرين لا يزالون يرون أن أحاديث صحيحي البخاري ومسلم هي أحاديث "مشهورة"، ليست متواترة.[44]

الحديث "المشهور" هو الذي رواه عدد من الصحابة لم يبلغوا حد "التواتر" أو الاجتماع على الرواية في عصر معين، وفي علوم الحديث يأتي "المشهور" بعد "المتواتر" في المرتبة، يليهما حديث الآحاد.

و"حديث الآحاد": هو ما رواه صحابي واحد، أو عدد من الصحابة لم يبلغوا حد التواتر، وكان عددهم أقل من الذين رووا "الحديث المشهور" في عصر واحد.[45]

وتأرجحت أحاديث البخاري ومسلم بين المشهورة والآحاد، إضافة إلى أن بعض الباحثين قد ضعفوا بعض رجال الأسانيد، وتسلسل الرواة في كثير من أحاديث صحيح البخاري، كما فعلوا الأمر نفسه في كتاب مسلم.

المعنى ببساطة: خروج أحاديث الرجلين من "شروط التواتر"؛ لأن التواتر قوة في السند، وتطابق في المتن.. بلا علة، ولا شذوذ، أو شك في التقاء الرواة وسماعهم من بعض.

وفي كتابه أصول الفقه الإسلامي، يرى الشيخ زكريا البري أن "الأحاديث النبوية المتواترة لم يتفق الفقهاء إجماعًا على حديث واحد منها بلفظه، فاختلفوا في متونها

44- المرجع السابق.

45- المستشار العشماوي، مرجع سابق. وحقيقة الحجاب وحجية الحديث النبوي.

جميعًا وفي أسانيدها"، و توصل الشيخ البري إلى اتفاق أهل الفقه على أنه حتى "المتواتر من الحديث لا يعمل به في أمور العقيدة ما دام قد خالف العقل، وحال دون قبوله الذوق السليم"، وحديث الذبابة يخالف الذوق، ويطعن في المنطق، كما يطعن في الثابت من حديث النبي (ص) أيضًا "تداووا، فإن الله لم يخلق داء إلا خلق له دواء"![46]

وعام 1990: أفتى الأزهر الشريف بأن "الوجوب والتحريم (بالحديث النبوي) لا يثبتان إلا بالدليل اليقيني"، وقالت الفتوى ما يلي: حيث إن الأحاديث الآحاد غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها؛ فإنها لا تستقل بإثبات الوجوب أو التحريم".

القضية إذا ليست في إنكار السنة أو إثباتها.

إنما المسألة في كيفية إثبات ورود حديث ما على لسان النبي (ص)، أو التأكد أنه (ص) قاله قبل 1400 عام؟[47]

لذلك؛ كانت مطالبات البعض بالتروي في تعامل "التيارات السلفية"، واعتمادها في تدبير أمور حياتها، وصلاح مجتمعاتهم على ما وصلنا من السنة النبوية، ومع ضرورة التعاطي بحذر مع كل ما قيل إنه منسوب للنبي (ص).. كلها كانت مطالبات منطقية.

فلو ضمنا ثبوت "التواتر" فيما نقل عنه (ص) من أقوال؛ لما ظهرت الأزمات، ولو ضمنا التفرقة بين ما يمكن أن يعتد به كأصل في الدين من حديثه، وما لا يمكن اعتباره كذلك.. لما طالتنا المشكلات، لكننا لم نضمن.. ولم يضمن لنا تيارات السلف شيئًا.

عادة ما يرجع المشايخ فيما يقولون، ثم يعودون لإنكار ما طرحوه من مبادئ سلمنا بها معهم في البداية.

وفي النهاية.. عادة ما يرفضون، بينما يقف البسطاء بيننا وبينهم، بعضهم يتهمنا، وبعضهم يخرجنا، وآخرون يجرحوننا.. فيقتلوننا على الأفكار.

في ملتقى الأزهر الثاني؛ طالب الحضور بمواجهة موجات التطرف والتكفير، ونشر

46- الحديث بالسند والمتن. صحيح البخاري.

47- وظهر علم الجرح والتعديل. وما تعارف عليه في علوم الحديث. من «معرفة الحديث دراية» للتحقق من جرح وتعديل الرجال. والتأكيد في الإسناد. والتصحيح في المتن. وراجع قواعد أصول الحديث للدكتور أحمد عمر هاشم (مرجع سابق).

الوسطية والاعتدال.. وكان كلامًا جميلًا.

لكننا اكتشفنا بعدها أن الوسطية التي يريدها السلفيون، هي أن نقول للمشايخ : يريدون أن يسمعوا، وأن الاعتدال الذي قصدوه أن نردد خلفهم.. آمين.

كانت سماحة الإسلام - في رأيهم - ألا نسألهم ما الذي جعل الصحيح متواترًا، ولا من الذي جعل الآحاد مشهورًا.

يرى السلفيون أن الاستنارة غالبًا، هي إعادة أقوال رجال الدين، واجترارها، ليس مهمًا إن كان السوس قد وصل للعظم، ولا مثيرًا أن يكون قد سبق السيف العزل، في مجتمعات تحيا للدين، بينما هي لا تقيم الدين.. كما يجب أن يقيمه أولو الألباب الذين يتفكرون.

النتيجة أن تحول كثيرٌ من التراث إلى سنن، وبدأت "السنن" تفسد الدين.

بالزمن، ومع التمسك بأصول لم تكن أصولا من الأساس؛ لم تنفصل العقيدة عن الدنيا فقط، إنما انفصل الدين عن المنطق.

ماذا يعني هذا؟

يعني أن رجال الدين بتراثهم وأساطيرهم العقائدية أصبحوا في جانب.. بينما معظمنا كان في جانب آخر، لم يعد بين الدنيا والدين آية جسور تربط، ولا مساحات مشتركة، ولا فرصة للالتقاء.

ففي العام 2009؛ أفتى الشيخ "البراك" رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية.. بهدم المسجد الحرام وإعادة بنائه، حتى يتسنى بناء ستار خرساني بين مصلى الرجال ومصلى النساء للقضاء على الاختلاط فيه.

وأفتى الشيخ "البراك" أيضًا، بحرمانية الاختلاط بين الرجال والنساء في العمل، وفي المدارس وفي الجامعات وفي الشوارع أيضًا.. وقال إن من استحل الاختلاط "كافر"!

وفي العام 2010؛ أعاد الشيخ "عبد المحسن العبيكان" إخراج فتوى إرضاع الكبير من تحت الأرض، بعدما كانت قد أثارت أزمة قلبت العالم على رؤوس المسلمين عام 2007.

أعاد العبيكان التأكيد على جواز إرضاع المرأة الرجل البالغ العاقل الأجنبي إذا كان هناك ما يدعو لهذا، مثل الخلوة في العمل مثلًا، لكف حرمة الاختلاط.. بلا محرم!!

السؤال: هل ورد حديث إرضاع الكبير في كتب التراث؟ الإجابة: نعم. السؤال: ألا يجوز التعامل معه بالنقد وفق ثقافة عصرنا، ووفق اجتهاد جديد يعلق العمل به إذا صح ثبته للأقدمين؟ الإجابة: يجوز. السؤال: إذًا.. لماذا لم يحدث هذا؟ الإجابة: لا أحد يعلم!

ورد حديث "إرضاع الكبير" منسوبًا للنبي (ص) في البخاري ومسلم وكتاب الموطأ للإمام مالك.

فيُروى أن الـ[illegible]بي أ[illegible] حذ[illegible]فة.. كان قد تبنى سالم قبل أن يبطل التبني؛ فصار كابنه، يدخل البيت وزوجة أبي حذيفة لا تحتجب عنه، فلما أبطل الله تعالى التبني صار سالم - وقد كبر - أجنبيًا عن "سهلة" زوجة أبي حذيفة، فجاءت تشتكي إلى النبي (ص) وتقول: "إنَّ سالمًا كان أبو حذيفة قد تبناه يدخل علينا ونكلمه، وقد بَطَلَ التبني"، ويروى عنه (ص) قوله لها: ((أرْضِعيه تَحْرُمِي عَلَيه)).[48]

وفي الموطأ: "ولما أنزل الله في كتابه في زيد بن حارثة ما أنزل، فقال تعالى: "ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ" - (سورة الأحزاب - 5)، رد كل واحد من أولئك إلى أبيه، فإن لم يعلم أبوه رد إلى مواليه، فجاءت سهلة بنت سهيل وهي امرأة أبي حذيفة وهي من بني عامر بن لؤي إلى رسول الله (ص) فقالت: "يا رسول الله كنا نرى سالمًا ولدًا وكان يدخل علي وأنا فضل (في ثياب عادية)، وليس لنا إلا بيت واحد، فماذا ترى في شأنه؟؟"؛ فقال رسول الله (ص): "أرضعيه خمس رضعات"؛ فيحرم بلبنها، فاتخذته سهيلة ابنًا من الرضاعة، وأخذت بذلك عائشة أم المؤمنين فيمن كانت تحب أن يدخل عليها من الرجال، فكانت تأمر أختها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق وبنات أخيها أن يرضعن من أحبت أن يدخل عليها من الرجال، وقال ابن عبد البر في التمهيد: هذا حديث يدخل في المسند للقاء عروة وعائشة وسائر أزواج النبي (ص)، وللقائه سهلة بنت سهيل.[49]

48- موطأ الإمام مالك.

49- ورواه آخرون غير عروة.

وأجاز رضاعة الكبير عطاء بن أبي رباح، ولدى أهل الظاهر (أحد المذاهب الفقهية) لا يعتدّ بوصول لبن المرأة – إلى جوف الرجل الكبير "بغير التقام الثدي ومصه رضاعًا معتبرًا شرعًا يثبت به التحريم"، لذلك؛ اعتبر أهل الظاهر أن شرب الكبير لبن المرأة المحلوب في كوب أو إناء رضاعًا "لا تكف به الحرمة"، وقالوا بـ"لزوم التقام ثدي المرأة لشرب لبنها"!

وغير أهل الظاهر؛ رأت مذاهب فقهية (سلفية) منها بعض الحنابلة والمالكية.. أن "الرضاع" الوارد بالحديث، لكف حرمة دخول الرجل الأجنبي على المرأة بلا محرم يثبت "بشرب اللبن المحلوب في كوب أو إناء، لا بمصّ الثدي"؛ لأن البديهي شرعًا ألا يحل للرجل مس ثدي غير زوجته ولو كانت أخته أو أمه.

فاعتبر هؤلاء وصول اللبن إلى الحلق بأي طريق كان "مثل صب اللبن في الفم من غير التقام الثدي، وشربه" رضاعًا، واعتد أصحاب هذا الرأي "الفقهي" بعدم جواز مص الرجل الأجنبي ثدي المرأة في رضاع الكبير، بالحديث الذي رواه الطبراني بقوله (ص): "لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد.. خير له من أن يمس امرأة لا تحل له".[50]

و"المسّ" هو اللمس باليد وبغير اليد. المعنى؛ أن رجال الحديث، وقفوا أمام الحديث النبوي، بحديث نبوي أيضًا.. فخصصوا حكمًا نبويًا، بحكم نبوي آخر.. في محاولة للمواءمة بين قولين، أحدهما كان "أزمة" في عمومه، بينما كانت الأزمة الأخرى في محاولات المواءمة.. وسط قدرة غائبة على رفض الأمر برمته لانتفاء المنطق، وعدم المعقولية.

إلى جانب السيدة عائشة؛ قيل إن أم المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنها ـ أخذت بحديث إرضاع الكبير، وروي عنها هذا بإسناد يقال إنه صحيح.[51]

لما أعاد العبيكان الفتوى عام 2010، تأسيسًا على سنة النبي؛ كان الغرض كف حرمة "العرض" والاختلاط المحرم في الفكر السلفي.. بالرضاعة، وكان الغرض أيضًا، تفويت حرمانية اختلاء المرأة بأجنبي.. بإرضاعه، ومن ثم تصبح المرأة المرضعة من

50- مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي.

51-كتاب الفتح. للحافظ بن حجر.

المحرمات على الرجل "الراضع" حرمة مؤبدة، كحرمة الخالة والعمة بالنص القرآني.

غير أنه في التمسك بحذافير ما يؤكد بعض "أهل السلف" أنه حديث، وغير سوء الأدب.. وقلة الحياء، عارضت فتوى إرضاع الكبير، الأمر القرآني الواضح، بحفظ الفروج والعورات "إلا على أزواجهن"؛ ما يعني أن الإفتاء بإرضاع الكبير تطبيقًا للحديث النبوي.. درءًا لحرمة الاختلاط، كان في الوقت نفسه محرمًا بالنص، وكان حرامًا في آراء كثير من الصحابة.

فرغم ما يروى عن أخذ السيدة عائشة بجواز إرضاع الكبير، يروى أيضًا رفض سائر زوجات النبي (ص) أن يدخل عليهن بتلك الرضاعة أحد من الناس، وقلن: "لا والله ما نرى الذي أمر به رسول الله (ص) سهلة بنت سهيل، إلا رخصة من رسول الله (ص) في رضاعة سالم وحده".

وثبت عن علي بن أبي طالب (رض) قوله: "لا رضاع بعد الفطام"، ووافق رأي علي (رض) رأي عبد الله بن مسعود و أبي موسى الأشعري، وروى عن الإمام الليث بن سعد قوله: "لا يحل من رضاعة الكبير شيء".

وقال ابن أبي مليكة بعد سماعه حديث جواز إرضاع الكبير منسوبًا إلى النبي في المدينة: "مكثت سنة أو قريبًا منها لا أحدث به رهبة له، ثم لقيت القاسم؛ فقلت له: لقد حدثتني حديثًا ما حدثته بعد، قال: ما هو؟ فأخبرته، قال: حدث به عني أن عائشة أخبرتنيه".

رواية أبي مليكة هي التي دفعت بعض الدارسين المحدثين إلى القول بضعف الحديث؛ ما ينفي احتمال وروده عن النبي (ص)، فقد أشارت رواية ابن أبي مليكة، إلى أن رضاعة الكبير لم تكن معروفة عن جماعة التابعين من أهل المدينة، مع أن معرفتهم بالفقه كانت حجة آنذاك؛ لأنهم الأقرب عهدًا بالنبي (ص) والخلفاء الراشدين وباقي الصحابة.

وابن أبي مليكة من علماء التابعين من أهل المدينة، ثبت عنه لقاؤه الكثير من الصحابة والحديث عنهم، (فحدث عن عائشة أم المؤمنين وأختها أسماء بنت أبي بكر

الصديق، وأم سلمة وأبي محذورة وابن عباس وعبد الله بن عمرو وابن عمر وابن الزبير والمسور بن مخرمة وغيرهم)، مع ذلك؛ لم يحدث بحديث إرضاع سالم مولى أبي حذيفة عامًا كاملًا رهبة لذلك، وهو ما يدل على أن موضوع إرضاع الكبير كان مستغربًا للغاية لديه ذلك الوقت!![52]

قال ابن عبد البر: "هو حديث ترك قديمًا، ولم يعمل به ولم يتلقه الجمهور بالقبول على عمومه؛ بل تلقوه على أنه مخصوص".

وقال ابن عبد البر: "وممن قال إن رضاع الكبير ليس بشيء (ليس صحيحًا) عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وابن عمر وأبو هريرة وابن عباس وسائر أمهات المؤمنين غير عائشة وجمهور التابعين وجماعة فقهاء الأمصار، منهم الثوري ومالك وأصحابه والأوزاعي وابن أبي ليلى وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبري ومن حجتهم قوله (ص): إنما الرضاعة من المجاعة".

وروى عن عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها: "انظرن إخوتكن من الرضاعة، إنما الرضاعة من المجاعة"، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم: "لا رضاع إلا ما أنبت اللحم والدم"، وروى عن النبي أيضًا: "لا يُحَرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام". والمعنى: أن الأصل ألا تكون الرضاعة إلا للصغير قبل الفطام!![53]

وروى الإمام أحمد في "المسند" وعبد الرزاق في "المصنف" أن رجلًا جاء إلى ابن مسعود فقال: إنها كانت معي امرأتي فحُصر لبنها في ثديها؛ فجعلت أمصه ثم أمجُه، فأتيت أبا موسى فقال ما أفتيت هذا ؟ فأخبره بالذي أفتاه، فقال ابن مسعود، وأخذ بيد الرجل: أرضيعًا ترى هذا؟ إنما الرضاع ما أنبت اللحم والدم.[54]

حديث "إرضاع الكبير" كان معضلة، وكان صراعًا بين سنة.. وسنة. وبين منقول

52- سير أعلام النبلاء المجلد الخامس ص 88.

53- رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

54- رواه عبد الرازق في المصنف أيضًا.

ومنقول، إضافة إلى ما بدا فيه من نزاع بين "السنة النبوية" والنص القرآني، ثم غياب الالتفات إلى هذا النزاع بالتمادي في التأسيس للتشريع بالسنة، رغم التناقض بين المنقول بـ"السنة" وبين المعقول.. بالمنطق.

لم تكن الأزمة في فتوى الشيخ العبيكان بجواز كشف المرأة ثدييها للغريب، ثم وضعه على فمه، ابتغاء مرضاة الله، بقدر ما كانت المعضلة فيما تسرب للدين من بوابة الاعتقاد السلفي في ما يتم تحميله على السنة بلا فحص، الأمر الذي أدخل عقيدة المسلم في صراع دائم مع المنقول عن النبي (ص) والصحابة والتابعين.. وأدخل المنقول عن النبي (ص) في صراع آخر مع.. النص القرآني أحيانًا أخرى!

مبلغ العلم أنه لن تقبل المسلمات على فعل محرم.. كفا للحرام. وحسب الذوق السليم؛ لن يستقر العرف في مجتمع مدني على فعل شاذ يفتقد اللياقة وحسن الأدب.

لم تكن المعضلة من ناحية أخرى في إجازة بعض رجال الدين إطلاع المسلمة الرجل الغريب على عورتها؛ لكن في إصرارهم على رفض إعادة فحص الكثير مما نسب إلى النبي (ص)، وما ثبت في كتب الحديث منسوبًا إليه (ص) بدعوى استحالة كذب الذين رووا عنه في زمنه، ولا في الأزمان التي لحقت زمنه. ثم إصرار كثير من السلفيين على وضع كل المنقول عنه (ص) في المرتبة الثانية للتشريع الإسلامي.. بعد كتاب الله!!

اعتماد كثير من السلفية على كل السنة بلا نقد، والتشبث بها بلا نقض، كان سببًا في دعوات بعض الدارسين المحدثين إلى تجنيب السنة في التشريع، مع الاحتكام فقط لكتاب الله.

فالذي حدث.. أن المسلمين السنة، خصوصاً جماعات السلفية منهم قد اهتموا على اختلاف مراحل التاريخ الإسلامي بـ"السيرة النبوية" أكثر من "فلسفة العقيدة"، لذلك مثلًا؛ ترى أغاني المتصوفة قد احتفلت بـ"جمال النبي" و"صفاته"، وتنوعت كتبهم في مآثر قصصه وفضله (ص) وأهل بيته، مقارنة بمحاولات قصيرة وقليلة في اجتهادات تدبر النص القرآني لمزيد من درسه وتأويله.

والنتيجة؛ أن ظهر من "السلفية" من يرى أن إثم الافتراء على السنة النبوية.. أقوى

من إثم الافتراء على كتاب الله. وظهرت نتائج مترتبة على هذا لم تكن متصورة.. ولا معقولة.

في العام 2008؛ كفّر الشيخ القرضاوي "القرآنيين"، واعتبرهم ليسوا مسلمين، بينما برأ الشيعة من الكفر!

الشيخ القرضاوي نفسه كان قد أقر عام 2006 بافتراء الشيعة على كتاب الله؛ لكنه رغم افترائهم؛ ثبتهم في ملة الإسلام، في الوقت نفسه الذي أفتى فيه بخروج "القرآنيين" من الدين بعد مطالباتهم بتنحية الحديث النبوي جانبًا، والاحتكام فقط إلى كتاب الله.. بعدما شكوا فيما نسب إلى رسول الله.

مثل مشايخ السلفية؛ طغى القرضاوي، هم كابروا، وهو أيضًا.

فالذي حدث أن "القرآنيين" شكوا في سند كثير من الحديث النبوي، أو هم دعوا إلى إعادة التثبت من السنة.. لذلك أخرجهم المشايخ من الدين، بينما أكد المشايخ إسلام الشيعة الذين شككوا في الأصل، وشككوا في الوصل، وضعفوا المآل.. وشدوا الرحال لرجال غير الرجال.

مفارقة عجيبة!

شك القرآنيون في كثير من أسانيد الحديث النبوي "معتبر"، ومطالبتهم بإعادة فحص السنة "مشروع".

لكن وسط متغيرات لم تكن متوقعة؛ كان مجرد إيمان الشيعة (الاثنا عشرية) بما شهر عن الرسول من أقوال - رغم عبثهم بكتاب الله - يعصمهم من الخروج عن الإسلام في رأي الشيخ القرضاوي، الذي رأى هو نفسه أن دعوة القرآنيين لـ"التثبت من السنة" فساد، ومع أن التشيع في التاريخ الإسلامي كان هو المعضلة الأكبر!

ضعف المشتغلون بعلوم الحديث رواية "المتشيع"؛ فيرى الإمام الحافظ أن: "من رمى بالبدعة كالتشيع لا يؤخذ حديثه".[55]

55- الحافظ في تقريب التهذيب.

ففي القرن الثامن الهجري اكتشف الحفاظ من رواة الحديث وعلمائه؛ أن هناك ما أدخلته السياسة على كلام النبي ولم يقله النبي، وقالوا إن هناك من كذب عليه (ص) من الشيعة، فوضعوا على لسانه (ص) كلامًا لم يقله.

لظروف كثيرة؛ طالب القرآنيون بالاحتكام لكتاب الله، وكان الغرض هو البعد عن التراث، والحذر من "المقالب".[56]

وفق هذا؛ كانت مطالبات "القرآنيين" بالتمسك بالأصل.. وجيهة، وواجبة، بعدما لعبت السياسة بالدين، ودخل "الكذب" على أقوال رسول الله، وبعدما تغير مفهوم النبوة نفسه في أدبيات التراث الديني.. الشعبي!

فمع استقرار الخلافات الإسلامية في الحكم في عصور الخلافة؛ من دون آية مقومات حقيقية سوى قرابة الخلفاء لبيت النبوة؛ دخل على مفهوم "النبوة" ما يمكن أن يطلق عليه التصور "الشعبي" عن مكانته (ص) نفسه، وتوافق الاعتقاد الجديد لمفهوم النبوة، مع اعتقاد بعض مدارس السلفية في إمكانية أن يلغى بعض التصرفات النبوية أحكام نصوص قرآنية، فتزعم هذا الرأي الإمام مالك والإمام أبو حنيفة، وتكلم فيه وأخذ به الإمام أبو حامد الغزالي، وقال يجوز نسخ القرآن بالسنة؛ لأن الكل من عند الله!![57]

التغير في مفهوم النبوة، هو الذي حول أقوال النبي من اعتبارها تبيانًا للنص، إلى نص مقدس موازٍ.[58]

ظهر هذا في إصرار ابن حنبل مثلًا على العمل بالحديث "الضعيف" ووصفه بأنه أحب إليه من العقل والرأي، الأمر نفسه ظهر في قول مالك في مقدمة كتابه "الموطأ" أنه جمع ما شهر عن النبي من حديث "ضعيف ومرسل ومعلل" إلى جانب "الحسن والصحيح والغريب" أملًا في أن ينتفع به المسلمون!!

56- يرى القرآنيون أن الكثير مما دخل على السنة النبوية دخل بفعل السياسة. بينما لم يكن ينبغي له أن يدخل. لذلك نادوا بالدفاع عن القرآن. وطالبوا بإعادة اختبار كثير من الأحاديث التي شهرت عن النبي بدعوى تنقية العقيدة.

57- (وقال الغزالي إنه يأخذ بالرأي بجواز نسخ القرآن بالسنة. لأن الكل من عن الله) الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم. قواعد أصول الحديث. مرجع سابق.

58- راجع مدعو النبوة في التاريخ الإسلامي. وليد طوغان. دار الخيال. من ص 51. 57.

التغير في مفهوم السنة النبوية، ومكانة النبي (ص)؛ هما السبب في معركة فكرية شرسة بين الإمام الغزالي وابن رشد.[59]

فقد رأى ابن رشد أن اعتماد الغزالي على الحدس، مع الإيمان الكامل والتسليم بأن السنة مثلها مثل القرآن، كل من عند الله ليس من صحيح الدين. ورأى ابن رشد أيضًا أن عدم استعداد كثير من الفقهاء لدراسة بعض ما ورد في القرآن، وإعادة تفسيره من جديد بعد فصله عن أقوال النبي (ص)، هو السبب في أن تتحول "السنة" إلى مصدر موازٍ لكتاب الله في التشريع، لا يجوز معها الاجتهاد.

كانت وجهة نظر ابن رشد سليمة؛ فقد كانت تغيرات من نوع خاص قد طرأت على النظرة لمكانة أقوال النبي، بعدما ظهرت تغيرات استراتيجية على مفهوم "النبوة" نفسه.

وفتحت هذه التغيرات الطريق بدورها أمام معتقدات جديدة لحقت بشخصه (ص)، تطورت إلى الاعتقاد في عصمته (ص) من الخطأ، والتسليم بمعرفته الغيب، والإيمان بقدرته على الاطلاع على المستقبل، انتهاء بالاعتقاد في عدم تحلل جسده الشريف (ص) بعد وفاته.[60]

وانتهي الأمر بتفسير الآيات القرآنية "إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى" - (النجم - 4)، على أن كل ما قاله (ص) وحي، وأن كل ما قام به (ص) من أفعال؛ كانت مؤيدة من الله، رغم تعارض هذا مع نصوص القرآن التي عتب فيها الله محمد على أفعال قام بها (ص).

ففي القرآن.. عاتب الله رسوله على سلوكه في مسائل "تحريم العسل" و"أسرى بدر" و"الأعمى" و"التبني"؛ ما يعني أنه لو كانت جميع أفعال النبي (ص) وسلوكه من عند الله؛ لما عاد الله وعاتبه (ص) فيما كان النبي مأمورًا به!

يرى "كوريان" أن دفع الخلفاء العرب بقرابتهم للنبي (ص)، باعتباره السبب الوحيد والمبرر الأقوى للاستمرار في حكم المسلمين ومواطني البلاد المفتوحة من دون

59- كتاب تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي، ورد ابن رشد في كتاب تهافت التهافت.

60- ظهرت أقاويل من هذا القبيل على المستوى الشعبي، ولدى بعض رواة السيرة النبوية. خلال حكم الخلفاء العباسيين، واستمرت مثل هذه الأقاويل، والقصص. حتى دخلت عصر التطور، والانتشار خلال الخلافة الفاطمية. وهي الفترة التي انتشرت خلالها تلك الأفكار، وتوغلت. لدى كثير من المسلمين. واستمرت. ربما حتى الآن في مفهوم كثير من البسطاء.

أي ميزة أخرى، هو الذي أدى إلى تغير مفهوم النبوة "سياسيًا"، وبالتالي تغيرها فقهيًا واجتماعيًا فيما بعد.[61]

لذلك؛ لا يمكن اعتبار مطالبات القرآنيين بإعلاء كتاب الله.. كأصل، وإنزال "الفروع" منازلها.. خروجًا عن الدين، فإذا جاز الاجتهاد في كتاب الله.. ألا يجوز إعادة الاجتهاد في سنة نبيه؟!

يرى "القرآنيون" أن الاحتكام إلى كتاب الله، بعد ما ألم بالسنة النبوية من وضع، وكذب؛ يقطع الطريق على جماعات الإسلام السياسي، التي لعبت بالحديث النبوي تحقيقًا لمصالحها. وهم يرون أن قطع الطريق على "الإسلام السياسي" ليس وقوعًا في محظور الانتقاص من الشريعة الإسلامية، ولا إضعافًا لهوية مجتمع مسلم - كما يرى البعض.

فالذين سيسوا الدين.. ثم عسكروه ليسوا الشريعة، وتسييس الدين خطيئة تاريخية كبرى لم يتداركها الكثيرون حتى الآن.

فالدين ثابت، والسياسة متغير، لكن تيارات تسييس العقيدة تربط الثابت - دائمًا - بالمتغير على مر التاريخ؛ طلبًا للسلطة من دون أصل شرعي أو سند.

وبالممارسة؛ حصرت الخلافة الإسلامية حكم المسلمين في بيت واحد هو بيت النبوة، ولجنس واحد هو جنس العرب؛ فاختفي مفهوم مواطنة غير المسلمين، بدافع الدنيا.. لا بدافع الدين![62]

اعتراضات القرآنيين كانت وجيهة، ففي المنسوب إلى الرسول (ص) كثير مما يجافي المنطق، ويخالف أحكام كتاب الله. ليس تشكيكًا في أقوال النبي؛ إنما حذرًا مما نقل عنه من دون يقين، وخوفًا مما التصق بسيرته على خلاف المعقول، فنافس كتاب الله في حجيته.

فالسنة ليست أصلا، لكن القرآن كذلك، ومع كل أزمة بين العقل والنقل تعود التساؤلات حول أسباب عدم الاستجابة للمطالبات بإعادة إخضاع ما قيل إنه نسب للنبي للفحص

61- تاريخ الخلفاء، السيوطي، والخلافة الإسلامية للمستشار العشماوي، مراجع سابقة.

62- السيرة النبوية، لابن هشام، ج 1، ص 132 . ومدعو النبوة في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق.

من جديد.

ريما يدعو تشبث بعضهم بـ"إرضاع الكبير" للتندر، بينما الاعتقاد في صحة كل ما نسب للنبي (ص) من أفعال وأقوال بلا مناقشة أو جدال، كان دعوة لدخول "الخزعبلات" من بوابة الدين، فتتحول بعد فترة معلومًا منه بالضرورة.. وفي النهاية يتهموننا في الدين؛ مع أننا نسعى لصلاحه..!

(3)

لما شك البخاري نفسه في "المنقول" من السنة النبوية كلها، ثم غربلها.. ودققها وأعاد إخراجها في صحيحه؛ لم يتهمه أحد بالإنكار.. ولا وصمه الأئمة بالخروج عن الدين.

صحيح ابتغى البخاري مرضاة الله في السعي لجمع ما نقل عن رسول الله؛ إلا أن الرجل لم يخرج عن كونه مجتهدًا، لا يجوز رفع اجتهاده إلى مرتبة الأصح بعد "كتاب الله".. ولا يمكن تقديسه إلى حد "الفتنة" بين المسلمين في الاختلاف على حجية اجتهاده.

فقد نقل البخاري ما شهر عن رسول الله، طمعًا في طاعة رسول الله، لكنه خالف في الوقت نفسه نهي رسول الله عن تدوين أحاديثه (ص)؛ كيلا توازى كتاب الله لدى عامة المسلمين فيما بعد.[63]

وهو ما قد حدث.

فقد فتن كتاب البخاري المسلمين بعد 1430 سنة من نزول الوحي على النبي (ص)، إلى الحد الذي وصم فيه بعضنا المطالبين بإعادة فحص كتاب البخاري بالخروج عن الدين.. وإنكار أقوال النبي.

ولد الإمام البخاري في العام 194 هـ، وولد الإمام مسلم ما بين 204 و206 هـ، بينما ولد الترمذي وأبو داود وابن ماجة والدرامي بعد عام 209 هـ.. وكلهم من الجيل الأول لأرقى ما وصلنا من كتب الحديث، رغم أن أحداً منهم لا شاهد النبي، ولا سمع منه.. ولا حتى سمع مباشرة من الصحابة أو التابعين.[64]

المعنى أن البخاري - رغم اجتهاده - لم يتخط الشرط الأول من شروط "علوم الجرح".. أحد أهم علوم دراسة الحديث النبوي.

63- مسند ابن حنبل. والذهبي في تذكرة الحفاظ. ج 1.

64- ضحى الإسلام. أحمد أمين. ج2. ص 103 وما بعدها.

فقد نقل بالسماع بعد جيلين من جيل النبي (ص)، ولم يسمع مباشرة منه (ص)، ولا روى مباشرة عن من سمع منه (ص) مباشرة.. هذا جانب.

الجانب الآخر؛ أن الإمام البخاري خالف بكتابة السنة، الثابت بالسنة أيضًا؛ فوقع المتمسكون بصحيح البخاري فيما حذر منه رسول الله بعدما جاءه خبر من يكتبون أقواله!

خاف النبي (ص) أن يظهر للمسلمين كتاب غير كتاب الله؛ فيقدسوه ويعظموه عظمة القرآن، لذلك؛ نهي عن تدوين أقواله، وتكلم عن هذا النهي أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت وعبد الله ابن مسعود وأبو سعيد الخدري.

وروى أبو هريرة خروج رسول الله عليهم وهم يكتبون أحاديثه؛ فسألهم عن الذي يفعلون، ثم انفعل وقال: أكتاب غير كتاب الله؟ قال أبو هريرة: "فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار".[65]

وروت عائشة بنت أبي بكر "جمع أبي الحديث عن رسول الله وكانوا خمسمائة حديث؛ فبات يتقلب كثيرًا؛ فلما أصبح قال أي بنية هلمي بالأحاديث التي عندك فدعا بنار فأحرقها "، وروى عن أبي هريرة أن رسول الله قد بلغه أن أناسًا قد كتبوا أحاديثه؛ فصعد المنبر وقال: "ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتم.. إنما أنا بشر، فمن كان عنده شيء منها فليأتني بها" يقول أبو هريرة: "جمعنا ما كتبناه وأحرقناه".[66]

أبو هريرة نفسه صاحب حديث النبي (ص): "لا تكتبوا عني غير القرآن ومن كتب عني غير القرآن فليمحه".

وعن أبي سعيد الخدري قال: استأذنت رسول الله (ص) أن أكتب حديثة فأبى أن يأذن لي".[67]

ويروى الذهبي في تذكرة الحفاظ رواية عبد الله بن عمر قال: "خرج علينا رسول الله

65- الإمام ابن حنبل. المرجع السابق.

66- تذكرة الحفاظ. الإمام الذهبي.

67- مسند الإمام ابن حنبل.

(ص) يومًا كالمودع، وقال إذا ذهب بي فعليكم بعدى بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه".

وفي كتاب الأحكام لابن حزم، أن عمر بن الخطاب (رض) صعد المنبر في المدينة، وقال: "بلغني أيها الناس أنه قد ظهرت بين أيديكم كتب (يقصد ما كتبوه من حديث النبي) فأحبها إلى أحسنها، وأقومها، ثم قال: لا يبقى أحد عنده كتاب منها إلا أتاني به فأرى رأيًا فيه".

فظن المسلمون أن ما يريده عمر أن يرى أفضل ما كتبوه من حديث النبي، فأتوه بما كتبوا، فجمعها وأحرقها وقال: "أهي أمنية كأماني أهل الكتاب؟".. ثم كتب عمر إلى ولاته على بلاد المسلمين قائلًا: "من كان عنده من السنة شيء فليتلفها".[68]

خاف المسلمون الأوائل من حفظ آية كتب، أو إضفاء القداسة عليها إلا القرآن، لذلك؛ لم تجمع الأحاديث النبوية إلا في عصر الخلافة العباسية.

صحيح أمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بجمع السنة في عصره؛ إلا أن أمره لم ينفذ حتى مات.. وبقيت أقوال النبي من دون جمع حتى قدوم العباسيين، والخوف هو الذي جعل مالك - رحمه الله - يأبى أن يجيب أبا جعفر المنصور، في إلزام المسلمين بدراسة "الموطأ" بالأمر، قال مالك للمنصور إن أصحاب رسول الله (ص) قد تفرقوا في الأمصار وعند كل منهم علم، وليس من الرأي أن يحمل الناس على كتاب ما.. إلا كتاب الله.

إذا كان (ص) نفسه نهى عن تدوين سنته؛ فالمطالبات الحالية بإعادة فحص المنقول عنه (ص) مشروعة، إضافة إلى أن الدعوات بترك المشكوك فيه من "الأثر" هي الأخرى.. وجيهة.

السنة في اللغة هي "عادات الأولين"، وفي الاصطلاح هي "صحيح المنقول عن النبي (ص) تبيانًا لمقصود الشارع"، أو هي اعتماد ما شهر عن النبي (ص) قولًا أو فعلًا في أمور الدين بعد التيقن من صحته، بشرط عدم مخالفة الثابت عنه (ص) للنص

68- كتاب الأحكام، الإمام ابن حزم، ج 2، ص 139، وما بعدها، وبالأجزاء وبقية الجزء الأول.

الأصلي أو العقل والمنطق.[69]

لذلك؛ فالقاعدة الفقهية هي "اعتماد صريح المعقول.. من صحيح المنقول"، أما اجتهادات الصحابة؛ فهي ما تعارف عليه المسلمون بـ"الأثر" على أصح التعريفات.

المعنى، أنه حتى الثابت صحته من السنة النبوية، لا يمكن اعتباره "أصل"، كما لا يمكن اعتبار اجتهادات الصحابة في التشريع والتفسير أصولا هي الأخرى.

السنة وفق هذا التصور، ليست "صحيح البخاري"، ولا كتاب مسلم.. ولا هي مسند ابن حنبل، أو موطأ الإمام مالك، السنة هي ما قاله النبي (ص) اجتهادًا في عصر الإسلام الأول، بينما الموجود في كتب الحديث مجرد محاولات بشر، لنقل ما قيل إن النبي (ص) قاله قبل إخراج هذه الكتب بنحو 170 عامًا.

كتب السنة اجتهادات لجمع ما قاله (ص)، والقداسة لا تنسحب على الاجتهاد مهما كان رجاله.. ومهما كان الاجتهاد.

ثم إن السنة في النهاية، محاولة نبوية لبيان مقاصد الله في كتاب الله، ويمكن اعتبارها أول محاولة بشرية لتبيان مقصود الله في شرعه، ثم تيسير طرق تطبيقه لو غم المقصود منه على المسلمين في عصور الرسالة الأولى.[70]

السنة إذًا اجتهاد بشريًا، واجتهاد البشر ليس مقدسًا، لذلك؛ لا يجوز إضفاء القداسة على كلام النبي (ص) في الشرح والتأويل والتطبيق. فقد اجتهد (ص) وفق ثقافة عصره، أملًا في بيان مقصود آيات الله في كتابه الكريم، لذلك كانت سنته (ص) هي البيان الأول لمقاصد القرآن الكريم، لكنها لم تكن "البيان الوحيد" له.

السنة النبوية بهذا المعنى "تراث"، لكن آيات الله ليست كذلك.

فالتراث هو كلام الاولين، واجتهاداتهم وطرق تعاملهم مع "النص الثابت" الذي هو كتاب الله، لكن كتاب الله نفسه أصل ثابت، لا يجوز اعتباره تراثًا، فالتراث من صنع

69- محاضرات في الفقه الإسلامي، للأستاذ محمد أبو زهرة، الكتاب والسنة، طبعة 1956، ص 9 وما بعدها.

70- الكتاب والقرآن، للدكتور محمد شحرور.

بشر، لكن القرآن من عند الله.[71]

والذي من عند الله ثابت، لكن الذي من عند البشر متغير. والمتغير يجوز معه الزيادة والنقصان.. أو الخطأ والصواب، ويجوز معه التجديد أو التجدد، لكن لا يجوز ذلك مع كتاب الله.

فلو كانت اجتهادات الرسول (ص) لها ما للأصل من كمال، لوازت حجيتها حجية الأصل، وهي النتيجة التي لا يرضاها أحد، لأن كتاب الله هو الوحيد الذي له من الكمال ما ليس لغيره.

ولو كان لكلام الرسول ما للأصل من حجية؛ لاكتسبت أقواله قوة الإلزام الشرعي لآيات القرآن، ولما اجتهد الصحابة بالرأي من بعده، ولما نشأت علوم الفقه للفصل فيما لم يرد به نص.

ثم إن النبي (ص) لم يكن قد بين كل شيء، فبعد وفاته (ص)؛ جاءت جدة إلى أبي بكر (رض) تطلب ميراثًا من ابن ابنها الذي مات ابنها قبله؛ فلم يعرف الخليفة ماذا يفعل. [72]

لم يكن في كتاب الله نص بتوريث الجدة، ولا كان مشهورًا عن النبي ما يقضى في المسألة، حتى شهد من الصحابة اثنان أن النبي (ص) ورث الجدة في واقعة شهداها، قياسًا على ميراث أصحاب الفروض في القرآن.. فلو لم يشهدا، لاجتهد أبو بكر بمنحها أو حرمانها، تمامًا كما اجتهد النبي وفق روح النص القرآني؛ فورث الجدة، ومثلما يجوز للمسلمين أن يعيدوا النظر في اجتهاد أبي بكر.

باجتهاد النبي (ص) في واقعة ميراث الجدة؛ فإنه أرسى قواعد "الاجتهاد" التي يجوز للمسلمين التعامل على أساسها وفقًا للظروف، ومقتضيات المصلحة.

فهم الصحابة هذا.. ونفذوه، فأوقف عمر بن الخطاب مثلًا حد السرقة في المجاعة، رغم أن النص القرآني واضح في قطع يد السارق، كما أوقف عمر (رض) سهم "المؤلفة

71- محمد شحرور، المرجع السابق.

72- الوجيز في الميراث والوصية، للدكتور يوسف قاسم، مرجع سابق

قلوبهم" رغم صريح الآية القرآنية بذلك، فقد كانت الظروف تغيرت، بينما كان مفهوم المرونة في التعامل مع النص القرآني يجيز التعامل مع روح الآيات الكريمة، واكتشاف عللها حسبما تتطلب مصلحة المسلمين.

المعنى أيضًا أن ما فعله النبي، وطبقه الصحابة كانت اجتهادات.. أو أحكامًا مستحدثة قياسًا على الأصل، والمستحدث كما يجب التيقن من وروده أولًا قبل التعامل معه؛ فإنه يجوز العدول عنه.. لو اقتضت الضرورة.. وتغير الزمان.

فيجوز مثلا الاجتهاد مع النص من دون مخالفة مبادئ النص، ويجوز أيضًا العدول عن الحكم القديم، إلى حكم جديد لو تم تأويل النص برؤية أوسع وأكثر اقترابًا من سبب نزول النص.

لكن الذي حدث عكس ذلك، فمال البعض إلى الإسراف في التحريم بلا سبب، بينما فضل آخرون الانحياز إلى الحلال دون مقتضى.

في العام 2009؛ اعتبر مشايخ السلفية؛ أن اجتهاد د. زينب رضوان أستاذ الفلسفة الإسلامية بأن "تعدد الزوجات ليس أصلًا إسلاميًا، وليست قاعدة ثابتة مطلقة"، خروج عن الدين، مع إن د. زينب كانت هي الأخرى أهل اختصاص، واسألوا أهل الذكر.

قالت رضوان إن الإسلام أعطى الحق للزوجة في الطلاق خلعًا حال زواج زوجها بأخرى؛ ما يعني أن الأصل فقهًا ليس التعدد.

وقالت أيضًا إن هناك الكثير من آيات القرآن ومتون الأحاديث النبوية "يتم تفسيرها بشكل خاطئ"، إضافة إلى أن معظم ما تعلق بأحكام المرأة في السنة، التصقت به مخالفات واضحة لصحيح القرآن، خلال القرنين العاشر والحادي عشر هجريًا.

المعنى دينيًا، أنه ليس للرجل في العقيدة الصحيحة حق التعدد، والمذكور في كتاب الله يبيح الجمع بين أكثر من زوجة محدد بـ"أمهات اليتامى" خوفًا على اليتامى.

الأزهريون قلبوا الدنيا وقتها، فلا ناقش أحد، ولا حاول نفر منهم التفكر في الذي تقوله عالمة في الدين انتابتها نظرة أخرى، كان لها فيها أجر الاجتهاد على الأقل.

تعدد الزوجات ليس رخصة دينية مطلقة، والذي يمارسه المسلمون من تنقل بين الإناث، بدعوى الحلال كان في حقيقته "تمتعًا جنسيًا" معلقًا على شماعة شرعية.

لم يكن اجتهاد د.زينب رضوان جديدًا، مع أنه كان شديد الوجاهة.

فآيات التعدد في سورة النساء بدأت بالحديث عن حقوق اليتامى، حتى وصلت إلى قوله تعالى: "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء" - (النساء - 3).

في التفسير جاءت "إن" في الآية شرطية، ما يعني أن ما قبلها معلق على ما بعدها، والمعنى أن شرط التعدد، كان معلقًا في الآية الكريمة على شرط الخوف على "اليتامى".

القاعدة الفقهية أن: "الحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا"، و"العلة" هي سبب الحكم، فإذا انتفي السبب بطل الحكم منطقيًا، من دون الحاجة إلى تأويل.. أو نص شرعي.

علة الحكم في آية التعدد بسورة النساء، هو الاضطرار للتعدد.. خوفًا على مصير صغار لا عائل لهم. غير ذلك؛ فالأصل زوجة واحدة؛ لأنه لم يرد نص يفتح باب التسري بالنساء، رخصة من الله.

قبل أزمة د. زينب في مصر بسنوات، حدث الأمر نفسه في فرنسا، فقد قلب المسلمون هناك الدنيا على رأس الباحث الدكتور رءوف صبرا بعد محاضرة قال فيها كلامًا مشابهًا.

كان د. صبرا فقيهًا هو الآخر، لكن أئمة مساجد أوروبا من خريجي كليات الهندسة والطب يصنفون المسلمين بطريقة "الانتقاء" المعتمدة في النوادي المصرية الراقية.

قالوا إن صبرا يحرف الدين، تمامًا كما ثاروا على زينب رضوان في القاهرة، مع أن الثورة عادة لا تقتل الأفكار، والاجتهاد في الدين لا تميته حناجر الغوغاء.. ولحى الجهوريين.

بعضنا يحب النساء، حبهم للقناطير المقنطرة من الذهب والفضة؛ فيتناكحون.. حتى أرذل العمر، بحجة الامتثال لأحكام الله.. مع أن كلام الله.. لم يكن كذلك!

فالثابت فقهًا أن "الأمر الواجب شرعًا" هو الذي لا يترتب على قيامه "ضرر"، كما

لا ينبغي مع حدوثه "جبر".

و"الجبر" هو الفعل الذي يأتي بعد تصرف خطأ؛ لإصلاح الخطأ، وتدارك نتائجه السيئة، وهو ما يحدث بعد واقعة ما لتلافي آثار غير مرغوبة أدت إليها الحادثة.[73]

تصريح الإسلام للزوجة التي تزوج زوجها بأخرى بالطلاق هو في حقيقته "جبر" من الناحية الفقهية لزواج الزوج بأخرى، وقانونًا هو تعويض للزوجة عن الضرر الذي حدث.

فلو كان الأصل في الإسلام هو الرخصة الدائمة بزواج الزوج من أخرى في وجود زوجته؛ فإن زوجات المسلمين كن سوف يصبحن مأمورات بالصبر في هذه الحالة، لا بالاختيار بين الاستمرار في الحياة الزوجية أو الطلاق.

وعليه؛ فإنه ليس للرجل في العقيدة الصحيحة حق التعدد كأصل، والزواج بالمثنى والثلاث والرباع الذي قالت به الآية الكريمة كان "حكمًا فرعيًا" معلقًا على "ظرف"، لا يجوز الاعتداد بها في غياب هذا الظرف.

وإذا كان الآيات القرآنية المبيحة للتعدد ليست منسوخة، أو لم يلغِ حكمها آيات أخرى نزلت بعدها، وخالفتها؛ فهي في الوقت نفسه "معلقة".. ليست مطلقة لكل وقت ومكان.

وإذا كان التسري بالنساء لبعضنا متعة؛ فليس من الدين لي ذراع النص القرآني لتقنين رغبات بشرية كانت من هوى النفس، ولم تكن في مقصود الشارع، والأولى لصلاح الدين؛ التعاطي مع الاجتهادات الجديدة التي ترى كثيرًا من صور عصرية لا يراها الآخرون، أو على الأقل فحصها.. لاختبارها، لكن يبدو أنه لا أحد يريد أن يختبر أحدًا، ولا أن يعيد النظر في شيء.. بينما يختبرنا الله في أنفسنا!

73- محاضرات في الفقه الجنائي الإسلامي، الأستاذ الدكتور بهجت عتيبة، مبادئ الأحكام في الجنايات والحدود.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة التحريم

.. ولو غلطنا في البخاري!

(1)

روي عن أبي هريرة قال، قال رسول الله (ص): "من حمل جنازة فليتوضأ". فلم يأخذ بهذا الحديث ابن عباس وقال: لا يلزمنا حمل عيدان يابسة على الوضوء".

وروى أبو هريرة أيضًا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم قال:" إن استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يضعها في إناء.. فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده.".. فلم تأخذ بالحديث السيدة عائشة، وقالت إنها لم تسمع به، ولا تعرف من أين جاء.[1]

1- راجع تأويل مختلف الحديث. ومقدمة ابن الصلاح وتدريب الراوي: أسانيد الضعف فيما رُوي عن البخاري. هي: السري بن إسماعيل عن داوود بن يزيد الأودي عن أبيه.

وراجع فيما قسمه الحاكم في أجناس المعلل. ولخصها السيوطي في التدريب. كالحديث: عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: من جلس مجلسًا فكثر غلطه فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وب حمدك.....................) إلى آخر الحديث. فروى أن مسلمًا جاء إلى البخاري. وسأله عنه فقال: حديث مليح. إلا أنه معلول. رغم رواية أبي هريرة.

إذا أخذنا في الاعتبار أن السنة النبوية كما هي مروية في كتب الصحاح الستة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم للمسلمين. وأن العدد الأكبر من الأحاديث رواها الصحابي الجليل أبو هريرة: يصبح من نافلة القول أن أبا هريرة بعد رسولنا الكريم - صلوات الله عليه وسلم - هو أكثر من أثر على فهمنا الحالي للإسلام.. ولعله من هذا المنطلق: أكثر تأثيرًا من صحابة رسول الله الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.. فالأحاديث المروية عنهم أقل كثيرًا وتعد علي أصابع اليد الواحدة.. إذ أجمع رجال الحديث على أن أبا هريرة كان أكثر الصحابة حديثًا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله). في حين أنه لم يصاحب النبي (صلى الله عليه وآله) إلا عامًا وتسعة أشهر - أو ثلاثة أعوام حسب بعض الروايات. وقد احتوت صحاح أهل السنة على 5374 حديثًا لأبي هريرة روى منها البخاري 446 حديثًا.

وأبو هريرة هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي. اسمه في الجاهلية عبد شمس: فسماه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عبد الرحمن، وقيل سماه عامرًا وغلب عليه لقب (أبو هريرة) وقد لقبه به النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه رآه يحمل هريرة في كمه.

أسلم عام خيبر سنة 7هـ وشهد فتح خيبر مع الرسول - صلى الله عليه وسلم. لزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وواظب عليه رغبة في العلم، راضيًا بشبع بطنه، وكان يدور مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث دار، وكان يفتي في الناس. ويحدث في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم. ويتولى الإمارة. فقد وُلي إمارة البحرين لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه. ثم نزعه عنها. ولما عاد سأله عمر: كيف وجدت الإمارة يا أبا هريرة؟ قال: بعثتني وأنا كاره. ونزعتني وقد أحببتها.

والغريب.. رغم رواية أبي هريرة الحديث عن النبي (ص): أنه هو نفسه الذي روي أحاديث تمنع تدوين الأحاديث. فقد روى عن أبي هريرة. عن النبي أنه قال: "ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتم. إنما أنا بشر: فمن كان عنده شيء منها فليأت بها. يكمل أبو هريرة. فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه في النار".

وفي صحيح مسلم (ج 18، ص 229) أن النبي قال: "لا تكتبوا عني غير القرآن. ومن كتب عني غير القرآن فليمحه".

وصعد الخليفة عمر بن الخطاب المنبر. وقال: "أيها الناس. بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب. فأحبها إلي أحسنها وأقومها. فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتاني به فأرى رأيي فيه: فظن الناس الذين كتبوا عن رسول الله أنه يريد أن ينظر بها. فأتوه

الفوضى في الأحاديث المنسوبة للنبي روعت الكثير من العلماء، تمامًا كما روعت الصحابة، وهي الفوضى التي زادت من مطالبات المطالبين بإعادة فحص كامل أسانيد السنة، من دون الاكتفاء بفحص بالكتب المشهورة كالبخاري ومسلم وأحمد والترمذي.

كانت رغبة في إعادة البناء، ولم تكن رغبة في الهدم.. وكانت محاولة لاتقاء ما قد يكون قد وقع فيه المسلمون.. ولم يسعفهم الوقت لأن يتداركوه، ويعيدوا الفصل فيه.

تدارك الخطأ أيضًا كان في فتح ملفات متون كثير من الأحاديث النبوية، من دون

بكتبهم. فجمعها وأحرقها. ثم قال: أمنية عندي كأمنية أهل الكتاب". ثم كتب إلى عماله في الأمصار قائلًا: من كان عنده من السنة شيء فليتلفه (ابن حزم: الإحكام. ج2. ص 139).

وهدده عمر بن الخطاب أبا هريرة بالعقوبة لو عاد للحديث عن النبي. ولما مات الخليفة عمر: تحرر أبو هريرة من قيوده. وعاد يحدث من جديد في قصر أمير الشام والخليفة فيما بعد معاوية بن أبي سفيان (الذهبي: تذكرة الحفاظ. ص 7). واتهام أبي هريرة بالكذب جاء حتى من الأوساط السنية المعروفة بولعها برواية الحديث وتعظيمها له. كما يتبين من وصف أحد كبار الحنابلة: "لم يكن من فقهاء الصحابة. وقد أنكر عليه عمر بن الخطاب أشياء" (الجوزي: مرآة الزمان. ج1. ص23). وقد اتهمه عمر بن الخطاب ليس بالكذب فحسب: بل وبسرقة مال المسلمين عندما ولاه البحرين.

وقد روى مسلم في صحيحه أن عمر بن الخطاب ضرب أبا هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة". وروى ابن عبد البر عن أبي هريرة نفسه قال: لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدرة (صحيح مسلم ج 1. ص 201. باب من شهد لا إله إلا الله مستيقنًا دخل الجنة - فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص 41 ط السادسة).

وأما سبب كثرة مصاحبة أبي هريرة للرسول (صلى الله عليه وآله). فقد أجاب هو نفسه عن ذلك عندما قال: "يقولون أن أبا هريرة يكثر والله الموعد. ويقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه؟ وإن أخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق. وإن أخوتي من الأنصا، كان يشغلهم عمل أموالهم. وكنت امرأ مسكينًا ألزم رسول الله (صلى الله عليه وآله) على ملء بطني. فأحضر حين يغيبون. وأعي حين ينسون". (صحيح البخاري ج 3 ص 313 كتاب المزارعة باب ما جاء في الفرس).

وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني. وكان أخير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب. كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته. حتى أن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء فنشقها فنلعق ما فيها" (صحيح البخاري ج 5 ص 47 كتاب فضائل الصحابة باب مناقب جعفر بن أبي طالب).

ويدل ما أثر عنه من فعل وقول أنه كان رجلًا محبًّا للمال وذاخرًا له. فعن ابن المسيب. قال: كان أبو هريرة إذا أعطاه معاوية سكت. وإذا أمسك عنه تكلّم. وروى إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة: أنّ عمر قال لأبي هريرة: كيف وجدت الإمارة؟ فقال: بعثتني وأنا كاره. و نزعتني وقد أحببتها. كان قد أتاه بأربعمائة ألف من البحرين: فسأله عمر: ما جئت به لنفسك؟ فرد أبو هريرة: عشرين ألفًا.

فقال عمر: من أين أصبتها ؟ قال أبو هريرة: كنت أتّجر فقال عمر: أنظر إلى رأس مالك ورزقك فخذه. واجعل الآخر في بيت المال.

وشهر عن أبي هريرة روايته أحاديث نبوية. في موضوعات غريبة منها: ما رواه عن النبي في محاولة عفريت من الجن قطع صلاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). ووجوب الجهاد تحت راية كلّ بر وفاجر. وقبول التوبة مع عدم الندم. ومن هو خالق الله؟ وأنّ الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعًا.. ما رواه عن أن سليمان يطوف على ستين امرأة في ليلة واحدة. وموسى يفقأ عين ملك الموت. وما رواه عن رؤية الله بالعين الباصرة. لا تملأ النار حتى يضع الرب رجله فيها. نزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا. نقض سليمان حكم أبيه داود. ظهور موسى عريانًا أمام الملأ. اتهام أولي العزم من الأنبياء بالعصيان. شك الأنبياء وتفضيل يوسف على النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). نبي من الأنبياء يحرق قرية النمل. أيوب يحثي رجل جراد من ذهب في ثوبه. النبي يؤذي ويجلد ويسب ويلعن من لا يستحق. وينسب إلى أبي هريرة التلاعب بحديث بدء الدعوة. وأمة مسخت فأرًا. وما روي من رفض أبي طالب النطق بالشهادتين عند الموت. وما رواه عن مخاصمة إبراهيم ربّه. وما رواه وأخرجه البخاري من حديث إذا وقع في إناء أحدكم ذبابة.

التوقف أمام ما تم مراجعته من أسانيد؛ لأن أحاديث كثيرة كانت صحيحة السند، بينما خالفت متونها صحيح العقل، مثل حديث "إرضاع الكبير"، وحديث "أين تذهب الشمس"، وقصة "جذع الشجرة" الذي بكى عندما كف النبي (ص) عن الاستناد إليه في خطبته بمسجد المدينة.

المتن هو منطوق الحديث، بينما الإسناد هو "الطريق المؤدي إلى المتن"، أو هو مجموعة الرواة الذين انتقل على ألسنتهم متن الحديث، بحيث يكون سمع أولهم من النبي، ونقل آخرهم عن الذين سمعوا من الأول، مع تحقق مجموعة من الاحتياطات، بالاطمئنان لغياب شروط "الجرح"، وتوافر شروط "التعديل".[2]

تفحص علوم "الجرح والتعديل" انتقال الحديث من الراوي إلى الراوي حتى الوصول بنهاية الإسناد إلى الرسول، ويطلّع "الجرح والتعديل" على أحوال الرجال، وسمعتهم، وسيرتهم، قبل فحص الرواية نفسها، وطريقة انتقالها، مع التأكد من معاصرة الراوي للراوي، وإمكانية تقابلهما في الزمان والمكان.

فبعد نحو 250 عامًا من وفاة النبي فسدت الذمم، وبارت الضمائر، وقتها.. زاد التشدد في طرق التأكد من صحة الحديث النبوي، وربما كان هذا العصر البداية الحقيقية لمحاولات الرواة التدقيق في الذي نسب للنبي، وتصاعد الريبة في المنقول عنه (ص) إلى درجة لم يكن متعارفًا عليها من قبل.

حتمت الظروف على المسلمين، بعد أكثر من مئتي عام من وفاة النبي إعادة النظر فيما نقل إليهم عنه (ص)، بعدما تبينوا وشهدوا ما أحدثته السنن المكذوبة من إراقة دماء، وبلبلة في العقيدة، وبعدما تيقنوا إلى ما يمكن أن يؤدي إليه كلام لا قاله النبي، ولا عرفه الصحابة، لكن يبدو أنهم لما شرعوا في التأكد.. كان الوقت قد فات؟!

روى ابن سيرين أنه قال: "لم يكن أغلب العلماء يسأل عن الإسناد فيما شهر عن النبي (ص) من حديث وقول، حتى وقعت الفتنة؛ فخرجت السيدة عائشة مع الزبير بن

2- تعديل وجرح راوي الحديث، هو الأخذ بروايته، إن عدل، وعدم قبولها إن وصف بما يقتضي معه عدم قبول روايته. راجع الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم (قواعد أصول الحديث) ص199، وما بعدها.

العوام وطلحة بن عبيد الله لقتال على بن أبي طالب (رض)".[3]

وقتها ظهرت فجأة الأحاديث النبوية في فضل علي، وأحاديث أخرى ضد على وآل علي، ولعبت السياسة دورًا لم يكن معروفًا من قبل؛ فاستغلت سنة النبي في تأييد رءوس المسلمين في حروبهم ضد بعضهم.

الملاحظة الثانية: أنه لما بدأت علوم "الجرح" و"التعديل" في العمل وفق ضوابطها، فجرحت بعض تابعي التابعين، وعدلت البعض الآخر، تعمد أغلب المشتغلين بدراسة الحديث إلى عدم فحص أسانيد الجيل الأول والثاني من الصحابة بالكامل؛ فلم يخضعوا ما قيل إنهم رووه للدراسة، وأكدوا صحته، لافتراض عدم تواطؤ صحابة رسول الله على الكذب، وبعدهم عن النسيان.. وسوء الحفظ!!

لأسباب كثيرة - لم يكن كثير منها منطقيًا - لم يفحص بعض علماء الحديث ما رواه بعض جيل التابعين أيضًا. ربما لذلك ظلت أقوال التابعين (الجيل الثاني بعد الصحابة) مصدقة من دون فحص، ومسلم بها من دون نقض.. وهو خطأ لم يستطع كثير من الدارسين المحدثين تجاهل أثره على الذي وصلنا من السنة.

رفض السلفيون فحص أسانيد الصحابة وجيل التابعين، رغم أن الصحابة أنفسهم عدلوا وجرحوا بعضهم بعضًا، وانتقدوا آخرين، ووصموا بعضهم بالنسيان والخطأ، وأنزل بعضهم بعضًا الآخر منزلة أقل من آخرين.

فرفض عمر بن الخطاب بعض أحاديث أبي هريرة، كما فعل الكثير من الصحابة، ولم تأخذ السيدة عائشة (رض) بأحاديث أبي هريرة هي الأخرى، كما لم يأخذ عمر (رض) بحديث فاطمة بنت قيس.[4]

وفي عصر ما بعد الصحابة؛ جرح أهل السنة كثيرًا من الشيعة، حتى قال بعض علماء السنة إنه لا تجوز رواية ما رواه أصحاب علي بن أبي طالب وشيعته عنه!!

وتبادل الشيعة الأمر نفسه مع السنة؛ فجَرح كثيرًا من علمائهم ما رواه السنة عن أبي

3- كما ورد في صحيح مسلم.

4- قواعد أصول الحديث. مرجع سابق.

بكر وعمر وعلي (رضي الله عنهم)، والنتيجة فتنة، دخلتها السياسة ولعبت بها الأهواء، فما عدله السنة جرحه الشيعة، وما عدله الشيعة قبحه السنة.

لذلك؛ ظلت السنة النبوية بما دخل عليها قنبلة موقوتة، أدت إلى تزايد مطالبات بعض الباحثين المستنيرين بعدم الاعتداد بالحديث النبوي في "الأحكام" و"العقائد"، و"الاسترشاد" بها فقط من دون إلزام.

قال الإمام الذهبي: "لم يجتمع اثنان من العلماء على توثيق حديث ضعيف، ولا على تضعيف رجل ثقة من رواة الحديث"، ودلل الكثير من الدارسين على كلام الذهبي ورأيه في السنة بسيرة محمد بن إسحاق.

فرغم تصنيف ابن إسحاق على أنه المؤرخ الأكبر لحوادث الإسلام الأولى؛ فإن هذا لم يمنع تباين الآراء فيه بصورة لا تبعث فقط على الريبة؛ إنما تؤدي بالضرورة لعدم التصديق الكامل فيه.. وفي قصصه.

فقد قال قتادة في ابن إسحاق: "لا يزال الناس على علم ما دام فيهم محمد بن إسحاق"، ووصفه النسائي بأنه "ليس بالقوي".. وقال عنه سفيان الثوري: "ما سمعت أحدًا يتهم محمد بن إسحاق"، بينما قال الدارقطني "لا يُحتج به ولا بأبيه".. وقال الإمام مالك: "أشهد أنه كذاب"!!

ملاحظة أخرى؛ دخلت على مراحل جرح وتعديل الحديث النبوي، فالذي فعله معظم رجال الحديث أنهم رجحوا بعض الرواة على البعض الآخر، وبعض الروايات على روايات أخرى.. بينما الذي جرحه الدارسون أخذ به العامة، والذي أباحه أهل الحديث اختلط بالذي منعوه لدى بسطاء المسلمين.

"صحيح البخاري" مثلًا رجحه رجال الحديث على "صحيح مسلم"، وعلى كتاب الموطأ للإمام مالك، وعلى مسند ابن حنبل، لكن هذا لم يمنع المسلمين من الاعتقاد في أحاديث كل هذه الكتب بأسانيدها، ومتونها المختلفة.

فقد رجحوا كتاب "البخاري" على كتاب "مسلم" على أساس "عدالة الرواة وإتقان الرواية".

فقد انفرد البخاري عن مسلم بنقل الحديث عن 400 رجل، وصف العلماء 80 منهم بضعف الرواية ، أو شككوا في قدرتهم وأهليتهم لإخراج الحديث.

بينما انفرد مسلم بالنقل عن 620 رجلًا، شكك العلماء في أسانيد 160 منهم، لذلك؛ قالوا إن "اعتبار الحديث عمن لم يتكلم فيهم بالضعف، أولى من التخريج عمن تكلم فيهم.. وإلا لم يكن الكلام قادحًا"!!

المعنى أن الكتاب الذي شاب "الشك" أقل عدد من رجال أسانيده، أقوى من الذي لحق الشك عددًا أكبر من رجاله.[5]

المعنى أيضاً أن البخاري أقوى من مسلم، وصحيحه مقدم على صحيح تلميذه، لكن ترجيح البخاري على مسلم، والمقارنة بين رجالهما لم يحل الإشكال.

فقهًا؛ "الحديث الصحيح" هو: "المنقول من العدل الضابط إلى العدل الضابط من أول الإسناد إلى منتهاه بلا علة ولا شذوذ".

المقصود بالعدل الضابط هو الراوي الثقة، الذي لم يظهر من سيرته سلوك يخالف شرع، ولا يطعن في عرف، للحد الذي اعتبر البعض أن "التبول في الطريق العام، أو قطعه بجلسات السمر" من الأفعال التي يتم بها جرح سيرة الراوي، فلا تعتبر الرواية عنه صحيحة.[6]

أما المقصود بـ "العلة" في تعريف الحديث الصحيح؛ فهو مخالفة متن الحديث للعقل، أو عدم معقولية الزمان أو المكان لعدم التقاء رجال السند بعضهم بعضًا بحيث يروي الصحابي، ويسمع منه السامع.

أما "الشذوذ" المقصود في تعريف الحديث؛ فهو أن يوافق فقيهًا على حديث، يرفضه من هو أفقه منه، أو أن يروي تابع عن صحابي، بينما لم يروِ الحديث نفسه من هو أولى منه.. وأعظم قدرًا.[7]

5- المرجع السابق.

6- عدالة الرواية. الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم. وراجع الحافظ بن حجر في مراتب التعديل والجرح.

7- حسب الإمام الشافعي. فالشاذ. هو ما رواه المقبول مخالفًا لرواية من هو أولى منه. لا أن يروي ما لا يروي غيره. فالأصل أن مطلق التفرد لا يجعل المروي شاذًا ـ كما قيل. فالرواية المرجوحة هي التي تسمى بالشاذ. أما الرواية الراجحة للحديث: فهي التي تسمى بالمحفوظة. ويقع الشذوذ في الإسناد. ويقع في المتن أيضًا.

تضعيف 80 من رجال البخاري "علة"، أو سبب تسقط به أسانيد الأحاديث و متونها، ففساد الإسناد ينسحب على متن الحديث، والعكس صحيح.

فلو كان المتن مخالفًا للمنطق، بينما كان الرواة ثقة؛ فالحديث مكذوب، لم يقله النبي، أو "موضوع" ككثير من القصص الأدبية الشعبية التي ضمت إلى السيرة النبوية، حتى سارت بعد فترة من "السنن" المشهورة.

رجال أسانيد البخاري المشكوك فيه موزعون على معظم أحاديث كتابه. بمعنى أن الشك في 80 رجلًا في صحيح البخاري، لا يطعن في 80 حديثًا فقط، إنما يطعن في كل حديث ورد في إسناده واحد من هؤلاء، سواء في أول السند، أو منتصفه أو آخره.[8]

والقول بضعف رواية فلان؛ يسقط السند الذي ورد فيه فلان هذا من الأساس، وبالتالي يبطل صحة الحديث كاملًا، بينما يبطل جميع الأحاديث التي ورد في سندها اسم فلان، أو على الأقل يدخل الحديث دائرة الشك.. والاحتياط أيضًا.

ليس هذا طعنًا في الإمام البخاري ذاته؛ إنما هي ملاحظات على منهجه، لا قذف في نيته، فالقاعدة الفقهية أن: "ما يتطرق إليه الاحتمال يسقط عنه الاستدلال"، وإذا تسرب الشك للجزء، تسرب للكل، إلى حين التيقن من "كمال" الكل.

البعض يعتبر أن تقليل البخاري تخريج الأحاديث عن الرجال الذين لحق برواياتهم الشك دليل على "الصحة المطلقة" لكتابه، ما يدخل متون هذه الأحاديث، والأحكام المترتبة على هذه الروايات مجال المعلوم من الدين بالضرورة!!

لكن أحدًا لم يلاحظ أن إقلال البخاري في الرواية عن "الضعاف" ميزة تضاف

8- حجة الله البالغة. ولي الله الدهلوي. باب طبقات الحديث. وكتاب هدى الساري. ص10. وراجع الدكتور أحمد عمر هاشم. قواعد أصول الحديث. معهد الدراسات الإسلامية. من ص 66 وما بعدها. وفيه: "وأما ما يتعلق بإتقان الرجال. فقد رجح كتاب البخاري عن كتاب مسلم. من جانب إتقان الرجال بأمور مهمة. أولًا: أن الذين انفرد البخاري بالإخراج لهم. أربعمائة وبضعة رجال. المتكلم فيهم بالضعف ثمانون رجلًا. والذين انفرد مسلم بالإخراج عنهم دون البخاري. ستمائة وعشرون رجلًا. والمتكلم فيه بالضعف منهم مائة وستون رجلًا. والتخريج عمن لم يتكلم فيه أصلًا. أولى من التخريج عمن تكلم فيه. وإلا لم يكن الكلام قادحًا".

وفيه أيضًا: "أن الإمام البخاري لم يكثر من التخريج عمن انفرد بهم ممن حصل فيهم كلام (المعنى أنه فعل بالقليل) بخلاف الإمام مسلم. فقد أخرج كثيرًا. كأبي الزبير عن جابر. وسهيل عن أبيه. وعلاء بن عبد الرحمن عن أبيه. وحماد بن سلمة عن ثابت وغيرهم".

إلى جهده في طريقة جمع الحديث، لكنها لا يمكن أن تكون قرينة على "كمال" كتابه و"جلاء" عمله.. مقارنة بكتاب الله!!

نضيف إلى هذا ما نقله لنا التاريخ من وقائع "اللعب"، ومعارك العبث، بسوء نية أحيانًا.. وبنيات شديدة النقاء كثيرًا في الحديث النبوي.

ففي كتابه "المفهم" قال الإمام القرطبي؛ إن بعض الفقهاء استجازوا نسبة رأي دل عليه القياس الجلي إلى الرسول (ص) رغم أنه لم يقله؛ فيقولون قال رسول الله كذا وكذا.. ويضيفون للحديث إسنادًا سليمًا، بمتون من عندهم، في الوقت الذي كان رجال الحديث في العصر نفسه يعتبرون صحة الإسناد وحده كفيلًا بتأكيد صحة ما نسب للنبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير!![9]

المعنى أن كثيرًا من متون الأحاديث التي وضعها الرجال من عندهم، بتفاصيل من عندهم أيضًا؛ وصلت إلينا، بأسانيد صحيحة.. فاعتمدناها نحن، لا قبولًا بالمتن؛ إنما إيمانٌ بالسند.

9- المفهم في شرح صحيح مسلم. للإمام القرطبي.

كارثة!!

الكارثة الأكبر ما جاء في كتاب "اختصار علوم الحديث" للحافظ، فقد أقر ميسرة بن عبد ربه أنه وضع أحاديث في فضائل القرآن، وأنه وضع في علي بن أبي طالب سبعين حديثًا.

وأقر عصمة بن نوح الجامع.. أنه أضاف إلى أسانيد ابن عباس أحاديث في فضائل سور القرآن لم يقلها ابن عباس![10]

ولما أضاف أهل الفقه في عصور الإسلام المختلفة ـ بحسن نية ـ آراء شرعية على لسان أصحاب الأسانيد، ركب على ظهر التراث "أحاديث غير صحيحة"، وأسانيد غير موثقة.

كارثة أخرى!!

لذلك؛ لما ولد الإمام البخاري بعد نحو 194 سنة من هجرة النبي، كان من الطبيعي أن يدخل ضمن ما رواه من أحاديث، أسانيد "مرفوعة" بـ"متون موضوعة".

"المرفوع" من الحديث هو "المنقول" الذي ينتهي إسناده إلى النبي (ص). و"الموضوع" هو ما أضيف للنبي من دون أن يقوله (ص).

فقد بدأ البخاري في جمع الحديث وتدوينه بعد 200 عام من وفاة النبي (ص)، بينما بدأ تلميذه "مسلم" بعد وفاة النبي بـ230 عامًا.[11]

لعبت النوايا الحسنة بالأسانيد، كما لعبت السياسة، والفروق المذهبية، والنزعات القبلية، بالذمم والضمائر.. وبـ"السنة المطهرة"! حتى بدا أن اللعب بالسنة ظاهرة معتادة لدى المسلمين.

10- راجع اختصار علوم الحديث، للحافظ بن كثير، ص 67 وما بعدها.

11- ولد البخاري صاحب "الصحيح" عام 194 هـ وولد تلميذه مسلم عام 206 هـ بينما ولد الترمذي ما بين 209 و210 هـ وولد النسائي عام 215 هـ بينما ولد أبو داوود عام 202 هـ وولد الإمام ابن ماجه عام 209 هـ بينما ولد الدرامي ما بين 250 و255 هـ وراجع أيضًا، حقيقة الحجاب وحجية الحديث للمستشار العشماوي، وفي فجر الإسلام لأحمد أمين جاء فيه: "وقيل إن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد أمر بجمع الحديث في العصر الأموي، لكن أمره لم ينفذ، فبقيت الأحاديث من دون أن تجمع حتى العصر العباسي.

ففي القرن السادس الهجري، ظهر "قصاصو السيرة" في المغرب ومصر والسودان واليمن والشام.

روى القصاصون السيرة النبوية بما دخل عليها من أحداث ليست صحيحة بحسن نية هم الآخرون، وانتشرت هذه القصص بين المسلمين من دون أن ينتبه أحد للذي يحدث، ومن دون أن يخرج من الأئمة من يعلن الحرب على روايات "القصاصين" لتنقية السيرة النبوية مما ركب على التراث من "تهويمات" غير حقيقية، ووقائع غير صحيحة.. لحقت بشخص النبي نفسه (ص).

فقد رسم القصاصون صورة للنبي (ص)، بعيدة عن الصورة التي رسمها له القرآن، أضافوا لمسات من "القداسة" على شخصه (ص) شيئًا فشيئًا، وهي "القداسة" نفسها التي ألحقت بأشخاص وأقوال الصحابة والتابعين و"السلف الصالح" فيما بعد.

وحذر ابن خلدون من "القصص الواهية التي لحقت بالسيرة النبوية" على يد القصاصين، وطعن ابن تيمية في كثير، مما اختلقوه من أحاديث ووقائع نسبوها للرسول (ص).

لكن بدخول القرن الـ 8 الهجري؛ كان "القصاصون" قد صنعوا "سيرة نبوية شعبية"، حكوها في مصر واليمن والمغرب بالطريقة نفسها التي حكوا بها فيما بعد سير أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة في القرى والنجوع.

وتحولت "السيرة النبوية الشعبية" إلى "سنة" بتسليم كامل؛ ما دفع الإمام جلال الدين السيوطي إلى تأليف كتابه "تحذير الخواص من أكاذيب القصاص".

لكن عوام المسلمين كانو قد قدسوا "أخبار القصاصين"، كما قدسوا صحيح البخاري، واعتبروه "السنة النبوية"، ليس كتابًا يحوي "بعض ما قيل إنه نقل عن النبي (ص)".

وقتها كانت عصور استغلال "السنة النبوية" قد استحكمت؛ فوقع الحديث النبوي، وسيرته (ص).. بين مطرقة السياسة.. وسندان القصاصين.. والسير الشعبية التي تناقلها العوام.. بتسليم كامل.

وكتب ابن كثير أن المسلمين على المذاهب المختلفة استخدموا ما اعتقدوا أنه

"حديث نبوي" للطعن في الفرق الإسلامية الأخرى.. حتى وصل الأمر للتكفير والرمي بـ"الزندقة"![12]

كان اكتشاف انجرار السنة النبوية لمستنقع السياسة صدفة، ولو أن هناك ما تم اكتشافه، فالأكيد أن هناك ما لم يظهر.

مثلًا؛ قال حماد بن زيد: "وضعت الزنادقة على رسول الله 14 ألف حديث". أما ابن سمعان الهندي فقتله خالد بن عبد الله القسري لاكتشافه وضع الأحاديث على الرسول.

وقال حماد بن سلمة "أخبرني شيخ من الرافضة أنهم كانوا يجتمعون على وضع أحاديث لم يقلها الرسول (ص)".

و"الرافضة" هي إحدى الفرق الإسلامية.[13]

12- اختصار علوم الحديث. للحافظ بن كثير. مرجع سابق.

13- الباحث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث. ابن كثير. أحمد شاكر الطبعة الثالثة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً (٣٨)

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة الأحزاب

فريضة"الخناجر"..
وإسلام"السيوف"

(1)

لم تكن السنة النبوية محصنة بالعرب كما اعتقد غالبية المسلمين، فمعظم رواة الحديث "الثقات" كانوا فرسًا وهنودًا وكازاخ ويشتون.. ليسوا عربًا، لكن العرب لم يملكوا شجاعة الاعتراف بهذا منذ الدولة الأموية.

فبعد وفاة سيبويه "أبو بشر بن عثمان"، الذي ضبط اللغة العربية وصنف النحو، ورتب الفعل والفاعل والمفعول به؛ انفجر الاختلاف حول معنى اسمه. العرب قالوا "سيبويه" لفظ عربي له أكثر من معنى، ولم يكن هذا صحيحًا.

فقد حكى "سيبويه" نفسه قصة تدليل أمه له، وتعمدها مراقصته على عادة أشراف الفرس، لذلك "دلعوه" باسمه الذي يعنى بالفارسية "رائحة التفاح".

وجد سيبويه كان "مجوسيًا" من "اصطخر" الإيرانية، مثل جد "البخاري" "أبو عبد الله محمد بن بردزبه"، و"برد زبه" في لغة أهل "بخارة" بأسيا الوسطى تعنى "الفلاح".[1]

أجداد البخاري كانوا فرسًا مجوسًا هم الآخرون، جده الثالث خدم "هيكل النار"، قبل أن يدخل جده الأول الإسلام على يد "اليمان البلخي" والي "بخارة".

ولما مات "البخاري" تنازعه العرب والفرس أيضًا.

قال العرب إن البخاري ليس فارسيًا، ورد الفرس في صراعهم مع العرب فخرًا بأن منهم من ختم العرب على كتابه أنه الأصح بعد "كتاب الله"، حتى إن سيرة البخاري نفسه، في الصراع بين العرب والفرس؛ عرفت التهويمات والخرافات التي دخلت على شخصه هو الآخر.

1- سيرة البخاري. والطبقات لابن سعد. وما جاء عن سيبويه أيضًا.

ففي "التراث" ولد البخاري أعمى، إلا أن حزن أمه وبكاءها المستمر حسرة عليه أظهر لها النبي "إبراهيم" (عليه السلام) مبشرًا بأن الله قد رد على ابنها بصره لبكائها.. ولمكانته!![2]

كانت قصة فارسية، صدقها العرب.. وسجلها رواة الحديث الذين "هاموا" بالبخاري وتلميذه "مسلم" حفيد المجوس هو الآخر!!

بشارة "رد البصر للأعمى" تراث فارسي، بدءًا من "النبي ميثرا نبي عبدة النار"، وانتهاء بكسرى "يزدجرد" آخر أكاسرة الفرس.

البشارة نفسها لحقت بالإمام الترمذي أيضًا.. وصدقها العرب هي الأخرى.

ففي الصراع العربي ـ الفارسي، استغل الفرس كمًا هائلًا من رواة الحديث من أبناء قوميتهم؛ فقدسوهم، وأضافوا إلى سيرهم الشخصية كثيرًا من الأساطير التي سمح بها تراث بلاد فارس، وشرب العرب منهم.[3]

حارب الفرس العرب بالبخاري وبمسلم وبالترمذي وبالفارابي وبابن سينا والشيرازي والدهلوي والسهروردي والشهرستاني.. وطعن العرب في الفرس بهؤلاء أيضًا!![4]

الإمام "الترمذي" هو أبو عيسى بن السلمي، ولد بـ"ترمذ"، قرب "نياسبور" الفارسية مسقط رأس الإمام "مسلم"، وفي سيرته أصابه العمى هو الآخر قبل مماته، لكن رد إليه بصره، وسلم العرب بقداسته مثلما سلموا بقداسة جميع رجال الحديث؛ وهو ما لم يتح ولو فرصة ضئيلة لبحث ما أشيع عن حياتهم، أو سيرهم الذاتية.[5]

2- المرجع السابق، وسيرة البخاري.

3- راجع في الموضوع، التنشئة السياسية، للجماعات الصوفية في مصر، الدكتور عمار علي حسن، ص 91. وفي الموضوع (حديث بالعودة للموروث التاريخي) أيضًا، أنماط التدين في مصر، مدخل لفهم التفكير الشعبي حول الدين، في إشكاليات التكوين الاجتماعي والفكريات الشعبية في مصر، بحوث ومناقشات مهداة إلى أحمد صادق سعد، مايو 1990 (مركز البحوث العربية، القاهرة).

4- يظهر هذا في رسائل أبي بكر الرازي، وكتاب الزمردة لابن الراوندي، إضافة للوارد في كتب الأثر عن الصراع حول نسب سيبويه والبخاري بين العرب والفرس.

5- سيرة الترمذي، مصادر متعددة.

لما حيّر علماء الحملة الفرنسية في مصر سر توسل المسلمين لله بالبخاري، واستغربوا سطوة الرجل الذي نقل ما قاله النبي، فتفوق على الكتاب الذي أنزله رب النبي، لم يجدوا تفسيرًا.

بحثوا في التراث، وناقشوا المشايخ، ولم ينجحوا في التوصل لسر مكانة الإمام البخاري غير المبررة لدى المصريين مقارنة بالقرآن الكريم، حتى خرجت الحملة الفرنسية من مصر.

لاحظ الفرنسيون تأكيد التراث المصري أن الذي أتى خطأً عظيمًا كالذي "غلط في البخاري"، واكتشف علماء الحملة أن أعيان المصريين وضعوا - صحيح البخاري - في مداخل بيوتهم مفتوحًا إلى جوار كتاب الله، وحرموا صور الإمام البخاري التي رسمها الفرس والهنود، كما حرموا تصوير الأنبياء والصحابة.

وكما أهل المدينة، رفض المصريون - حبًا في البخاري - الأخذ بوجهة نظر الإمام الشافعي في أحاديث البخاري.

كان في أحاديث صحيح البخاري كلام، وفي حجيته مجال للنقاش، إلا أن المصريين كان قد أصابهم "مس البخاري"، بعدما ضربهم "مس السلفية"!

"السنة" في اللغة هي العادة، وفي الاصطلاح هي عادات النبي (ص) وسلوك صحابته (رض).

فحص عادات الأولين أو التيقن من حدوثها ليس خطأً، فعادات الأولين ليست من العقيدة، وتصورات الأولين عن العقيدة.. ليست هي الدين.

عدم التيقن من ثبوت أقوال النبي له (ص) هو الذي دعا الإمام الشافعي إلى إنكار الكثير مما قيل إنه حديث، ورفض الأخذ بهم فيما يتعلق بشئون العقيدة، رغم إجازته "الاستئناس" بها و"الاسترشاد" في حدود ضيقة.

فلدى الشافعي أن العمل بالحديث "غير المسند" أو المشكوك بمتنه في شئون الدنيا

خطير، رغم أن العمل بالحديث غير اليقيني في شئون العبادات ليس له نفس الأثر.[6]

فالعبادات "توقيفية"، غير قابلة للاجتهاد؛ بينما العقيدة والمعاملات "اجتهادية".. لا توقيف فيها.

ماذا يعني هذا؟

يعني أن بحث المسلم في سبب عدد ركعات صلاة الصبح غير مجدٍ، ولا مفيد، وأن الخطأ في عدد ركعات صلاة الصبح، بزيادة عددها أو بنقصانها، لجهل أو نسيان، ليس له نفس أثر الإخلال بأحكام حقوق الزوجة في الطلاق، أو حقوق اليتامى في الميراث.

الخطأ في العبادات، أقل أثرًا على المجتمعات المسلمة من الخطأ في أحكام المعاملات، فالعبادات حقوق الله، بينما المعاملات حقوق العباد.

حقوق الله هي محل عفوه سبحانه لو أخطأ المسلم فيها، لكن الله نفسه أوجب القصاص في الاعتداء على حقوق العباد.

فالله يعفوا عن المخطئ في حقوقه تعالى؛ ليتوب على من تاب، بينما لا يتوب سبحانه عن خطأ المسلم في حقوق المسلمين، إلا أن تعود الحقوق لأصحابها، أو أن يعفو صاحب الحق.

ثم إن أثر فساد الاجتهاد في أحكام العبادات، أقل ضررًا من أثر الاجتهاد الفاسد في المعاملات.

ففساد الاجتهاد في المعاملات يترتب عليه ضياع حقوق العباد، وفساد المجتمعات، واضطرابها.. وبالتالي خلل النظام ببلاد المسلمين، لكن فساد الاستدلال في العبادات.. لا ضرر فيه ولا في نتائجه.. فالله يعفو في حقوقه.

لذلك يرى الشافعي أن "توقف العقل أمام طقوس العبادة هو القاعدة"، فتؤخذ الأوامر في أحكام العبادات على علّاتها، بلا إعمال للعقل، ولا استفسار عن السبب.

6- راجع اختصار علوم الحديث. لابن كثير.

فاتّباع المنقول عن النبي (ص) فيما يتعلق بمناسك الحج والوضوء وطقوس الصلاة جائز، حتى لو كان المنقول عنه (ص) ضعيفًا؛ لأن أثر العمل بالحديث الضعيف في العقائد، أخف من العمل بالحديث الضعيف في أمور الدنيا.

سنة النبي (ص) في العبادات بلا سبب، وعدد ركعات صلاة المغرب ليست لها علة واضحة يمكن كشفها، في حين أن اجتهاداته (ص) في شئون الدنيا، وتأويلات أبي بكر (رض) للقرآن كانت علتها مصلحة المسلمين، وهو ما يجوز الاجتهاد بعده إذا تغيرت الظروف، واتسعت المجتمعات، وتعقدت تراكيبها.

المعنى أن باب الاجتهاد يجب أن يظل مفتوحًا، وأن يظل رأي أبي بكر (رض) في أمور الدنيا، وتفسير الدين اجتهادًا، يجوز للمسلمين العدول عنه، أو الإضافة إليه لو اقتضت الظروف.

ويجوز أن يرى المسلمون المصلحة فيما لم يره أبو بكر قبل 14 قرنًا، وقتها لا يمكن اعتبار مخالفة المسلمين لأبي بكر(رض) في اجتهاده خروجًا عن الدين!!

عام 2009 قالت د. فوزية العشماوي هذا الكلام في مؤتمرًا أزهريًا عقد بالقاهرة، وكأنها قلبت الدنيا على رءوس المشايخ، الذين ردوا على ما اعتبروه اعتداءً شخصيًا بأشد بأسًا وأشد تنكيلًا.

قدمت د. فوزية بحثًا يهدم كثيرًا من "النظريات التراثية" التي يراها مشايخ السلف شرعة ومنهاجًا في التعامل مع النص الديني، واجتهادات الأولين، قالت د. فوزية مثلًا: إنه لا حد للردة في الإسلام، وإنه لا يجوز قتل المرتد، ولما طالبها المشايخ بإعادة قراءة التراث، قالت إن التراث كتبه رجال، ونحن بشر.. وكل يؤخذ منه ويرد عليه.

لكن المشايخ "هاجوا" و"ماجوا"، وعادت د. فوزية إلى أقصى الأرض تدرّس الإسلام على غير ما أراده مشايخ الأزهر.. للإسلام.

د. فوزية العشماوي رئيسة قسم الدراسات الإسلامية بجامعة جنيف، وهي مجتهدة، ترى أن هناك بالضرورة فهمًا أوسع للنصوص التي ظللنا قرونًا نتعامل معها من دون أية إضافات مع أن الزمن تغير.. وتغيرت الظروف، فزاد وعي المسلمين.. واتسعت مداركهم.

ترى فوزية أن الإسلام لا يعاقب من يخرج عنه؛ لكن يحارب من يخرج عليه، والخروج عن الإسلام هو تركه بعد دخوله، لكن الخروج عليه هو الطعن فيه، ومساعدة أعدائه عليه بالكفر بعد إيمان.

قالت د. فوزية أن معظم الحوادث التاريخية التي أمر فيها الصحابة بعقاب الخارج عن الإسلام وقتله، كانت بعد انضمامه للأعداء، واتفاقه على هزيمة المسلمين بالمساعدة.. أو التسهيل.

للدكتورة فوزية العشماوي أجران، أجر اجتهادها، وأجر صوابها.. فرأيها صحيح؛ لأنه لا عقوبة للمرتد "الخارج عن الإسلام" بالدنيا في كتاب الله، والله أعلم بالآخرة، فقد قال تعالى: "وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا" - (البقرة - 217)، وقال: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (137)" - (النساء - 137).

وفي القرآن الكريم ليس للردة حد، وتفسير المشايخ للسنة في وقائع تعامل النبي (ص) مع بعض من ارتدوا كان اجتهادًا.. يجوز الاجتهاد معه، لكن أحدًا لم يسمع.

والذي حدث مع د. فوزية، حدث مع الشيخ عبد الباري الزمزمي في المغرب.

هناك انقلب عليه المشايخ، رغم أن كل ما طلبه الرجل كان "ستر البنات"، طلبًا لستر الله.

كانت معركة "غشاء البكارة الصناعي" قد احتدمت في المغرب بين مؤيدين ومعارضين، وقتها تحمل الزمزمي على اجتهاده ما لم يكن له به طاقة؛ لكنه تماسك، وظل على رأيه، فأفتى بالمصلحة.. ودفع الضرر، وجبر "العورات"؛ فأباح الغشاء "الصناعي" للمغتصبة، وللتي غرر بها خطيبها، أو ضحك عليها صاحبها.

لكن مشايخ السلفية تسلو بالزمزمي عام 2008، وجرحوه، واغتابوه، ثم تناقلوا قصصًا ذات مغزى عنه وعن عائلته، مع أنه لا تنابز بالألقاب.

قال الزمزمي إن الله غافر الذنب، قبل أن يكون سريع العقاب، وقال إن الذين طعنوا في سيرة أهل بيته من دون علم، حسابهم عند الله أكبر من حساب اللواتي فقدن عذريتهن في قصص حب لم تتم.

اجتهاد الزمزمي كان في محله، فالرجل عالم دين، لا هو مدرس رياضيات، ولا احترف الفقه أوقات فراغه من دراسة علوم الحسابات ككثيرين.

يغفر الله كل شيء إلا الشرك به، وشهر عن النبي (ص) أنهم سألوه: أنخطئ فنستغفر فيغفر الله لنا يا رسول الله، قال: "والله إن لم تخطئوا فتستغفروا، فيغفر لكم لذهب الله بكم، وجاء بقوم يخطئون فيستغفرون فيغفر لهم".

تكلم الزمزمي عن المصلحة في شرع الله، قال إن منح الفتاة فرصة إصلاح خطأ بالستر، مقدمة على منع الفتاة من التوبة وإذلالها بالفضيحة، ما يعني دفعها إلى مزيد من الخطأ في طريق البغاء.

ولما سأله المشايخ عن حكم جلد الزانية، قال إنه يلزم لإقامة الحد اعتراف الفتاة، أو مجاهرتها بالمعصية أو شهادة الشهود، وكلها أمور لا تتحقق في "علاقة عاطفية" أسفرت عن خطأ، ولا تنطبق على المغتصبة، أو المجبرة على البغاء. وقال إن خير الخطائين التوابون. الخطاء هو كثير الخطأ، والتواب هو كثير التوبة من خطأ.[7]

لكن مشايخ السلفية في المغرب العربي كانت قلوبهم غلظًا، فأقاموا الدنيا، ولم يقعدوها، ولم يفقهوا حديثًا.

في الكثير من العلاقات العاطفية، كثيرٌ من التلاقي الجنسي من دون مس بالبكارة، وهو ما تكلم فيه الزمزمي وقال إنه لا عقوبة في الإسلام: "للذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم"، وقال الرجل إن فهمًا أبسط للدين، وأيسر للفقه؛ يجعل درء مفسدة ترك فتاة أخطأت مرة واحدة لطريق اعتياد البغاء بفضحها، مقدم على منفعة تحريم "ترقيع البكارة" تمحكًا في الشرع، وتمسكا بالفضيلة.

فلا الفضيلة بين فخذي المرأة، ولا ما تحت حوضها هو السر الوحيد للشرف.

عبد الباري الزمزمي من أبرز علماء المغرب العربي؛ كان يترأس وقت الأزمة الجمعية

7- باب الزنى. محاضرات في الفقه الجنائي الإسلامي. المستشار بهجت عتيبة. أركان الزنى. وفتح القدير ج 4. والمهذب جزء 2. وراجع ما يلزم. وما لا يلزم لإثبات واقعة الزنى. أو الوطء غير الشرعي في حاشية الدسوقي ج 4.

المغربية للدراسات والبحوث في فقه "النوازل".[8]

ورغم دفوعه الفقهية في قضية غشاء البكارة؛ فإن مشايخ السلفية وصموه بالمفتون، ثم أخرجوه من الملة لأنه يرى أن "الستر" أقرب للتقوى.

واعتزله المشايخ في المغرب، بعدما أدهشهم اجتهاده، ومن دون أن ينتبهوا إلى أن معارضتهم رأي الرجل في "غشاء البكارة الصناعي" هي نفسها اجتهاد، فلا هم تكلموا بالنص، ولا الرجل أفتى بالنص أيضًا؛ لأنه لم تصل المسلمين قصصًا مشابهة من عصر النبوة، ولا وصل إلينا بالأثر ما يجعلنا نحكم في جواز الغشاء الصناعي من عدمه، كله جدل فقهي يحتمل الخطأ والصواب، كما أن اجتهاد الأولين تراث، يحتمل هو الآخر التأويل أو الخروج عنه.. لو اقتضت الظروف.

فقد كان إخراج الخليفة أبي بكر (رض) جيوش المسلمين لحروب الردة اجتهادًا، ورغم أن اجتهاده (رض) عنه لم يكن مصيبًا، ولا كان استنتاجه لوجوب الخروج منطقيًا؛ فإن المسلمين أطاعوا، وأطاع عمر بن الخطاب خوفًا من أن يؤدي رفضه إلى فتنة.[9]

خرج عمر (رض) لحروب الردة.. كرامة للخليفة.. لا طاعة لله، فقد كان تعريف المرتد وعقابه وقتها محل خلاف، فلو كان لله نص في الردة؛ ما اختلف عمر وأبو بكر، ولا ألمح عمر (رض) إلى معارضة أبي بكر، ولا أريقت الدماء وقتها.. "كرامة" لخليفة المسلمين!!

في مؤتمر رابطة خريجي الأزهر؛ طالب المشايخ د. فوزية بإعادة قراءة التراث؛ لكن د.فوزية قالت إنها لا تصدق التراث، ولا كل الذين كتبوا التراث.. وقالت إن الله أصدق من التراث، ولا أصدق من الله.. قيلًا، وقالت أيضًا إن عبدة التراث يظلمون أنفسهم، ولا تظلم آيات الله.. نقيرًا!!

عندها حق !

8- الزمزمي أحد مؤسسي الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

9- راجع "مدعو النبوة في التاريخ الإسلامي، وليد طوغان. والنقول منه. وراجع أيضًا. مروج الذهب للمسعودي.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة آل عمران

جنود الله في "العسل"؟!

(1)

انتهت "الخلافات الإسلامية الراشدة" بمقتل "عثمان"(رض)، بعد أن أخذ عليه أصحابه، وأصحاب رسول الله (ص) "إفراطه في الأمر"!

بعضهم تكلم في طبيعة عثمان بن عفان التي أججت الفتنة بين المسلمين، بعدها تحولت "الخلافة الإسلامية" لسلسلة صراعات سياسية "منمقة" أحيانًا.. و"فظة" أحيانًا أخرى.[1]

لم يكن صراعًا دينيًا، بقدر ما كان سياسيًا، بسط به ولاة المسلمون نفوذهم، وأحكم به آخرون السيطرة باسم الله، وباسم كتاب الله.. وسنة رسول الله.

في الصراع السياسي تلاعب "فقهاء البلاط" بالسنّة رالحديث.. وتلاعبوا بكتاب الله أيضًا.

الحجاج بن يوسف "والي الخليفة الأموي" جرأته "السلطة" بالافتئات على النص؛ فغير في كتاب الله أحد عشر حرفًا لا تزال محل جدل الدارسين![2]

وخلافة "معاوية بن أبي سفيان" حولت الدولة الإسلامية لإمبراطورية، بينما كان خلفاء العباسيين ملوكًا، ولم يكونوا "أمراء مؤمنين"، ووسع الأمويون ملكهم، وزادوا عدد رعاياهم؛ فجردوا الجيوش للفتوحات طمعًا في الثروات.. وتراكم أرصدة بيوت المال، لا صونًا للدين.

1- ما شملته كتب السير من إعادته. رضي الله عنه الحكم بن العاص. طريد رسول الله (ص) إلى المدينة بعد ولايته. وتوليته الوليد بن عقبة بن أبي معيط (رغم فسقه) واليًا على الكوفة...... وراجع مراجع سابقة فيما قالته السيدة عائشة. في عثمان (رض). والمعروف في مناداتها: "اقتلوا نعثلًا..". مروج الذهب. ومدعو النبوة في التاريخ الإسلامي. المسعودي. ووليد طوغان.

2- المصاحف. لأبي بكر عبد الله بن داوود السجستاني. طبعة دار الكتب العلمية. بيروت. وراجع. إبراهيم الإيباري. الجزء الأول من الموسوعة القرآنية.

وغزا العباسيون البلاد.. وقهروا العباد، في حروب أشعلوا فيها حماس العامة من المسلمين بشعارات "الجهاد".. ونشر دين الله.

لم تكن "فتوحات" الخلفاء المسلمين "جهادًا"؛ لأنه لم يكن هناك تكليف شرعي في الإسلام بالحرب وقتل النفس بغير نفس أو فسادًا في الأرض.

رغم ذلك؛ برر " فقه البلاط" القتل وهتك العرض لنشر الدين، واستمر على تلك النغمة، رغم أن "الفتوحات" لم تنشر "الإسلام"، بقدر ما أسهمت في تضخم أرصدة عائدات "الجزية".. وقيمتها المضافة!

المصريون مثلا لم يدخلوا الإسلام إلا بعد ثلاثة أو أربعة قرون من "الفتح" الإسلامي، وظل معظم الإسبان على "مسيحيتهم" مدة بقاء المسلمين في الأندلس.. إلا قليلًا.[3]

فتح الأندلس كان "احتلال" لأراضي الغير؛ رغم ذلك يحتفل المسلمون حتى اليوم بذكرى سقوط إمبراطوريتهم في إسبانيا، مع أنه بخروجهم من هناك؛ عادت الأرض لسكانها الأصليين؛ لكن لأن منطقنا أصبح مقلوبًا، فقد سمينا احتلالنا أراضي الغير "فتحًا"، بينما اعتقدنا أن احتلال الغير لأراضينا "ظلم"!

وفق المنطلق "القلوب" أيضًا؛ فرض الخلفاء "العباسيون" الجزية على المسلمين من غير العرب في البلاد المفتوحة، ومنع أمراء المسلمين مواطني فارس من الوظائف الكبرى.. وسموهم "الموالي".

وفي مصر فرض الخلفاء "العثمانيون" الجزية على المسلمين أيضًا، مع أهل الذمة.. بلا سبب معروف حتى الآن.

لم تتعامل "الإمبراطورية الإسلامية" مع مسلمي البلاد المفتوحة طوال التاريخ كإخوة في الدين، في الوقت الذي رأى فيه "فقه البلاط" أن الخارج على تعاليم الخليفة "أو قبيلته" خارج عن الدين.

وقتها ظهر الحديث النبوي "الأئمة من قريش"، فروى مسلم في صحيحه عن النبي

3- كتاب جوهر الإسلام للعشماوي (مرجع سابق). وأحمد أمين (ضحى الإسلام) . مرجع سابق أيضًا.

(ص): "هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش"، وروى البخاري بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان"، وقد ترجم بلفظ: باب الأمراء من قريش.

وروى ابن حجر حديثًا أخرجه يعقوب بن سفيان وأبو يعلي والطبراني من طريق سكين بن عبد العزيز "حدثنا سيار بن سلامة أبو المنهال قال: دخلت مع أبي على أبي برزة الأسلمي فذكر الحديث الذي أوله: "إني أصبحت ساخطًا على أحياء قريش.." إلى قوله: وفي آخره سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: "الأمراء من قريش" الحديث.[4]

وفي لفظ للطبراني: الأئمة بدل الأمراء وله شاهد من حديث علي رفعه: "ألا إن الأمراء من قريش ما أقاموا ثلاثًا.." الحديث. أخرجه الطبراني وأخرجه الطيالسي والبزار والمصنف في التاريخ من طريق سعد بن إبراهيم عن أنس بلفظ: "الأئمة من قريش ما إذا حكموا فعدلوا" الحديث، وأخرجه النسائي والبخاري أيضًا في التاريخ، وأبو يعلي من طريق بكير الجزري عن أنس، وله طرق متعددة عن أنس منها للطبراني من رواية قتادة عن أنس بلفظ: "إن الملك في قريش" الحديث. وأخرج أحمد هذا اللفظ مقتصرًا عليه من حديث أبي هريرة ومن حديث أبي بكر الصديق بلفظ: "الأئمة من قريش".

وأخرج الحديث الطبراني والحاكم من حديث علي بهذا اللفظ الأخير ثم قال: فإن بالبلاد اليمنية وهي النجود منها ـ أي صنعاء وصعدة ونواحيهما ـ طائفة من ذرية الحسن بن علي لم تزل مملكة تلك البلاد معهم من أواخر المائة الثالثة. قلت: أي سنة مئتين وأربعٍ وثمانين، وهو عصر إمام الأئمة الهادي إلى الحق المبين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم ـ عليهم أزكى التحيات والتسليم كما هو معلوم.

قال: وأما مَنْ بالحجاز من ذرية الحسن بن علي وهم أمراء مكة وأمراء ينبع، ومن ذرية الحسين بن علي وهم أمراء المدينة؛ فإنهم وإن كانوا من صميم قريش؛ لكنهم تحت حكم غيرهم من ملوك الديار المصرية، فبقي الأمر في قريش بقطر من الأقطار ـ أي اليمن ـ في الجملة، وكبير أولائك يقال له الإمام، ولا يتولى الإمامة فيهم إلا من يكون عالمًا

4- فتح الباري، الجزء الـ 16، ص 230، فيما أخرجه يعقوب بن سفيان.

متحريًا للعدل.

وقال الكرماني: لم يخل الزمان عن وجود خليفة من قريش؛ إذ في المغرب خليفة منهم على ما قيل وكذا في مصر، قال ابن حجر: قلت: الذي في مصر لا شك في كونه قرشيًا؛ لأنه من ذرية العباس، والذي في صعدة - أي إمام اليمن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين وذريته عليهم السلام - وغيرها من اليمن؛ لا شك في كونه قرشيًا؛ لأنه من ذرية الحسن بن علي.

وروى ابن عمر فيما أخرجه البزار قال: "لا يزال هذا الدين واصبًا ما بقي من قريش عشرون رجلا"، وقال النووي: حكم حديث ابن عمر مستمر إلى يوم القيامة ما بقي من الناس اثنان، وقد ظهر ما قاله رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم، فمن زمنه إلى الآن لم تزل الخلافة في قريش من غير مزاحمة لهم على ذلك، ومن تغلب على الملك بطريق الشركة لا ينكر أن الخلافة في قريش، وإنما يدعي أن ذلك بطريق النيابة عنهم.[5]

كان حديث "الأئمة من قريش" أزمة أخرى ضمن أزمات مستمرة في تاريخ المسلمين، فبه أبيحت الأعراض، وقطعت الرقاب.. وتعارك الولاة على حكم المسلمين.. بالسيف، لا بالحكمة والموعظة الحسنة.

لما طعن عبد الله بن الزبير بن العوام في الخلافة الأموية، بايعه أكثر أهل تهامة والحجاز خليفة لمدة زادت على الـ 9 سنوات، وهي البيعة التي شعر معها خلفاء الأمويون بتهديدها مُلكهم في الشام.

فخرج جيشان أمويان لحصار مكة "المكرمة"، وضربوا الكعبة بكرات النار "المنجنيق"، وقبضوا على عبد الله بن الزبير.. وفصلوا رأسه عن جسمه، قبل أن يصلبوا جثته 30 يومًا - بمكة المكرمة أيضًا - حتى كتب الخليفة عبد الملك بن مروان لقائد جيشه أن ينزلها؛ فانزلها.. ودفنوها بمقابر اليهود!!

ولما عثر عسكر أمير المؤمنين "هشام بن عبد الملك الأموي" على قبر الإمام زيد بن علي زين العابدين "حفيد رسول الله".. نبشوه، وأخرجوا الجثة وقطعوا رأسها ثم حملوها

5- عن ابن عباس، وأخرجه البزار.

للخليفة الذي أمر بها؛ فصلبت على باب دمشق، بينما علقوا الرأس المقطوعة بمكان آخر!!

في مسلسل الصراع على "السلطة" بين الأمويين والهاشميين؛ احتج كل جانب بأحقيته في إمارة المسلمين اعتمادًا على حديث الأئمة من قريش؛ فتمسك الأمويون بقرابة النبي؛ بينما دفع الهاشميون بكونهم من أهل بيته.. والأقرب إليه (ص).

كانت مزيدًا من الدماء المراقة، والأعراض المنتهكة.

ففي العام 125 هجرية؛ قبض عسكر الخليفة الأموي على يحيى بن زيد (حفيد الحسين بن علي) وسلموه لقصر يزيد.. فأمر بقتله.. وفصل رأسه، ثم أمر بأن يجلدوا جثته.. بعد موته.. ففعلوا!![6]

واستعان أمراء المسلمين على المسلمين بالصلب وتقطيع الجثث والأيدي والأرجل من خلاف، في النزاع على الحكومة، وفي النزاع على قرابة النبي!!

العصر الأموي عصر فتن متوالية، اختفت فيه روح الدين، وناقضت السياسة فيه روح كتاب الله، وآيات القرآن.

بعد مقتل علي بن أبي طالب (رض)؛ بايع أهل المدينة ابنه الأكبر الحسن خلافة على المسلمين.. فيما ظل معاوية بن أبي سفيان واليًا على الشام.

ولمّا خرج الحسن (رض) لحرب معاوية؛ كان نزاعًا على "الدنيا" و"الحكم" و"شهوة الملك"، وقيل إن الحسن (رض) اضطر للانسحاب، وتسليم الأمر لمعاوية، بعدما حصل على ما أشيع على ألف ألف درهم من معاوية في المقابل.. وقيل إنه اشترط أن يأخذ من بيت المال ما يحتاجه!! ثم كف عن المطالبة بالخلافة.[7]

لكن معاوية أرسل بعد الاتفاق من يدس للحسن (رض) السم في عسل اعتاد شربه كل صباح، خوفًا من عودته للمطالبة بخلافة المسلمين؛ فتألم الحسن شهرين حتى مات.. وتداول فقهاء البلاط في دمشق يومها حديثًا نبويًا يقول متنه "إن لله جنودًا في العسل"!!

6- الكامل لابن الأثير. الجزء الخامس. دار الكتاب العربي. والطبري الجزء الرابع. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت لبنان

7- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري. الدكتور زكي نجيب محمود. وراجع الفتنة الكبرى. عميد الأدب العربي. الدكتور طه حسين. و"الخلافة من السقيفة إلى كربلاء" أحمد رائف.

استتب الحكم للبيت الأموي، بعدما قتل أولاد أمية كل من تبقى من البيت الهاشمي، وصلبوهم، وقطعوا رءوسهم.. واغتصبوا نساءهم.

وصعد الخليفة عبد الملك بن مروان منبر رسول الله (ص) في المدينة عام 75 هـ؛ وخطب في المسلمين قائلًا: "والله لا يأمرني أحد بعد مقامي هذا بتقوى الله إلا ضربت عنقه"!

بعد مصرع الحسن (رض)، دعا عبد الله بن الزبير بن العوام لنفسه في خلافة المسلمين؛ اعتمادًا على أنه ابن أهم صحابة رسول الله (ص).[8]

ولأنه ابن الزبير (رض)، ولأن مكانة الزبير بن العوام بالنسبة للنبي (ص)، كانت أوثق لدى فريق من المسلمين من قرابة البيت الأموي له (ص)؛ فقد بايع أهل تهامة والحجاز واليمن عبد الله بن الزبير خليفة على المسلمين فترة خلافة كل من يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان في دمشق.

في الفترة نفسها؛ اضطربت الخلافة الإسلامية، بعدما تنازعها البيت الأموي في الشام، والبيت الهاشمي في المدينة، قبل أن يحاول الخليفة يزيد بن معاوية حسمها لصالح الأمويين بالسيف.

فقد وصل جيش يزيد إلى مكة للقبض على عبد الله بن الزبير، وعلى عددٍ من أبناء الصحابة، ولما فشل.. حاصرها، ثم نصب جنود جيش يزيد المنجنيق على الجبال المحيطة بالمدينة المكرمة، ورموا الكعبة المشرفة بكرات النار الحديدية حتى هدموها، على رأس جيش عبد الله بن الزبير، في معركة ظلت مشتعلة حتى وصل الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الحكم.[9]

ويعث عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف من جديد لحصار مكة، قبل أن يضرب جيشه الكعبة المشرفة للمرة الثانية بالمنجنيق.. فهدموها، وأمسكوا بعبد الله بن الزبير وقطعوا رأسه، ثم طافوا بها مقطوعة في الحرم.. مثلما فعلوا بالحسين (رض) في كربلاء.

8- الكامل لابن الأثير (موقعة الحرة)، والطبري (الجزء الرابع) فيما بعد دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة في عهد الأمويين.

9- المرجعان السابقان، الكامل، والطبري، وراجع الفتنة الكبرى.

والخليفة الأموي يزيد هو الذي أمر قادته أن يبعثوا له برأس الحسين (رض) مقطوعة بعد مقتله في "كربلاء"، ولما وصل الرسول بالرأس المقطوع إلى دمشق، دخل به علي الخليفة يزيد وكان سكران.. فلعب في العينين بعصا، ثم قال ما معناه أين أجدادي الذين قتلهم جيش محمد في بدر.. يأتوني ليروا ما فعلته بحفيده![10]

ففي غزوة بدر؛ قتلت جيوش المسلمين كثيرًا من أبناء البيت الأموي لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد، والمعنى؛ أن يزيد قصد بقتله الحسين ابن البيت الهاشمي، الانتقام، لأجداده الأمويين الذين قتلهم جيش محمد في بدر، وأمر يزيد أن يطوفوا برأس الحسين شوارع الكوفة، معلقًا على رمح، تحقيرًا له.[11]

احتج البيتان الأموي والعباسي في الصراع على حكم المسلمين بالحديث النبوي "الأمراء من قريش"، مع أن صراعهما كان صراعًا على السلطة، ليس غرضًا في الدين، وكان نزاعًا على الدنيا لا قتالًا على الآخرة، على الرغم من أن كلًا منهما أراد أن يظهره على أنه كذلك.

بعد خلافة عمر بن الخطاب (رض)؛ ظلت الشعارات الدينية كلامًا براقًا تتخفي وراءه "شهوة الملك".. و"الرغبة في الحكومة"، شعارات كان ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، فيما استمرت "شهوة الحكومة" مقنَعة بغلاف المصاحف.

قول النبي (ص) في حياته: "من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"، يعني بالضرورة أنه نمى إلى علمه (ص) من ادّعى قولًا كذبًا على لسانه.. لغرض، أو لفوز ما، لذلك؛ فطن (ص) إلى ما يمكن أن يظهر من نتائج الكذب على لسانه، ووضع أحاديث منسوبة إليه (ص) لم يقلها.. لذلك حذر من هذا، وتوعد الفاعل بالنار.

رغم تحذيراته (ص)؛ استباح كثيرون لأنفسهم تأويل ما لم يقله النبي، فبعدما فتحت البلاد، ودخل الإسلام ما لا يُحصى من العباد، فرس وروم وبربر ومصريين، انتشر الكثير من الحديث النبوي "المكذوب" و"الموضوع"، حتى إن كثرة الحديث "الموضوع" أزعجت كثيرًا من الصحابة حتى وفاتهم، وظلت الظاهرة وأسبابها، مؤرقة للباحثين حتى الآن.

10- الأخبار الطوال للدينوري. دار المسيرة بيروت. والبداية والنهاية ابن كثير.
11- الفتنة الكبرى. مرجع سابق. والكامل. مرجع سابق أيضًا.

فيحكى أنهم لما قبضوا على بن أبي العوجاء لقتله، بعدما كثر كذبه على النبي ووضعه أحاديث من عنده على لسانه (ص)، قال الرجل: "وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحل فيها الحرام، وأحرم فيها الحلال".[12]

كان ابن أبي العوجاء يضع أحاديث كثيرة ليست صحيحة، بأسانيد يغتر بها من لا يعرف "الجرح و التعديل".

المثير أن بعض من اختلقوا أحاديث كاذبة، لم يروا في إشاعة الكذب على لسان النبي، وتأويله (ص) ما لم يقله نقيصة خلقية، أو خطيئة دينية، أو سقطة عقائدية.

فقد روى الإمام مسلم عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان عن أبيه عن جده أنه قال: "لم نر من الصالحين أكذب في شيء أكثر من وضع الحديث النبوي على غير صحيحه وعلى غير أصله".

بعضهم في رأي الإمام مسلم كان سليم النية، يجمع كل ما يسمعه من حديث باعتباره صحيحًا، فيضيف إسنادًا له من عنده ثم يرويه، فيأخذه عنه الناس مؤمنين بصدقه.

وقال مسلم أيضًا إن هناك من استجاز نسبة أي كلام إلى الرسول من دون أن يكون (ص) قاله.

وروى خالد بن زيد قال: سمعت محمد بن سعيد الدمشقي يقول (وكان من الصالحين): إذا كان الكلام حسنا لا أرى بأسًا في أن أضعه على لسان النبي (ص)، ثم أجعل له إسنادا من عندي.

الخصومة السياسية بين علي ومعاوية، وبين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، وبين الأمويين والعباسيين كانت سببًا في وضع أحاديث كثيرة مكذوبة على لسان الرسول (ص).

ففي شرح نهج البلاغة، قال ابن أبي الحديد إن الشيعة وضعوا أحاديث للرسول في

12- أحمد أمين. ضحى الإسلام. مرجع سابق.

فضائل علي (رض) وأهل بيت النبي.

ولما رأى أصحاب أبو بكر ما فعل أصحاب علي (رض)، ردوا بوضع أحاديث في أفضال أبي بكر لمواجهة أحاديث الشيعة في تمجيد علي (رض)؛ فقالوا إن النبي (ص) قال: "لو كنت متخذًا خليلًا.. لاتخذت أبا بكر خليلا"، وأخرجوا أحاديث أخرى، وزادوا وعادوا في قصص ووقائع لأبي بكر (رض) مع النبي لم يتيقن أحد من صحتها.

فعاد الشيعة وردوا بالزيادة في أحاديث فضائل علي (رض)، ومكارم أهل البيت، يقول ابن عرفة: "أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة ظهرت أيام حكم الأمويين، تقربًا إليهم ضد بني هاشم"!!

كانت العصبيات القبلية أهم أسباب الوضع في الحديث، إما لنصر العشيرة على العشيرة، وإما لرفع درجة القبيلة على القبيلة؛ فوضع رءوس القبائل، ومشايخها أحاديث في ذم الأعداء، وأحاديث أخرى في مدح قبائلهم، تعلي الثانية من شأنهم في الرياسة والشرف والفخر، وتحط الأولى من شأن الآخرين في الرياسة والشرف والفخر أيضًا.

الواضح أن بعض العرب قد اعتبر في مرحلة زمنية ما في الأحاديث النبوية بابًا يدخلون منه إلى الدنيا؛ فتعاملوا مع السنة في أزمنة تاريخية كتعاملهم مع الشعر، وتناقلوها كما تناقلوا أبيات الفخر!

وبعد أقل من 100 عام على وفاة النبي؛ ظهرت أحاديث كثيرة في أفضال قريش، وأخرى في فضائل الأنصار، وثالثة في محاسن قبائل جهينة وغفار وطيئ وتيم وخزاعة!!

وفي عصور التابعين؛ ظهرت أحاديث تفضيل العرب على العجم والروم، ولمّا أسلم من العجم والروم كثيرون، ظهرت أحاديث "نبوية" في فضل العجم والروم على الأحباش والأتراك.

في عصور التابعين أيضًا؛ ملأت كتب الحديث فضائل الأشخاص، حتى الذين لم يرهم النبي، ولا صاحبوه، وأحيانًا في الذين ولدوا بعد مماته (ص).

وظهرت أحاديث في فضائل آيات القرآن وسوره، فقال أبو عصمة نوح بن أبي مريم

إنه وضع أحاديث في فضائل القرآن سورة سورة، فقال إن النبي (ص) قال: من قرأ سورة كذا فله الأجر كذا وكذا!!![13]

مع أنه (ص) لا قال هذا، ومع أنه لا أجر ولا يحزنون.. إلا ما يعلم الله.

13- ما قاله عصمة بن نوح، وقت قتله، مرجع سابق. وراجع أسباب الوضع في الحديث النبوي.

(2)

فرض العباسيون - بعد دخولهم فارس - اللغة العربية على أبناء البلاد، وقتل الولاة المسلمون رءوس التيارات الإيرانية المعارضة، ثم منعوا دراسة الطب والفلك والرسم، وقصروا العلوم على تفسير القرآن، والسيرة النبوية.

لهذا، ولعوامل أخرى خاصة بصراع القوميات؛ كانت الثورات الفكرية التي خرجت من فارس ضد الإسلام والمسلمين والعرب ثورات هائلة. فالسطوة التي أبداها العرب "البدو" أمام "حضارة الفرس"، هي التي أسفرت عن رغبة محمومة في التفوق الفارسي تحت الحكم العربي.

لذلك سرعان ما صنع الفرس حضارة جديدة تحت الحكم الإسلامي، بعدما حاول المسلمون طمس حضارتهم الكبرى.

كانت الانتصارات المتوالية قد فتنت خلفاء المسلمين، وزادت رغبتهم في مزيد من الحروب، في الوقت الذي قنن "الفقه الديني السلفي" تلك الرغبة الدائمة في مزيد من الأراضي المفتوحة بآراء شرعية، فأطلق المسلمون على الرغبة في الحرب لفظ "الجهاد"، وأطلقوا على نشوة إخضاع البلاد والعباد مصطلح "فتوحات".

فكر "الفتوحات" هو الذي أسس إلى "فقه الفتوحات"، وتطور "فقه الفتوحات" إلى الحد الذي ظهرت فيه أحاديث "موضوعة" تنسب للنبي (ص) دعمه الحرب، وحضه على القتال الدائم، بلا سبب.

أشهر الحديث ما شهر عنه (ص) قوله: "جئت بالسيف والخير بالسيف والخير في السيف"!!

كان "النبي العربي" قد تحول إلى مثارًا لفخر العرب على غير العرب، تمامًا مثلما

تحول مفهوم "النبوة" إلى "ملك" يورث في العرب وحدهم، وترجمت "النبوة" على أنها قوة نافذة في وجه من هم من غير جنس النبي بعد أقل من 30 عامًا من وفاته (ص).

صحيح شهد بيت النبوة نفسه خلافات من نوع مشابه حول الأحق بـ"الخلافة"، بدءًا من الجدل الذي سبق الاتفاق على ولاية "أبي بكر الصديق"، مرورًا بالصراع بين "علي بن أبي طالب" من جانب، و"السيدة عائشة" من جانب آخر، ثم نزيف الدم - فيما بعد - بين أبناء على (رض)، وأبناء معاوية الأموي، إلا أن محاولات فرض النفوذ، والاستماتة لاستمرار الحكم في البيوت العربية، والاحتجاج بقرابة "خلفاء المسلمين" للنبي العربي.. في وجه غير العرب.. كانت أشد وأقصى.

فقد اعتبر الولاة "المسلمون" أبناء البلاد المفتوحة "حتى المسلمين منهم" مواطنين من الدرجة الثانية.

واحتج الأمويون ضد مواطني فارس وأسيا الصغرى ومصر والمغرب العربي بحديث "الأئمة من قريش".[14]

ثم حكم العباسيون البلاد المفتوحة بالحديث نفسه، على أساس أنهم أبناء عمومة النبي (ص)، ثم استخدمه الفاطميون فيما بعد لكونهم شيعة علي (رض)، وأحفاد فاطمة بنت النبي (ص). كما أشاعوا !

شهوة "النفوق العربي"، ورغبات "السيطرة الإسلامية" ساعدت على إلحاق عوام المسلمين العرب بالسيرة النبوية كثيرًا؛ مما يجافي الحقيقة، للدرجة التي ذهب فيها كثير من فقهاء العصر العباسي إلى تأكيد أن النبي (ص) كان يعلم الغيب، وأنه (ص) كان على دراية في حياته بالأحداث التي سوف تحدث في المستقبل، بدعوى أن الله سبحانه كان قد أطلعه عليها، مع الرسالة!

واختلطت بسيرته (ص) أساطير مست شخصه نفسه (ص)، لم ينزل الله بها من سلطان.

14- أول ظهور لحديث الأئمة من قريش، كان مع بداية الخلاف بين الأمويين، والمناوئين لخلافتهم. والحديث مخالف للظروف؛ إذ إن البعض يرى أنه لو صحيح: لاعتد به أبو بكر وعمر (رض) في سقيفة بنى ساعدة. ولما قال عمر بن الخطاب عن خلافة أبي بكر: "كانت فلتة وقى الله شرها". و"الفلتة" سابقة، نادرة الحدوث، ربما لم تكن لتحدث. ويجوز ألا تتكرر.

ففي العصر العباسي، استقرت لدى العامة، ما تناقله بعض أهل السلف روايات كثيرة، منها قصة "السحابة" التي رافقته في رحلاته التجارية قبل البعثة، وكلها كانت حكايات مشابهة لما عرفه تراث الجزيرة العربية قبل الإسلام، إذ لحقت تلك القصص نفسها بأنبياء اليهود، الذين نقلوها من البابليين، قبل وصولها إلى العرب.[15]

في عصر الخلافات الإسلامية؛ استعاد المسلمون تراثًا عربيًا شبه "النبوة" بـ"الملك"، وساعد على انتشار المفاهيم الجديدة حول النبوة، عوامل ثقافية، وسياسية، يمكن القول إنها حولت "الدعوة السماوية" إلى مرادف لـ"الهيمنة".. والسلطة، وخرق العادات.

وكان طبيعيًا أن تدخل على سيرة النبي (ص)، نماذج من قصص إعجازية، خالفت قوانين الدنيا.

قبل سنوات من ظهور الإسلام؛ كانت القبائل اليهودية في الجزيرة العربية قد نجحت في ترسيخ الاعتقاد بتطابق مفهوم "النبوة" مع مفهوم "الملك"، فقد اعتبر اليهود أنبياءهم "ملوكًا"، ووصفوا النبي سليمان بـ"الملك"، وذكر العهد القديم داوود النبي.. بأنه ملك هو الآخر.

وفي الكتاب المقدس كتب اليهود على الصليب مستهزئين بالمسيح: "هذا هو ملك اليهود"!!

انتقلت الفكرة نفسها إلى العرب في ظل صراعًا سياسيًا بين ثلاث ديانات، "المجوس الفرس"، و"الروم المسيحيين" و"اليهود"، في الوقت الذي كان كل منهم يسعى للسيطرة، والتمسك بمناطق نفوذ في مواجهة الآخرين.

ولما بدأ النبي (ص) في إعلان دعوته، اعتقد زعماء القبائل العربية المشتبكة فيما بينها، أن نبوة أحد أبناء "البيت الهاشمي" ليست "زعامة" على بقية بطون وبيوت القبائل فقط، إنما هي مسعى هاشمي لـ"ملك" العرب جميعًا.

ظهرت فكرة "النبي الملك" بقوة في حوار زعماء قريش مع محمد (ص) بحضور عمه،

15- الحزب الهاشمي، وتأسيس دولة الرسول، الدكتور سيد القمني.

وربما هذا يفسر عرضهم عليه الاعتراف به ملكًا متوجًا، على أن يتخلى عن الاستمرار في دعوته التي قلبت على السادة العبيد، وانهارت على أثرها بورصة تجارة الرقيق، العامل الاقتصادي الأكبر في ثراء كبراء مكة.

ظل مفهوم "النبي الملك" معتقدًا أصيلًا لدى معظم قبائل الجزيرة العربية.

فعندما جاءت وفود القبائل لمبايعة النبي (ص) في المدينة عام الوفود؛ كان الأمر - من وجه نظر كثيرٍ من رءوسها - خضوعًا لدولة جديدة، وملك جديد أرغمت "قوته" القبائل العربية على الحياة بـ"قوانينه" تحت مظلة "شريعته"، ووفق نظامه السياسي الخاص الذي دعا إليه فيما بعد.. بينما لم يكن إيمان هؤلاء بالإسلام قد استقر بعد.

النبوة - كما ظنوا وقتها - كانت بلاغة في القول، وعزوة في الناس، وسلطانًا يَفرض بالسيف.

أكثر ما يلفت النظر لذلك؛ ادعاء "مسيلمة بن حبيب" (الكذاب) النبوة بعد زيارة وفد "بني حنيفة" الخاطفة للنبي (ص) معاهدينه على الإسلام.. وألا يشركوا بالله شيئًا.[16]

فقد دفع "بنو حنيفة" ابن قبيلتهم مسيلمة لادعاء النبوة، بعدما شهدوا حجم السلطة والسطوة لدى محمد (ص) بين أتباعه وأهله، وعرفوا كمّ خضوع الآخرين الذي يتمتع به "النبي" (ص).

رأى أهل اليمامة عن قرب كيف "أن النبوة ملك دنيوي، وشرف قبلي، ونفوذ بشري"!!

وقد فطن النبي (ص) - قبل وفاته - إلى ما وصل إليه مفهوم "النبوة" في العقلية العربية، لذلك؛ صدّر للمسلمين أنه لا يقودهم من نفسه، ولا يحكم فيهم بإرادته، إنما هو بشر مثلهم يوحى إليه فيما يتعلق بالدين، أما فيما يتعلق بالدنيا، فالمسلمون أعلم بها.. حسب العرف، والوقت والظروف.

فعندما سأل الصحابة رسول الله في "تأبير" نخل المدينة، لم يكونوا قد فرقوا وقتها بعد بين النبوة والملك، ولم يكن قد استقرت في أذهانهم حتى ذلك الوقت المساحة الفاصلة

16- راجع وفود مسيلمة على النبي (ص) في المدينة. ومفهوم النبوة والملك في "مدعو النبوة". مرجع سابق. وابن هشام.

بين "رسالة السماء" و"خبرة الأرض"، ولا الفرق بين "أمر الوحي" و"أمور الدنيا"، لذلك؛ انتظروا وحيًا من السماء لحل مشكلة "قلع" النخل في يثرب.[17]

إجابة النبي (ص): "أنتم أعلم بشئون دنياكم".. كانت بداية مرحلة تعليمية ابتدائية لفصل "النبوة" عن "الملكية"، وفصل "الدين" عن "الدنيا"، لكن وحتى وفاته، لم يكن ما حاول النبي (ص) ترسيخه من مفاهيم قد استقر بالكامل لدى الجميع، أو ربما استقر ما حاول النبي توصيله للمسلمين في جيل الصحابة، ثم عاد العقد وانفرط بعد فترة ليست طويلة من وفاته (ص).

فهم بعض الصحابة أن الوحي شيء، وأمور الدنيا شيء آخر، لذلك سأل سلمان الفارسي النبي في موقعة الخندق "أهو الوحي؟ أم إنها الحرب والمكيدة؟".

تأكد الصحابة أنه (ص) لا يوحى إليه إلا القرآن. وعلموا أن هذا هو المقصود بالآية الكريمة "إن هو إلا وحي يوحى"، ولو كان الأمر غير ذلك، لكانت آيات قرآنية سريعة قد نزلت فيما يتعلق بنخل المدينة، أو بخندق الحرب.

فهم الصحابة أيضًا أنه (ص) لا يوحى إليه في تصرفاته الشخصية، فلو كان هذا صحيحًا، لما عاتب رب النبي رسوله بـ"الوحي" في آيات قرآنية بوقائع محددة، وأحداث بعينها.

ففي واقعة غيرة نسائه (ص) من بعضهن؛ اتخذ النبي قرارًا بتحريم العسل على نفسه، وحلف ألا يشربه مرة أخرى، لذلك نزلت الآية الكريمة "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (1)" - (التحريم)، ولمّا أخفي النبي (ص) زواجه من زينب بنت جحش؛ أنزل الله تعالى قوله: "وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أن تَخْشَاهُ" - (الأحزاب - 37).[18]

وعاتب الله النبي (ص) أيضًا في "عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَن جَاءَهُ الأَعْمَى (2)" - (عبس)،

17- حديث: "أنتم اعلم بشئون دنياكم".

18- قرآن كريم. سورة الأحزاب. الآية 33إلى 37. ومفهوم القاعدة الشرعية: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" في كتب الفقه. وما فيها من شبهة. بخصوص الآية السابقة. ومثال آخر: "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك" سورة التحريم. 66: 1.

بعدما انصرف رسول الله عن ضرير بسيط، انتهازًا لفرصة حديث ودي مع كبراء قريش.[19]

تصرف المسلمون الأوائل - بعد استقرار الدعوة - على أساس الفهم الصحيح للنبوة، والمعنى الحقيقي للوحي قبل أن تتحول "الخلافة" إلى مرادف لـ"الجبروت"، وقبل أن يصبح الخليفة "سلطانًا أعظم" أو"أمير".

ففي العصر الأموي، أصبح "خليفة" المسلمين "خلفًا" للنبي في الحقوق وفي الواجبات أيضًا. فقد أضفت السياسة على "خليفة" المسلمين معنىً شرعيًا، وحوَل الفقه السلفي "الإمامة" إلى "منصب"، للحد الذي اعتبرها بعض المذاهب ركنًا من الدين.[20]

فتحول الخلفاء هم الآخرون، إلى "معصومين" يحكمون باسم الله، يقررون باسم الله.. ويقتلون ويحتلون البلاد، ويقهرون العباد باسم الله أيضًا.

بعد أعوام قليلة من وفاة النبي؛ لم يكن قد أدرك المسلمون أن وفاته (ص) قطعت نزول الوحي، وأن حكم الدنيا صار للدنيا، بينما غاب حكم الدين.

وعندما خاض "خلفاء المسلمين" الحرب، وأخرجوا الجيوش للفتوحات؛ فإنهم فعلوا في الحقيقة باسم "الملكية الجديدة" التي أضاف لها "النبي العربي" بعدًا دينيًا.. فكان بديهيًا أن يعتبروا الحرب "فتحًا"، والقتل "جهاد".

منطق مغلوط أيده البعض بالسنة، ودعمه الآخرون بآيات الله.

كانت صورة الإسلام قد تغيرت، بعدما كانت صورة النبي نفسه قد لحقت بها هي الأخرى بعض الرتوش.

التغيرات التي طرأت على صورة النبي في الفكر التراثي الإسلامي هي التي أدارت معركة بين مثقفين مسلمين في أوروبا عام 2008، ومجموعة من السلفيين حول فيلم سينمائي عن حياته (ص).

فلما أعلنت الشركة المنتجة في إنجلترا عن اختيار الشيخ القرضاوي للإشراف

19- قرآن كريم: "عبس وتولى، أن جاءه الأعمى". وما فيها من التفسير في سلوك النبي الدنيوي (ص).

20- كما لدى كثير من تيارات السلفية. نقلًا عن مذهب الشيعة الإمامية. والتسليم بوجوب الخلافة حديثًا.

على الفيلم ذي الإنتاج الضخم، اعترض الكثير من المفكرين هناك على اسم القرضاوي، واعترضوا أيضًا على باري أوسبورن المنتج.

كان لدى المعترضين حق، فهم رأوا أن فيلمًا عالميًا عن قصة نبي المسلمين (ص)، وبإشراف "سلفي أصولي" ليس أمرًا محمود العواقب، فلا إشراف الشيخ القرضاوي على التأريخ لسيرة النبي صحي، ولا إنتاج "أوسبورن" صاحب أفلام "ماتريكس" و"مملكة الخواتم" لفيلم عن قصة حياة رسول الله من مصلحة المسلمين.

فرحة الجمعيات الإسلامية في أوروبا، لم تخِل على الذين أعطاهم الله في العقل بسطة، لذلك؛ قال المعترضون إن فيلمًا ينتجه "أوسبورن"، سوف يحول قصة النبي (ص) إلى عملٍ أشبه بمسرحيات شكسبير، فيظهر في النهاية مزيجًا من "الخرافة" و"قصص سحر الشرق"، وهم لا يريدون أن يقارن العالم بين سيرة الرسول، وقصص ألف ليلة وليلة.

كلام عاقل

أما سبب الخوف من القرضاوي، فرجع إلى احتمال أن يضيف الشيخ إلى قصة حياته (ص) كثيرًا من التراث، وحفنة لا بأس بها من قصص ركبت على التاريخ، لم تكن إلا تراثًا أيضًا، لكن آمن بها "أهل السلف".

خافوا أيضًا من أن يقدم القرضاوي النبي (ص) بوصفه الأب الروحي لجماعة الإخوان المسلمين، أو أن يلمح الفيلم إلى هذا، مع أنه "ص" لا يعرف الإخوان، ولو بُعث حيًا لما اختاروه هم عضوًا في مكتب الإرشاد.

كان النبي (ص) داعية، بينما جماعات الإسلام السياسي.. ساسة. ابتغى "ص" وجه اللهً، بينما ولى الإخوان وجوههم شطر قصر الرئاسة، وكرسي الحكومة في البلدان العربية، سواء منذ خروجهم بداية الثلاثينيات في الإسماعيلية المصرية، وحتى إتقانهم التلون حسب الظروف، ووفق ما تقتضي الأحوال بالبلاد العربية حتى الآن.

ولما اختفي الجدل حول إشراف القرضاوي على فيلم النبي محمد فترة، سالت الصحافة الأمريكية المنتج "أوسبورن" عن خطته ورؤيته لفيلم "محمد"، فأجاب بأنه يسعي لعمل فني "يقرب بين الثقافات، بإنتاج ملحمي عالمي"، وهي الإجابة التي أعادت الأزمة، لتنقلب الدنيا من جديد.

لماذا؟ لأن "الأفلام الملحمية" في المفهوم الأوروبي، عادة ما يختلط فيها الواقع بالخرافة، والسحر بالحقيقة.. والسياسة بالدسائس.

المعنى أن الفيلم المنتظر سوف يكون "كارثة" على التاريخ الإسلامي من وجهة نظر عقلاء المسلمين في أوروبا. فسيرة النبي "ص" ليست مثل قصص "هاري بوتر"، ولا تحتمل قصة حياته عرضها متضمنة ما أضافه تراث العوام علي شخصه "ص" من تفاصيل ليست حقيقية، ولا منطقية.

فإذا كان إشراف القرضاوي علي الفيلم مصيبة؛ فإن ما يبدو من نية المنتج كارثة وبلوى سوداء.

وقتها كثرت التساؤلات عن الذي أتى بهذا المنتج، ومن الذي رشحه، وفي النهاية اكتشفوا أن شركة "سلفية" في الولايات المتحدة هي التي اختارته، ثم رشحته للمشاركة في كتابة السيناريو.

والشركة نفسها هي التي جاءت بكتاب سيناريو مسلمين لا يعرف أسماءهم أحد، ولا يعرف أحد ماذا تعنيه العقيدة في أدمغتهم، ولا ما هي أحكامهم على تفاصيل حياته "ص" البشرية التي حولها بعضنا إلى "حكايات" لا يرضاها الإسلام، ولا تقرها قوانين الدنيا.

وقتها نسب إلى د. حمزة عبد المحسن رئيس جمعية مسلمي أوروبا قوله: إن مشروعًا عالميًا عن النبي، لا بد أن ينقى أولًا من وقائع مثل "شق الملائكة صدره لغسل قلبه بالماء المثلج"، ومن قصص مشابهة لواقعة فرع الشجرة الذي بكى عندما كف "ص" عن الاتكاء عليه في مسجد المدينة.

قال الرجل إن تلك القصص في وجود القرضاوي وأوسبورن وآخرين، سوف تحول

الفيلم إلى كارثة، ووبال على سيرة نبي ورسول المسلمين.

كان كلامًا منطقيًا، واعتراضًا يؤخذ في الاعتبار، إلا أن الذي حدث لم يكن كذلك؛ فقد عرّض السلفية المسلمون في أوروبا بالدكتور عبد المحسن، وشتموه في الصحف، وقالوا عنه كلامًا كثيرًا، أسهل الذي قيل وأكثره أدبًا أن أجهزة مخابرات أجنبية قد جندته، وملأت حسابه في البنوك الأوروبية بالدولارات كي يجتهد في إيقاف الفيلم.

لذلك؛ بدأت جمعيات المسلمين في أوروبا في التحرك السريع لرد الهجمة على فيلم "النبي"، وبدءوا في جمع التبرعات للمساهمة مع "أوسبورن" في إنتاجه.. من دون أن يوقفهم أحد!

وفي البحرين؛ لم يوقف السلفية أحد أيضًا، ففي نفس العام الذي اشتعلت فية أزمة فيلم "النبي" جرسوا الكاتب والأكاديمي الكويتي المعروف د. أحمد البغدادي، كما جرسوا د. عبد المحسن في أوروبا.

فقد أدانت محكمة الجنايات البغدادي غيابيًا بتهمة التعدي العلني وسب الإسلام، وحكمت عليه بغرامة رمزية، بعد نشره بحثًا في جريدة "الأيام".. انتهى إلى انتشار الإسلام بـ"السيف" في مصر وأذربيجان وأسيا الصغرى وجنوب أوروبا.

قال البغدادي إنه سوف يستأنف، لكن الإخوان قالوا إنهم هم الذين سوف يستأنفون؛ لأن الحكم بغرامة 370 دولارًا فقط على البغدادي بعد إدانته "حكم مخفف".

وغير الإجراءات القانونية لجماعات السلفية بالاستئناف؛ بدأت المنظمات الإسلامية في حملة تجريح دكتور البغدادي، وعائلته، قبل أن يلعبوا في أصل وفصل وسيرة أكاديمي محترم درس في أدنبرة، وقرأ في التاريخ أضعاف وزن الشيخ إبراهيم الحادي (نائب كتلة المنبر الإسلامي الإخوانية البحرينية).

كانت معركة من معارك معتادة. لكن البغدادي تماسك، وقال إن الإخوان كلامهم كثير، ثم عاد وأشار لمقالته الأزمة التي كان عنوانها "الحل الوحيد لأزمتنا" مؤكدًا أن علينا أن نواجه الحقائق لو أردنا الإصلاح ، وأن علينا أيضًا أن نعيد صياغة ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وقال إن: "الإسلام لم ينتشر ولم يثّبت إلا بالسيف، وإن فتح مكة نفسه

كان بالسيف".. وقال مرة أخرى إن "سيف الإرهاب الديني مسلط على رقبة كل من يقول خلاف ذلك"، وإن "السياسة لعبت بالدين، منذ ما سمي بالفتوحات الإسلامية.. وحتى اليوم".

الرجل قال بالفم المليان: "لا يوجد لدى التيار الديني مثقف واحد يستطيع الرد على آراء الليبراليين في أي مكان في العالم الإسلامي"، مشيرًا إلى أن التيارات السلفية، هم وعوام المسلمين لم يقرءوا الكثير من وقائع تاريخهم، أو ربما لم يقرأ بعضهم التاريخ من المهد.. إلى حين يتوفاهم الله.

وفتح البغدادي مزيدًا من النيران، فقال إن المسلمين في الهند وبنجلاديش وباكستان والصين لا يريدون رفع "الساقط" عن الدين، وإن الجماعات السلفية في البحرين والكويت والأردن ومصر يبادلون الحجة الفكرية، بالحجة القضائية، مع أن ديننا في أمس الحاجة للفكر، والانطلاق العقلي، فالقصاص من أفكار "الباحثين" في المحاكم، والمطالبات بسجنهم، وتعزيرهم كالقتلة، وقطاع الطريق حرام!!

من جانبهم رد السلفية والإخوان المسلمون بوصلات تنابز بالألقاب، فشتموا البغدادي، مثلما شتموا د. حمزة عبد المحسن في أوروبا.. وحقروه بين أهله، الأمر الذي دفع البغدادي في النهاية إلى اللجوء للتاريخ.. وانتظار حكمه.

وفي الفضائيات، لوح د. البغدادي بكتب فتوح البلدان لأحمد بن يحيى البلاذري، وتاريخ الخلفاء للسيوطي وتاريخ الأمم والملوك للطبري والكامل لابن الأثير والأخبار الطوال للدينوري، ولما وصفوه بالعمالة للغرب؛ رد: "إذا كنت أنا عميلًا، فلا البلاذري قبض دولارات أمريكية، ولا الإمام السيوطي كان ضابطًا في المخابرات الأمريكية".

وأشار البغدادي أن نشر الإسلام بالحرب، والدم، والهدم وتصارع "المذاهب الإسلامية كان من أجل الدنيا لا من أجل الدين" وذكر وقائع تاريخية علينا أن ندركها، لتلافي آثارها؛ قبل أن نبحث داخل أنفسنا؛ فنرفع بالملقاط ما لا يزال في وجدان بعضنا من تاريخ لم ينص عليه حرف في كتاب الله.

"الإخوان المسلمون" في البحرين كسبوا 370 دولارًا تعويضًا من مفكر تكلم

وبحث، و"البغدادي" دفع رغم أن قضيته كسبانة؛ لأن سيوف المسلمين التي طالت الأبرياء في أوروبا وآسيا الصغرى وفي مصر أيضًا في حقبة تاريخية ما.. لم تزل موجودة في البحرين ومصر والمغرب.. وبلدان الشرق الأدنى أيضًا!!

وفي الغرب قبل واقعة البغدادي، وعبد المحسن بثلاثة أعوام، كانت سيوفًا إسلامية من نوع آخر مسئولة عن عداء الغرب للإسلام، ولمشايخ المسلمين.

مسالك بعضهم كانت - عادة - أقرب إلى "المناظر" بعيدة عن "القصة"، فقد كان كثيرٌ من المشايخ "إجرائيين" أكثر منهم أصحاب مضامين، يكتبون على أنفسهم وعلى الآخرين حروبًا إعلامية بالدين، باعتبارهم هم وحدهم رجاله وكهنته. ودخل هؤلاء معارك، لا استطاعوا حسم نتاجها، ولا التفتوا إلى من حاول لفت أنظارهم إلى أن تداعيات تلك المعارك.. ليست في صالحهم ولا في صالح الإسلام.

ففي العام 2006؛ رفض إمام مسجد "لاهاي" مصافحة ملكة هولندا أو مخاطبتها.. "بجلالتك" خلال زيارتها الرسمية للجامع، ولما سألوه في الصحافة قال: "الجلال لله وحده"!

واقتنص اليمين الهولندي الفرصة للهجوم على أكثر من مليون ونصف المليون مسلم يعيشون على الأراضي الهولندية، إضافة لمليارين آخرين حول العالم.

وهلل صيادو الماء العكر لإمام المسجد في الجرائد والصحف، قالوا: شيخ "قليل الأدب".. جلياط.. وعديم الذوق، وكان هذا إلى حد ما صحيحًا.

فالرجل كان أقل ذكاءً مما يجب، ذكاؤه المحدود كان سببًا في خصم نقاط كثيرة من رصيد المسلمين الهولنديين؛ لمجرد رفضه مد يده للملكة "بياتريس". وذكاؤه المحدود أيضًا هو الذي خصم نقاطًا أكثر عندما أدخل إمام المسجد "جلالة الملكة" في مقارنة مع "الله"، إذ ليس فقط لا مجال للمقارنة؛ إنما لم يكن هناك ما يدعو.

وقتها التقم اليمين الهولندي فرصة ذهبية للبرهنة على عدائية المسلمين، ولم ينس المتشددون الهولنديون الإشارة إلى أن وعي المسلمين.. مثل أدبهم.. قليل!!

لم يكن إمام مسجد "لاهاي" السلفي في حاجة إلا إلى شيء من الفطنة، والكياسة،

والسياسة، وهي العوامل التي راوغ بها مؤمنون كثيرون بديانات أخرى في هولندا وأوروبا؛ استطاعوا بها استمالة أبناء البلاد هناك، لذلك؛ احترمهم الأوروبيون، واحترموا عقائدهم التي استوعبوها هم، ثم ساعدوا الأوروبيين على استيعابها هم الآخرون.

"السيخ" الهنود في ألمانيا وهولندا؛ أبطلوا لبس العمامة، وقصوا شعورهم، رغم أن ديانتهم لا تسمح بهذا، لكن المستنيرين منهم قالوا إن الدين هو السبيل للوئام، وإن كل ما يمكن أن يؤدي للصدام مع مجتمعات أجنبية يعيشون فيها.. لا هو دين.. ولا يحزنون.

وارتدت نساء السيخ "الجينز"، بعد نظرة أوروبية "متوجسة" و"مستوحشة" للساري الهندي الذي جعل الهنود محل انتقاد في مجتمعات لا تؤمن إلا بالتطور فريضة.

لكن المسلمين في أوروبا خالِف تُعرف، معظمهم على خلاف مع الجميع، بدءًا من عام 1998، يصر أكثرهم على ارتداء الجلابيب البيضاء، فيسير الرجل منهم في جلبابه الأبيض، بينما زوجته خلفه، في نقاب أسود، وجلباب أسود، وجوانتي أسود.. بشوارع أمستردام.

انتشار النقاب مثلًا كان ظاهرة لفتت أنظار الأوروبيين إلى أن هناك مواطنين منهم ينتمون لتيارات التشدد في دياناتهم، ثم تحولت النظرة للمسلمين من "الالتفات" إلى "خوف"، تمامًا مثل التوجس الذي ارتبط بظهور اليهود السلفيين "الحريديم" في أي دولة أوروبية.

وبعد هجمات 11 سبتمبر؛ تحول الأمر من مرحلة "الترقب"، إلى مرحلة "المواجهة"، فالأوروبيون بدءوا في اتخاذ مواقع الدفاع عن أنفسهم، بعدما أعلن رءوس التطرف الإسلامي في أوروبا أنهم في الطريق لتغيير سلوك المجتمعات التي حلوا عليها ضيوفًا.. إلى ما يرضونه هم ويحبون!

في مراحل المواجهة؛ لم يستغرب الهولنديون سلوك إمام أكبر جامع على أراضيهم، كانت معلومات مغلوطة عن المسلمين تترسخ لديهم يومًا بعد يوم.

وكان صعبًا أن يغفروا لإمام الجامع ما فعل، فهم يعتبرون ملكتهم رمزًا، مثلها مثل "علم البلاد"، إهانة الملكة، مثل إهانة العلم.. جريمتان لا يمكن أن يغفرهما أحد.

أما الصحافة؛ فعلقت، وحكت، وأخذت وردت. قالت إن "سلوك" رجل دين ممن نسبت لهم حوادث 11 سبتمبر في الولايات المتحدة، وتبث قنوات الأخبار تسجيلات لملثمين منهم يذبحون ضحايا مقيدين خلف ظهورهم مع تكبيرة الإحرام.. سلوك ليس غريبًا، وكانت مشكلتهم: كيفية مواجهة أتباع ذلك الدين الذين يقودهم ذلك الرجل في الصلاة!!

لذلك؛ خرجت المظاهرات في العاصمة الهولندية أمستردام، تطالب بإبعاد الإمام ذي الأصول السورية، في الوقت الذي وقف فيه المسلمون الهولنديون إلى جانب المسلمين الوافدين ضد مواطني بلادهم.. وكانت أزمة انتشر معها الاعتقاد في الشارع أن الإسلام خطر على "المواطنة" في هولندا.

وأصر إمام الجامع على عدم الاعتذار للهولنديين؛ قال إن مهما كان احترامهم لملكتهم؛ فإنه لن يتأسف، لا لهم، ولا لها؛ ما زاد الأمور اشتعالًا، فقد رد الهولنديون بأن عليه أن يترك الأرض التي يقيم عليها، بينما يحتقر شعبها وملكتها، إضافة إلى أنه دق إسفينا من نوع لم يعرفوه من قبل.

قال إمام لاهاي إنه كان ينفذ إرادة الله.. لكن هذا لم يكن صحيحًا.

ففي مصر قبل يوليو 1952؛ خاطب شيوخ الأزهر ملك مصر "بجلالتك"، وصافحوا الملكات أيضًا، وصور مصافحة رجال الأزهر للملكتين فريدة وناريمان موجودة، بينما غطت الملكتان شعورهما في حضور "الإمام الأكبر".

كان الاحترام متبادلًا، فقد نادى الملوك رجال الأزهر "بفضيلتك"، ولدى "العلماء" في الماضي المقامات محفوظة، فالإمام الأكبر "الشيخ شلتوت" رحمه الله مثلًا؛ كان أكثر استيعابًا للإسلام من إمام مسجد لاهاي، الذي لم يفعل، ولا يبدو أنه سيفعل، ويبدو أنه لا يريد أيضًا.

الكارثة؛ أن الذي يرسم صورة الإسلام في العالم العشرين عامًا الأخيرة كان الأئمة من نوعية إمام لاهاي، وليس الراحل الشيخ شلتوت. تمامًا كما يرسمها الشيخ خالد الجندي، والشيخة ملكة زرار، والشيخ صفوت حجازي على شاشات التلفزيون.

بعض "رجال الدين" حولوه لإسلام "سبايسي" (حار) على طريقة مطاعم "هارديز" الأمريكية للوجبات السريعة.. والتوصيل مجانًا للمنازل!!

هؤلاء لم يختلفوا كثيرًا عن إمام هولندا الذي أقام البلاد وأقعدها و"رجّها"؛ فلم يغب عنه - فقط - أن المصلحة هي الأصل في الأحكام، إنما ترك المسلمين هناك "لمناقصات" الساسة والسياسة؛ فأدخلهم معارك دفاعًا عن "أصول ما هي بأصول"، ولاعتقاد لا يعلم - حتى هو.. مصدره؛ رغم أن الملكة "بياتريس" من قواعد النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا، ورغم أن جلالتها دخلت المسجد، وقد غطت شعر رأسها احترامًا لديانة الإمام، وقدسية المكان!!

أزمة "إمام لاهاي" لم تكن القضية الكبرى، ولو أنها كانت كبيرة في هولندا وقتها، القضية الأكبر كانت في "الالتباس" الديني الذي بدا معتادًا بين "الأئمة" في العشرين عامًا الأخيرة. فالذي حدث كان اختزالًا مستمرًا للعقيدة في صغائر، اشتهرت خلالها أحاديث منسوبة للنبي عن فضائل "بول الإبل" وما شابه، كان "أئمة" كبار، ومشايخ سلف مشهورون قد فرغوا أنفسهم لجمعها.. وإيصال أسانيدها، مع حرص شديد على تقديمها للمسلمين، كما لو كانت من صحيح الدين!!

في العام 1999؛ عاتبني أحد مقدمي البرامج الدينية على فضائية مصرية بعد مقالة لي في مجلة واسعة الانتشار، كان خلافًا بيننا على مادة برامجه ذات الشعبية العالية، ولما سألته عن دراسته؛ أجاب: الاقتصاد والعلوم السياسية، بينما لم يدرس الفقه الإسلامي، وليس له فيه قراءات تذكر، ثم أضاف كلامًا مستفزًا بدت منه رغبته في المزيد من "الشتيمة" على صفحات الجرائد؛ فهي تزيده شهرة وصيتًا.. كما اتضح أنه يعتقد!!

الملاحظة؛ أن المذيع نفسه - وبعقليته تلك - كان مسئولًا عن تصدير ما يتصور أنه صحيح الدين لملايين المسلمين مرتين أسبوعيًا، وكان نموذجًا أيضًا للذين أسهموا - بصلف - أحيانًا، و"جهل" أحيانًا أخرى فيما أطلق عليه فيما بعد "فوضى الفتوى".

العبرة لدى هؤلاء كانت بنسبة المشاهدين، وأعدادهم، إضافة إلى حجم الإعلانات، وأعداد المكالمات التليفونية على الهواء.. ليس أكثر.

ففي حين كان أمام جامع لاهاي، مسئولًا عن ردود أفعال عنيفة لأسباب لا تتعلق بصحيح الإسلام؛ كان علماء آخرون من "مجاذيب الفضائيات" قد بدءوا في دك المسلمين بأحاديث عن رموز تفسير منامات النائم "الشرعية"، في الوقت الذي روج فيه مشاهير مشايخ السلفية إلى إبراء الأكمه والأبرص بـ"الرقية الشرعية" تارة.. وبـ"الطب النبوي" تارة أخرى.

لم يكن في قلب ملكة هولندا مرض؛ إنما الذين كانت قلوبهم قاسية، كانوا إمام جامع لاهاي، ومروجي "سنن بول الإبل"؛ فقد اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.. وكانوا سكارى و ما هم بسكارى!!

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة النجم

خطايا "أمراء المؤمنين"!!

(1)

لم يتوصل مشايخ السلفية إلى صيغة ما تفصل بين "إسلام الله"، أو "الإسلام كما أراده الله"، وبين "إسلام" مراحل تاريخية نشأ فيها الدين، حسبت على "الدنيا"، و لم تحسب على "الدين"!

ليست هذه محاولة لجلد الذات، ولا هي حملة لتصيد أخطاء الماضي بلا سبب ولا داعٍ.. أو مناسبة، إنما بالأحرى هي محاولة مشروعة لفهم التاريخ جيدًا، ومحاولة لإعادة فحص أفكار استقرت، مع أنها لم تكن "نصوصًا شرعية" ولا كانت "تكليفات دينية".

أفكار طغت واستفحلت، وتطورت وتغيرت عبر فترات تاريخية، ورثها المسلمون جيلًا بعد جيل، بتفاصيل مختلفة، وأحيانًا.. بتكييفات "فقهية" متباينة، كان الظاهر فيها كان عدم القدرة على فصل "التاريخ" عن "العقيدة"، ولا "الأشخاص" عن "الوحي"، ولا "القداسة" عن "أعمال الدنيا".

فشل الداعين لصبغ عصورنا الحالية بصبغة عصور السلف الصالح.. في التفرقة بين ما هو "دنيوي" وما هو "ديني"؛ فلم يتبينوا ما هو "إلهي" وما هو "من عند أنفسهم".

ربما لذلك رأى المستشرق الفرنسي "هنري كوربان" أن الحكام المسلمين تعاملوا من منطلقات "طائفية" على مر تاريخ الخلافة الإسلامية، دخلت فيها أفكار الدين في الدنيا، وخطابات الدنيا في الدين، وهو ما أدى إلى أن ورثت "خلافة المسلمين" بعض ما كان للنبوة من "دعم إلهي" و"سند سماوي".

يرى كوربان أنه لذلك؛ تعامل المسلمين مع "الخلافة" باعتبارها ركنًا من أركان الدين، واعتبروا "عروبتها" فرضًا شرعيًا، ونصًا لازمًا.. وحجة "دينية" في وجه أهل البلاد المفتوحة من غير المسلمين.

لذلك أيضًا؛ ظهرت التفرقة بين المسلمين وغير المسلمين، وبين العرب وغير العرب أيضًا.

فقد ألزم أمراء المؤمنين في الخلافات الإسلامية المختلفة، غير المسلمين من مواطني البلاد المفتوحة بلبس "الغيار"، وهو ملابس مخالفة لما يرتديه عامة المسلمين، تمامًا مثلما منع العباسيون مواطني فارس من لبس العمامة العربية، وأرغموا أهالي أسيا الوسطى على ارتداء قلنسوات مميزة في الشكل واللون.[1]

وأطلق المسلمون "العرب" على غير العرب من أبناء البلاد المفتوحة اسم "الموالي"؛ فاعتبروهم مواطنين من الدرجة الثانية.. حتى في بلادهم، ومع سقوط الدولة العباسية؛ كان فكر ومفهوم "الموالي" قد استقر في العرف الإسلامي، مؤثرًا من ناحيتين: ناحية سلوك المسلمين تجاه "غير العرب"، وناحية أفكار وفلسفات "غير العرب" تجاه الدين الإسلامي.[2]

لم يفطن "الموالي" إلى أن "الإسلام" تغير على يد "أمراء المؤمنين"، وأن مفاهيم التفرقة بين العرب والعجم ليست إسلامية، ولم تكن من عند الله.

اعتقد الموالي أن "الرسالة السماوية" فكرة عربية، تميز بها العرب على العالمين، واقتنعوا أنه بموجب تلك الرسالة السماوية؛ طغى العرب وقتلوا.. بدعم رباني، وسلطة إلهية.. وكان لا بد من رد فعل.

رد الفعل كان الانفجار؛ فانفجرت حمى مذاهب إسلامية كثيرة، وغريبة، أسهم الموالي في ابتكارها بعد دخولهم الإسلام، ولم تكن تلك المذاهب لا إسلامية.. ولا يحزنون؛ رغم أنها كانت مسئولة عن إدخال كثيرٍ من موروثات فارس والهند وأسيا الصغرى على الإسلام.

على العكس؛ فقد أخذ كثير من مذاهب "الموالي" في الطعن في العقيدة الإسلامية نفسها، وتعمد بعضها وضع الحديث النبوي كذبًا تارة، وبدوافع "سياسة" تارة أخرى، ثم "إيمانًا" أحيانًا كثيرة، بعدما خلطت الأجيال المتعاقبة من "الموالي" بين أساطير

1- جاء في تاريخ الخلافات العباسية. وسيرة أبي جعفر المنصور والخليفة السفاح. مع الإحالة إلى طبيعة عهد الذمة حال إقامة الخلافة. وإلزام غير المسلمين بلبس الغيار (راجع) مجموع الفتاوى. للإمام ابن تيمية.
2- راجع رسائل أبي بكر الرازي. والزمردة لابن الراوندي. وما جاء فيها من نقد الفكر (القرآني) للمسلمين. وراجع أيضًا. الملل والنحل للشهرستاني. ومن تاريخ الإلحاد في الإسلام. للدكتور عبد الرحمن بدوي.

حضاراتهم القديمة و.. دين الله!

لم تفرق الرسالة المحمدية بين العربي والأعجمي إلا بالتقوى، ففي الأثر؛ قال عمر بن الخطاب (رض): "لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًا لاستخلفته"، وذكر رسول الله (ص) سالم، مع أنه كان عبدًا، وقال فيما شهر عنه (ص): "خذوا القرآن من أربعة" وذكر سالم منهم.. في رواية البخاري.[3]

لم يكن "سالم" عربيًا، بينما كان خادمًا في الوقت نفسه لأبي حذيفة بن عتبة بن أبي ربيعة، ولمكانة سالم عند النبي؛ رفعه المسلمون الأوائل لمصاف الصحابة بعدما اعتنق الإسلام، وبعد أن أعتقته مالكته "ثبتية الأنصارية".

بعد وفاته؛ كان سالم ممن تعارك المسلمون والفرس على نسبته إليهم، بينما اختلف العرب أنفسهم، فيما بينهم، على نسبه.

فنسب المهاجرون - أهل أبي حذيفة - سالم إليهم، وحاولت قبيلة بني عبيد وصل أصوله بأصولهم، في الوقت الذي استقتل الفرس "نهاية العصر الأموي" لتأكيد ميلاده ونشأته بينهم، فقد كان سالم.. فارسيًا من أهل مدينة "اصطخر".[4]

كما لو كان الموالي - منذ الخلافة العباسية - في حالة بحث مستمر عن طوق نجاة من سطوة الثقافة الإسلامية العربية؛ خصوصًا بعدما وصل استعلاء العرب بدينهم وجنسهم إلىأقصى مدى.

وظهر حديث "الأئمة من قريش"، وبموجبه؛ منع العرب غير العرب من مواقع الريادة، والحكومة، والإمامة، وممارسة السياسة، وهو ما لم يجعل "الخلافة" في العرب المسلمين وحدهم فترة تسعة قرون، إنما رسخ اعتقادًا عامًا بأن ولاية "العربي القريشي" على "غير العربي"؛ إنما هو أمرٌ دينيٌ، وسنة نبوية.. وشريعة إسلامية!

فبالسنة النبوية؛ حجب الخلفاء المسلمون عن "غير العرب" العمل بالسياسة؛ وشاع الرأي الفقهي بـ"عدم جواز ولاية غير القريشي"، ما كان يعني عدم جواز ولاية "غير

3- صحيح البخاري.

4- المرجع السابق. البخاري في الصحيح.

العربي" على المسلمين!

لم تكن الخلافة الإسلامية نظامًا دينيًا في كتاب الله، لكنها ـ رغم ذلك ـ تحولت إلى نظام ديني بوصفها فقهًا؛ فوصفها الفقهاء بأنها: "حراسة للدين وسياسة للدنيا"؛ ما أدى تاريخيًا إلى ظهور الاعتقاد في عصمة "الخليفة".[5]

لذلك؛ وبعد انتصار العباسيين على الفرس، وقف الخليفة "السفاح" على منبر المسجد وقال للمصلين: "إنما نحكمكم بفضل الله ويد الله".[6]

وفي كتاب "النحوي".. حدث أن ذكر بعض الحضور الخليفة الأموي "الوليد الثاني" في مجلس الخليفة العباسي المهدي؛ فتكلموا عن شربه الخمر ومضاجعة الجواري وصلواته المتكررة جنبًا ومخمورًا؛ فانفعل الخليفة المهدي ونهى المتحدثين عن "الخوض في سيرة أحد خلفاء المسلمين"؛ لأن "خلافة الله لا يعطيها لزنديق".. حسب ما قال.[7]

وفي "عبقرية علي" أن الخليفة عثمان بن عفان (رض)؛ لمّا خرج عليه الرعية، وطالبت السيدة عائشة (رض) بعزله.. قال: "لن أخلع قميصًا ألبسنيه الله".

وعند المسعودي؛ كانت "خلافة الوليد الثاني" عينة من صور التغيرات التي طرأت على الخلافة الإسلامية بعد انتقال النبي (ص) إلى جوار ربه، ففي مروج الذهب؛ ظهر بوضوح مرة أخرى دفاع "فقهاء العباسيين" عن "الوليد الثاني" بدافع الاعتقاد في أن "الخلافة" منصب ديني، انتقل إلى بني العباس بقدرة إلهية.

لذلك؛ فإن هذا المنصب مطهر من "الدنس"، معصوم من الغلط، منزه عن الخطأ؛ لأن خلافة المسلمين.. خلافة لله في أرض الله!![8]

ويرى السيوطي أن سطوة أمير المؤمنين "الوليد" الأموي، هي التي أسكتت فقهاء عصره عن نهيه عن الخمر والزنى و"صيد الجواري"، رغم أن عهده كان زاخرًا بالفقهاء

5- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي.
6- المرجع السابق.
7- كتاب محمد بن يزيد المبرد، وتاريخ الخلفاء، مرجع سابق.
8- كتاب "مروج الذهب".

ورواة الحديث المشهورين كالحسن البصري وعمر بن عبيد و واصل بن عطاء.[9]

وعند المسعودي؛ كان الوليد أكثر خلفاء المسلمين ولعًا بالنساء بعد الخليفة "المتوكل" العباسي، الذي مات عن أربعة آلاف جارية دخل بهن جميعًا، ولم يخفِ الوليد أنه لا يؤمن بالإسلام، لذلك؛ أمر بتعليق المصحف وضربه بالسهام.[10]

وذكر المبرد النحوي أن الوليد واقع جارية وهو سكران قبل أن يدخل عليه حاجبه منبهًا لميعاد الصلاة؛ فحلف "أمير المؤمنين" الوليد أن تصلي جاريته بالناس؛ فلبست ثيابه وتلثمت.. وصلت بالمسلمين ولم تجهر بقراءة القرآن في صلاة جهر![11]

كانت بقعة من بقعٍ سوداء، رغم ذلك؛ لم يرض فقهاء السلف عن رمي سيرة بعض خلفاء المسلمين.. بسوء!

9- تاريخ الخلفاء، مرجع سابق.

10- المروج، وراجع واقعة عبد الملك بن مروان، عندما جاءه خبر ولايته، وهو يقرأ المصحف، فقفله بقوة وقال: "هذا آخر عهدي بك" في تاريخ الخلفاء أيضًا.

11- محمد بن يزيد المبرد "النحوي" مرجع سابق.

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَإِنَّ مِنهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة آل عمران

التسامح خطيئة.. سنية!

(1)

ترك المذهب السني كل شيء، وفعل أصحابه كما فعل أهل بيزنطة.

ففي بيزنطة؛ تداول الحكماء جدلًا شديدًا، وآراء متضاربة فيما يعتقد أنه سوف تكون عليه الحياة بعد الموت، وقضوا وقتًا طويلًا في الحديث عن الموت، ومعناه، وما إذا كانت سوف تكون هناك حياة بعد الموت أم أنه مجرد كلام فلاسفة.

واحتدم النقاش، بينما كان الأعداء قد أحكموا حصارهم على أسوار المدينة.. ثم دخلوها، وقتلوا البيزنطيين وحكماءهم.. واغتصبوا النساء في الشوارع.

تاريخيًا سموه "الجدل البيزنطي"، فقد مات حكماء بيزنطة قبل الدفاع عن بيزنطة، بينما شغلهم الجدل ومحاولات التقريب.

وكما انشغلوا في بيزنطة بتقريب وجهات النظر؛ انشغل المسلمون الآن بمحاولات التقريب بين المذاهب، رغم تراثٍ ـ مذهبيًا ـ مليء بالأترية، كان فحصه أولى من تخطيه لقضايا جدلية.. خسرانة.

التقريب بين المذاهب الإسلامية شديد الشبه بالحبكات "البيزنطية".

ومحاولات التوفيق والوئام بين السنة والشيعة "عقائديًا" ليست سوى آمال في ذهن الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر السابق، ود. على السمان مسئول ملف حوار الأديان.

فلا النتيجة منتظرة، ولا التقريب ممكن، والمحاولات المستمرة؛ تأخذ من جهدنا وأفكارنا وأصواتنا، كما فعلت القضايا "الفاضية" بأهل بيزنطة.

تاريخيًا اشتهر السنة بـ"المرجئة"، أو الذين أرجئوا حساب المعتدى في الدين إلى الله يوم القيامة.[1]

فطوال تاريخهم؛ لم يستقر "أهل السنة" على موقف محدد تجاه الدخيل على الدين،

1- الملل والنحل، وما قيل في أسباب الإرجاء عند المرجئة، وغيره.

بينما استطاع الشيعة إقامة فلسفة "عقائدية" خاصة، تطورت ودخلت لـ"المرجئة" من أكثر من باب.

"التشيع" ليس هو "حب آل البيت"؛ إنما هو مذهب "غنوصي"، "خرافي" اختلط بالإسلام، قبل أن يتحوّر ويتلون عبر مراحل تاريخية انتهت إلى الإيمان بولاية علي بن أبي طالب، ورفعة لمراتب أعلى من النبوة في بعض مذاهب المتشيعين.[2]

آمن الشيعة أيضًا بـ"الحلول"، وعصمة أبناء علي (رض) من بعده، بينما لا يؤمن السنة بـ"عصمة البشر"، ولا يعرفون عن "هيام أرواح أبناء الإمام علي" (رض) بعد وفاتهم شيئًا.

يؤمن الشيعة بـ"هيام" أرواح أولاد علي بن أبي طالب بعد وفاتهم، ويعتقدون بغصمتهم هم وجدهم (رض) من الخطأ، ويعتقد الشيعةأيضاً فيما يسمونه الوكيل، أو نائب "الإمام الغائب" الذي يدير الكون ويراقبه من مكان ما، تحضيرًا للظهور على الأرض زمنًا ما.. لا يعرفه أحد![3]

الوكيل، أو نائب الإمام هو "الفقيه"، وولاية النائب هي "ولاية الفقيه".

ولاية الفقيه ليس نظام حكم اختاره الشيعة؛ إنما عقيدة دينية قامت على فكرة امتداد "النور الإلهي" من الله سبحانه، إلى علي (رض)، ثم إلى أبنائه، ومنهم إلى الأئمة من بعده، بينما لا يؤمن "المذهب السني" أن عليًا (رض) "ظل الله في الأرض"، ولا أن حفيده محمد بن الحنفية، وأبناءه "أئمة معصومين"، فتح الله عليهم فكشف الغطاء، وأزاح عنهم الحجاب؛ فسافروا "عبر الزمن" وكشفوا الغيب واطلعوا على المستقبل.. يسافرون وهم موتى، ويراقبون العباد من القبور!

في التاريخ "قعد" السنة عن فحص ما استجد من تيارات إسلامية فلسفية، فقبلوا كل شيء.. و لم ينقدوا شيئًا.

2- التشيع بين مفهوم الأئمة والمفهوم الفارسي. محمد البنداري. تقديم سعيد حوى. دار عمار.
3- الرافضة والشيعة. والفرق بين الفرق للبغدادي. والسبئية. في الملل. باب عبد الله بن سبأ. وراجع أيضًا وليد الأعظمي. الحركات الحاقدة. والأفكار الفاسدة.

وفي التاريخ؛ رفض السنة مدارس الفلاسفة المسلمين في العراق، ومالوا لمدرسة "الحديث" بالمدينة، فنقلوا الحديث صحيحه وحسنه وغريبه، وتناقلوا كل ما شهر أن النبي قاله، حتى المشكوك فيه.[4]

من خطايا السنة أنهم اعتقدوا في الحديث النبوي، كامل الإسناد، وناقص الإسناد أيضًا، ثم عملوا بالضعيف منه، وسلموا به تسليمًا كاملا[5]

وفي عصور الخلفاء الراشدين؛ زلزلت الفتنة الكبرى التاريخ الإسلامي، إثر خلاف دموي بين الصحابة المبشرين بالجنة، علي بن أبي طالب ضد عائشة زوج النبي، ثم عائشة ضد عثمان بن عفان، وابن عباس ضد علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم جميعًا).

وفي الوقت الذي فلسفت فيه المذاهب الإسلامية "الفتنة" في العراق، والأندلس، وفارس، و"حللت" آثارها ونتاجها؛ اختار السنة الاعتصام بـ"حب رسول الله" فقط، عسى أن يعصمهم من أفكار جمحت وجدليات شطحت.. وثغرات اتضحت - حسب قولهم، فالنتائج الدينية والتاريخية التي ترتبت على الفتنة الكبرى.. وحرب المبشرين، وقتلهم بعضهم بعضًا.. كانت خطيرة، اكتفي فيها السنة - فقط - بالإعراض عن الدخول فيها.. لأن الله أعلم منهم!

ربما لذلك؛ عُرفت "السنة" بين الفرق الإسلامية بـ"الذين قالوا كل من عند الله"، فلا هم نقضوا ولا فحصوا.. ولا درسوا، فكان بديهيًا وسهلًا أن يدخل إليهم الشيعة من باب.. حب رسول الله، وآل رسول الله.[6]

بعدها؛ ركب التشيع على ظهر الجماعات الصوفية، الذين أقاموا الموالد، وتعلقوا

4- قال الإمام مالك في مقدمة الموطأ.. إنه جمع كل ما شهر عن النبي في كتابه. فأخذ الصحيح وغيره. وأخذ القوي والضعيف. وأخذ حتى ما اختلفوا فيه (مقدمة الموطأ لمالك).

5- فيما روى. روى أن الإمام أحمد بن حنبل؛ كان يعمل بالحديث الضعيف. ويجعل منزلته في العمل بعد فتاوى الصحابة. لذلك؛ فإن مسنده فيه الكثير من الضعيف.

وشهر عن الإمام ابن حنبل. قبوله الرواية عن الضعفاء. إذا لم يعرفوا. لذلك روى ابن حنبل عمن لم يشتهر بالضبط. كابن لهيعة وغيره ممن لا يكذبون ويعرفون بالصلاح. على خلاف أهل جامعي الحديث. إذ إنهم يتحرون الضبط في الأصل. قبل الاطمئنان على الشروط المبينة في علم الحديث دراية. ولدى الحفاظ. واغلب الشروط لدى ابن حجر. وباقي الحفاظ.

6- وعرفت السنة أيضًا بالمرجئة. وقيل على العموم "إنهم أرجئوا حساب المخطئ بعد الفتنة الكبرى إلى يوم القيامة". وقيل إن المرجئة طائفة وحدها. وقيل أيضًا: إن المرجئة هم "القعدة". الذين قعدوا. فبعدوا عن الجدل في الفلسفة. واتخذوا سنة أهل المدينة. وتركوا سنة أهل الرأي. والكلام. والاجتهاد بالعراق.

بـ"كرامات الأولياء" و"بركات أضرحة أهل البيت". فقد آمن المتصوفة هم الآخرون بعصمة "الأقطاب" و"حلول الأرواح" و"انتقال الأنوار" من أحفاد النبي (ص) إلى مشايخ طرقهم.[7]

مع تسامح السنة التاريخي، وقعودهم عن "الفلسفة"، لعبت الشيعة سياسة بـ"الدين"، وطمعت في مزيد من الأتباع ببلدان المسلمين ببيارق حب "آل البيت".

في التاريخ؛ فلسف الشيعة الدين؛ فأصابوا، وأخطأ بعضهم، بينما ضمر آخرون السوء.. وفي الحاضر؛ لم يكفوا عن الحيل، طمعًا في المستقبل.. بينما لا يزال أهل السنة غارقين، في الذي غرق فيه البيزنطيون.. ولا يزال "للسلفيين" معارك.. بلا معارك!

إليك هذه القصة عظيمة الدلالة: أعلن الشيعة عام 1990 عن رحلات مقدسة لقبر أم البشر "حواء" في السعودية خلال موسم الحج، ووقتها لم يكن أحد يعرف ما إذا كان المكان الذي تداولوه في إيران هو قبر أم البشر فعلًا.. أم أنها حكايات تراث هي الأخرى.

وفي العام 1991؛ أفتى المجلس الأعلى للمرجعيات في طهران بجواز الوقوف أمام قبر "حواء" بالسعودية في الحج، وفي العام 94 جدد آية الله منتظري فتوى قديمة للإمام الخميني تبيح "التبرك" بمكان دفن "أُم البشر".

لا أحد في إيران تكلم؛ لأن لا أحد يستطيع، لكن منظمة مجاهدي "خلق" المعارضة قالت في لندن إن رجل الأعمال "علي أصغر خبخبائي" وراء فتوى آية الله منتظري.

فشركات "خبخبائي" هي التي تنظم رحلات الحج، وهي التي أضافت رسومًا إضافية لزيارة قبر "حواء".

عند الشيعة؛ لا راد لكلام المرجعيات، دينيًا هم لا يُسألون عما يفعلون، لذلك؛ ذهب الإيرانيون الشيعة إلى مكة، ومعهم مختصر قصة أُمنا حواء وأبينا آدم للإمام ابن كثير، بعدما أوصاهم الأئمة في قم الإيرانية بقراءتها أمام القبر.

7- والحلولية. إحدى الجماعات التي ظهرت بعد دخول الإسلام فارس. ودخول الموالي الإسلام.

ويقول الحلولية.: إن روح الإله حلت في علي بن أبي طالب (رض). وإن علي (رض) بعد مقتله. حلت روحه في الأئمة المختارين من أبنائه من بعده. وظلت هكذا حتى حلت في الإمام الغائب أو المستور "الإمام المهدي" لدى الشيعة الإمامية.

كأن أئمة الشيعة يأخذون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه، فالذين رفضوا تفسيرات عمر بن الخطاب للقرآن، ولعنوه، بعدما طعنوا فيه، كما طعنوا في "معاملات" أبي بكر وعائشة، آمنوا بـ"ابن كثير"، وصدقوا كلامه رغم كثير من "الخزعبلات".

كتب ابن كثير أن آدم هبط من الجنة في الهند، وصدق الشيعة، وقال إن حواء هبطت في منطقة ما بالسعودية، سموها فيما بعد "جدة" لأنها مهبط جدتنا جميعًا.. وصدق الشيعة أيضًا.[8]

وبعد رحلة بحث؛ عرف آدم حواء على جبل "عرفة"؛ فسماه العرب (عرفات) فيما بعد، و"أزلفت" حواء إلى آدم بالمكان الذي سُمي فيما بعد بـ"المزدلفة"، وصدق الشيعة مرة ثالثة!!

قال ابن كثير والطبري: إن آدم عندما هبط من الجنة كان رأسه في السماء، وقدماه على الأرض، وقالا إنه ـ عليه السلام ـ كان يرى الملائكة، لذلك خافت الملائكة منه، ودعوا الله أن يخفض قامته فلا يراهم.. ولا يرونه!![9]

ابن كثير كان "على قده"، وكثير من الذي أخذه من قصص كانت متداولة في الحضارات القديمة، في فارس وسومر، ولما نقلها اليهود للعرب؛ لم يجد كثير من المسلمين في تناقل هذه القصص على أنها وقائع حقيقية أية مشكلة!

كل ما ناب الحجاج الإيرانيين أنهم خسروا الرسوم التي دفعوها قبل طيرانهم من إيران لزيارة قبر "جدتنا حواء" في السعودية، بينما لا القبر قبر حواء، ولا هو فرض ديني بزيارته إن كان. لكن دلالة القصة في تسليم الشيعة بكلام المرجعيات.. وإيمان مرجعيات الشيعة بأي كلام، بينما كثير ما ينقل إلينا المتصوفة وبعض مشايخ السلف ما يخترعه الشيعة.. فتكون أزمات.

مرجعيات الشيعة قاسية قلوبهم، وفيها مرض؛ فزادهم الله مرضًا، كما زاد المتصوفة الذين لعب بهم الشيعة فدخلوا منهم إلى السنة، وقالوا سلامًا.. مع أنه لا معهم سلام.. ولا يحزنون.

8- يرجع ابن كثير في مقدمته "البداية والنهاية". إلى جواز النقل عن كتب "أهل الكتاب". القديمة. ويحيل جواز الأخذ من تراثهم إلى حديث منسوب للنبي (ص) بجواز الأخذ من قصصهم في التفسير.

9- تاريخ الأمم والملوك.

بعد عام 2003؛ أشارت متوسطات حركة السياحة الإيرانية للقاهرة إلى ارتفاع ملحوظ في النسب مقارنة بأعوام ما قبل الألفية الجديدة.

لم تكن البيانات رسمية، مع ذلك بدا العمل الشيعي "التحت أرضي" واضحًا خلال السنوات الأخيرة، ما يشير إلى أن المسرح المصري كان أحد أهم قاعات العرض الشيعي على مستوى الدول الإسلامية.

أحد الفروق المهمة بينهم، وبين باقي المذاهب الإسلامية، تفضيل الشيعة التعامل بوصفهم قومية لا ينتمون في الغالب للمجتمعات التي يعيشون فيها.

وبعد ثورة الإمام الخوميني في إيران؛ كانت الجماعات الصوفية الباب المفتوح لمحاولات نشر التشيع في مصر، فكانت أحداث، وقصص لم يتبينها الرأي العام إلا بعد وقوع الفأس في الرأس.

عام 2007 مثلًا؛ أثار حكم القضاء الإداري برفض طعن أعضاء الطريقة الصفوية النقشبندية "الصوفية" على عدم موافقة الحكومة المصرية إشهار جماعتهم بلبلة من العيار الثقيل، اعتقد الحقوقيون وقتها أن الدولة تتعمد التضييق على التيارات الدينية، خوفًا من الإخوان المسلمين.. مع أن الموضوع كان أكبر.

فقد عادت المحكمة للأزهر الشريف، وأقرت لجنة مشكلة من علمائه منع إشهار الطريقة الصفوية، بعدما صنفوها من "غلاة الصوفية"، وحسبوها بصورة ما على "غلاة الشيعة".[10]

لم تكن معظم قضايا الصوفية في ساحات القضاء مسائل "حقوقية"، بقدر ما كانت حلقة في سلسلة متصلة من "أغراض ومآرب شيعية".

حتى الضربات الأمنية للتنظيمات الشيعية في مصر منذ عام 1987حتى عام 1996؛ لم تدلل فقط على تحول "الشيعة إلى ما يشبه" "الجيتو العالمي"؛ إنما أشارت

10- غلاة الشيعة، هم الذين بالغوا في ألوهية علي بن أبي طالب، والأئمة من بعده، وقالوا بالحلول، والرجعة، والحلول هو حلول روح الإله في علي وأبنائه، والرجعة، هي رجعة المختارين من الموت، أو هيام أرواحهم، وانتقالها بين الزمان والمكان، قبل وبعد موتهم.

وفي التعريفات، مذاهب في تعريف الغلاة، ووارد سيرهم المختلفة في كتب التراث، والسير، وتواريخ الخلافات الإسلامية.

أيضًا إلى التخطيط "الأخطبوطي" للمؤسسة الشيعية العالمية التي اعتمدت طهران لها ميزانية ضخمة، زادت على مليارين ونصف المليار سنويًا؛ لتنفيذ ما سمته بـ"التقارب" الشيعي السني في الدول الإسلامية السنية.

بعد عام 1990؛ نجحت الاستراتيجية الشيعية في إحداث بؤر نفوذ ذات ثقل في بعض الدول التي تحوي بالفعل أقلية كبيرة من معتنقي مذهبهم.

بعد ثورتهم في إيران، طرقت المؤسسات الشيعية أكثر من باب لنشر مذهبهم في الشمال الإفريقي "بداية من القاهرة"، في الوقت نفسه ظلت سياسات الشيعة حول العالم محددة بسياسات طهران؛ إذ إن غالبًا ما تأثر سلوك المواطنين الشيعة في البلدان الإسلامية باتجاهات وسياسات الحكومة الإيرانية.

لم تكن الطرق الصوفية همزة الوصل فقط بين الآلة الشيعة العليا في إيران وأفرادها في القاهرة؛ إنما بدت أيضًا الهيكل الإداري الرسمي للمسرح الشيعي في مصر.[11]

تعمد استغلال الشيعة للمتصوفة، ونجاحهم في هذا أسبابه كثيرة، أهمها عدم إدراك كثير من الصوفية للخط الفاصل الرفيع بين التصوف والتشيع، فهم لم يفطنوا إلى التشابه التاريخي بين الفكرين، لذلك؛ كان بديهيًا أن تكون الجماعات الصوفية أول باب تنفتح مصاريعه.. بدعوى "التقارب" بين السنة والشيعة.

لم يعد مستغربًا إذًا أن يعتبر نسبة لا بأس بها من مراقبي الحركة الشيعية، مع قدر لا بأس به من المحللين أن زيادة الطرق الصوفية في المجتمعات السنية؛ كان دليلًا قاطعًا على التوغل الشيعي، أو على الأقل، مؤشر واضح على أن ثمرة جهد المرجعيات الإيرانية التوسعي قد بدأ يؤتي أكله.

ثم جاء زمن لم تعد فيه الجملة القائلة إن «مصر سنية المذهب شيعية الهوى»، مقصورة الاستخدام على الموائد الدبلوماسية ولقاءات السفراء من قبيل المجاملات؛ إنما تحولت الجملة إلى طرح طبيعي في الشارع المصري، أسهمت فيه عدة عوامل، كانت

11- راجع نماذج "تحول الدين إلى أيديولوجيا". التنشئة السياسية للجماعات الدينية. مرجع سابق. وراجع أيضًا. تأكيد الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيب. شيخ الأزهر أن الأزهر لن يسمح بنشر التشيع في بلاد السنة. مؤكدًا أن الأزهر يقاوم هذا الفكر "التوسعي" في لقائه بعدد من علماء الدين اللبنانيين. ممثلين لمختلف الطوائف شهر يوليو عام 2011 كمثال.

نفسها العوامل التي لعبت عليها مؤسسات الشيعية، واستطاعت عن طريقها تحويل الكثير من المصريين لمذهبهم بدءًا من منتصف السبعينيات.

ووقع الأزهر الشريف نفسه في "الفخ" في البداية، ففي حين تعامل كبار الأزهريين مع الشيعة كمذهب؛ فات عليهم ملاحظة أن طرح الطرف الآخر للتعامل مع المذهب السني كان مختلفًا.

«الحياء» الأزهري مثلًا، مع خليط من النوايا الحسنة؛ هو الذي كان مسئولًا عن تأسيس ما سمي «بدار التقريب» بين المذاهب الإسلامية «عام 1947».

كانت مبادرة من كبار شيوخ السنة، الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم والشيخ مصطفي عبد الرازق وآخرين.

لم يكن مثيرًا وقتها أن يتولى أمانة "دار التقريب" القطب الشيعي محمد تقي القمي ومحمد حسن بروجردوي، تمامًا كما لم يكن متوقعًا أن تحول تلك القيادات "دار التقريب"، وبسرعة، إلى أحد أهم مراكز نشر التشيع في القاهرة.

كانت "دار التقريب" بداية على الورق، قبل أن تدخل الفكرة مركز التدريب، ليظهر وجه التقريب الآخر؛ فيتحول كثير من السنة إلى المذهب الشيعي، ويكون معظم المتحولين من المفكرين.. والدعاة!

صحيح لم يكن هؤلاء المتحولون أسماء لامعة، ولا كانوا مؤثرين للدرجة التي يمكن اعتبار الظاهرة "غول" يُخشى منه، لكنها كانت ـ رغم ذلك ـ ملاحظة لها دلالات لا يمكن تجاهلها.

فخلال الثلاثين عامًا الماضية؛ تحول الكاتب صالح الورداني من المذهب السني إلى المذهب الشيعي عن طريق وافدين من دول الخليج، وتحول الشيخ الأزهري «حسن شحاتة» للمذهب الشيعي أيضًا في الثمانينيات.

وفي العام 85؛ انفصل أحمد راسم النفيس عن جماعة الإخوان المسلمين، واعتنق المذهب الشيعي، وألف خلال رحلته في التحول كتبه المشهورة «الطريق إلى آل البيت» و«أول الطريق» و«على خطى الحسين» قبل أن يتم اعتقاله في قضية التنظيمات الشيعية

بالقاهرة عام 1987.

وتشيع المستشار الدمرداش العقالي من مدخل حب "آل البيت" كما أعلن وقتها، وكانت ملاحظة هي الأخرى مهمة.[12]

فقد كان "حب آل البيت" القنطرة التي عبر منها "التشيع" لمناطق النفوذ السني، مثلما كانت هي القنطرة التي عبر منها الشيعة العبيدية إلى السنة المصريين خلال الخلافة الفاطمية، فنفذوا إليهم، وحكموهم وتحكموا فيهم، ثم خرجوا وتركوا فيهم كثيرًا من العقائد، وكمًا هائلًا من الخرافات عن الأولياء والأقطاب، وأهل الخطوة.. والمبروكين لا كان المسلمون يعرفونها من قبل، ولا سمع عنها أحد عنها من غيرهم فيما بعد.

أثر الفاطميين ظل نافذًا في نفوس المصريين إلى الآن، حتى إن بعض المراقبين للحركة الصوفية في مصر والسودان لا ينكرون التشابه إلى حد التطابق بين الكثير من أفكار الصوفية المصريين، وعقائد (الاثنا عشرية)، والزيدية، والإسماعيلية والبهرة.. وكلها من فرق غلاة الشيعة.

دخل الفاطميون العبيديون للمسلمين السنة في شمال إفريقيا والسودان من باب "آل البيت"؛ فنسبوا أنفسهم لفاطمة الزهراء «رضي الله عنها»، رغم أن صحة هذا النسب لا تزال محل جدل الكثير من التاريخيين حتى الآن.[13]

سمى العبيديون أنفسهم بالفاطميين، وحكموا من «358هـ» حتى «567هـ»، ثم دخلوا مصر في عهد المعز لدين الله قادمين من المغرب، بعدما أسسوا دولتهم هناك.

وينسب كثير من المراجع العبيديين لعبد الله ميمون القداح بن ديصان الفارسي «من الأهواز»، ويقال إن عبد الله كان مجوسيًا مؤمنًا، قبل أن يتحول إلى واحد من أشهر دعاة المذاهب «الباطنية» التي خلطت بين الإسلام وعقائد المجوس!!

بعد موت بن ميمون، تولى ابنه «أحمد»، ثم ابن ابنه الحسين، ثم أخوه سعد ثم

12- كان "محبة آل البيت" قنطرة الشيعة الأساسية في النفاذ إلى البسطاء من المصريين. وفي سائر البلاد الإسلامية. بعد ثورة الخميني على نظام شاه إيران. وبدء العمل بما سُمي "ولاية الفقيه" حديثًا.

13- راجع. الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية. محمد عبد الله عنان. الطبعة الثانية. مؤسسة الخانجي 1959. وهوامش تاريخ الدولة العبيدية. مصادر مختلفة. والخلاف في نسب الفاطميين.

سعيد المشهور بـ«سلمية»، وينسب لسلمية الشروع في نشر التشيع العبيدي، بما فيه من مخالفات كثيرة لمعقولات الإسلام.[14]

ولما حاول الخليفة «المكتفي» القبض على "سلمية"، فر إلى المغرب ولقب نفسه بعبد الله المهدي، وادعى أنه من آل البيت، من نسل الإمام جعفر الصادق!!

والخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله هو صاحب أشهر السير لمنْ حكم مصر من الشيعة، وهو الذي ادعى الألوهية، وبعث فرقًا من المعلمين الشيعة للأقطار الإسلامية يبشرون بتناسخ الأرواح، وحلولها في أجساد الأحياء بعد خروجها من أجساد المتوفين الصالحين.[15]

ومن الشيعة طوائف يعتقدون لليوم في انتقال الروح من آدم «عليه السلام» لعلي بن أبي طالب «رضي الله عنه». كما يعتقدون في انتقال روح علي «رضي الله عنه» لروح الحاكم بأمر الله، في الوقت الذي يؤمن فيه كثير من المتصوفة بما يشبه هذا.

فأغلب المتصوفة يؤمن بالحلول، أو حلول أرواح الصالحين في أتباعهم. ويؤمنون بأن أجساد أقطابهم لا تبلى بعد الموت ولا تتحلل، كما لا تبلى أجساد صحابة النبي (ص) وأهل بيته ولا تتحلل هي الأخرى!!

وتعتبر طائفة "البهرة" جامع الحاكم بأمر الله في حي الحسين، حتى اليوم، مزارًا ومكان حج رئيسيًا للطائفة الإسماعيلية، بينما يعتقد كثيرٌ من المتصوفة في "كرامات

14- راجع: الغزالي وفضائح الباطنية. الدكتور عبد الرحمن بدوي. دار الكتب الثقافية. الكويت. وأحمد حميد الدين الكرماني "راحة العقل" بيروت. 1957.

15- زعم الفاطميون أن الحاكم بأمر الله هو الله. وأقروا دعوته على ذلك. وقالوا إن الحاكم هو الذي بعث علي بن أبي طالب. وهو الذي أرسل محمد (ص). وإن الحاكم بأمر الله هو آخر الأنبياء وليس محمدًا.

ويعتبر الباحثون في تاريخ الدولة الفاطمية: أن تلك الدعوة كانت بداية تأسيس مذهب الدروز على يد حمزة بن علي الزوزني. أحد وزراء الحاكم بأمر الله. وأئمته. وثبت في بعض المراجع ادعاء حمزة بن علي الألوهية للحاكم بأمر الله. وهو الذي رسخ لدى الفاطميين الإيمان بتناسخ الأرواح. او ما سُمي بـ"الحلول". وقال حمزة بن علي. أو شُهر بعد فراره إلى الشام. إن روح آدم أبي البشر قد تلبست روح الحاكم بأمر الله. بعد انتقالها من جسد آدم. إلى جسد علي بن أبي طالب. ثم إلى الحاكم. لذلك: رأى ابن علي الزوزني. ومن بعده طوائف البهرة. وكثير من الشيعة الإسماعيلية: أن الحكم بأمر الله ليس إنسانًا كباقي البشر: لأن روح آدم عندما دخلت إلى جسده. اصطحبت معها الروح الإلهية.

يراجع في ذلك كتاب "ميثاق ولي الزمان" للإمام الفاطمي الزوزني. وكتاب الزوزني "النقض الخفي". وراجع تاريخ الأنطاكي. وخطوط الذهبي. مجلد 22. في وفيات عام 411. والنجوم الزاهرة لملوك القاهرة. ابن تغريبردي. ج 4. وما العميد. لابن المكين.

الحاكم بأمره"، وسيطرته على كثير من أمور الدنيا، منذ وفاته إلى الآن.[16]

رغم الرفض الأزهري فترة ما بعد الثمانينيات للكثير مما ظهر في عقائدهم مخالفًا للإسلام؛ لا يسلم الشيعة المصريون بشذوذ مذهبهم، بينما لا يعتقد نصف الشارع المصري في هذا أيضًا.

فالذي حدث أن تحول الحديث عن "التشيع" لدى المصريين، إلى مرادف للحديث عن حب أهل النبي (ص)، بينما بدا لدى كثير من العامة أن الانخراط في فلسفة الشيعة، هو الوجه الآخر "للهيام في ملكوت النبي"، وهو المفهوم الذي كثيرًا ما يدور حوله الصوفية في الحديث.. وفي الجدل.

إسلاميًا؛ لا كان لحب النبي "ملكوت"، ولا كان لآل بيت رسول الله طقوس في استدعاء أرواح الصالحين، إضافة إلى أنه لم يرد في الأثر ما يمكن أن نسميها طرقًا تمكن المسلمين من التعلق مع أولياء الله في حبال تجعلهم يتكلمون.. ويتخاطرون، فيسمعهم المؤمنون.. بعد أن مات الأولياء بسنوات.

توغل المتشيعين السريع بين العامة حسبما ظهر من ملفات قضايا التنظيمات الشيعية؛ فجر أكثر من مفاجأة، وأطلق أكثر من علامة استفهام.

فأفكار الشيعة لم تكن مناسبة لمعتقدات السنة، رغم ذلك آمن الكثيرون.

والشارع المصري الذي كان قد بدأ في الميل مع نهاية ستينيات القرن الماضي خطوات قليلة بعيدًا عن المغالاة، سرعان ما لم يلحظ الاختلاف بين الطرح الشيعي، والطرح الصوفي، وبين معقولات الدين، لذلك؛ كان غريبًا ألا تثير أفكارٌ عقائدية جديدة أية علامات استفهام في الأوساط الدينية بداية من السبعينيات.

في العام 1996؛ اكتشفت السلطات المصرية أن الشيخ (ح.ش) (تخرج في جامعة

16- راجع مقدمة ابن خلدون. في الحشاشين. والإسماعيلية. وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان. وتاج العقائد ومعدن الفوائد. لابن محمد الوليد. وأبو الحسن بن إسماعيل الأشعري "مقالات الإسلاميين في اختلاف المصلين". ومصادر مختلفة في معتقدات البهرة الإسماعيلية. وما كتبه عن الإسماعيلية. البغدادي في "الفرق بين الفرق".

وفي التشابه بين فكر الكثير من المتصوفين والفكر "الغنوصي الشيعي" راجع: "معجم اصطلاحات الصوفية" للكاشاني. و"قطر الولي على حديث الولي" للشوكاني. ومفهوم الولاية في الفكر الصوفي.

الأزهر، ثم عمل إمامًا معينًا في وزارة الأوقاف لمسجد الرحمن بالجيزة)، استغل خطبة الجمعة سنوات في الحديث عن العقيدة (الاثنا عشرية) من دون أن يستوقفه أحد من المصلين السنة.

واكتشفوا أيضًا ضلوع (ح.ش) في استقطاب عدد لا بأس به من الطلاب الشيعة العرب، ودعوتهم للإقامة في القاهرة، واستضافتهم أحيانًا كثيرة لتعريفهم بالشيعة المصريين.. من دون أن يلحظ أحد.

منذ نهاية السبعينيات؛ لم تعد القضية مجرد مجموعة من "محبي النبي"، ولا الهائمين وراء "أرواح آل بيته"، فقد تطورت بدخول التسعينيات، وما بعدها بإلقاء القبض على (م.ي.أ)، الذي اتهمته النيابة بتزعم تنظيم ديني أسس على خلاف القانون، عرف بتنظيم "شيعة محافظة الشرقية"، شاركه فيه الشيعي (م.ع.أ)و(م.ع.د)، «الطبيب البشري» الذي اعتقل عام 89.

كان الأمن قد رصد تحركات مختلفة، لمتشيعين كثيرين، منهم مثلًا؛ (س.أ.ح) «وكيل الشيعة في مصر»، و(م.أ) الموصف بـ"زعيم شيعة حي الإشارة" بالزقازيق، و(م.د) الإمام المتشيع بقرية ميت سنقر ـ محافظة الدقهلية، إلى جانب (أ.ش) «مؤلف كتاب الثورة الإيرانية»، و(ف.أ) و(ر.ح) حميدة العضو النيابي الذي استغل الشيعة جريدته «فترة ما» في الترويج لمذهبهم واستجاب هو لذلك!!

ومنذ العام 1987؛ كان المثير انتشار التنظيمات الشيعية المرصودة على نطاق جغرافي موزع بين المدن الكبرى والقرى الصغيرة.

تنظيم عام «87» على سبيل المثال؛ ضم العشرات من الشيعة الذين تحولوا للمذهب حديثًا، بعدها حاولوا تشييع أسر وعائلات بأكملها وسط الدلتا؛ خصوصًا في محافظتي الشرقية والدقهلية.

وحسب ما نشرته الصحافة وقتها؛ فقد كانت ثمة علاقة واضحة ما بين تلك التنظيمات، والمرجعيات الشيعية بمدينة قم الإيرانية.[17]

فقد ضمت أحراز التحقيقات ما يفيد تحصيل هذه التنظيمات أموالًا من الخارج، إضافة إلى اعتراف بعض المتشيعين المصريين، بأن لهم نصيبًا من "الخمس" في أموال شيعة إيران.

في العام 88؛ ألقي القبض على 4 عراقيين واثنين من الطلبة الكويتيين؛ إضافة لطلاب بحرينيين ولبنانيين وفلسطيني وباكستاني من المقيمين في مصر، ووجهت لهم النيابة تهم نشر فكر الشيعة وتأسيسهم دار نشر لهذا الغرض.

وفي العام 89؛ قبض على تنظيم الـ52، وكان بينهم أربعة خليجيين وإيراني قبل القبض على التنظيم الشيعي الأكبر عام 96، الذي كان قد تشعب ـ حسبما نشر أيضًا في أكثر من 5 محافظات مصرية كالأخطبوط.

انحصر اكتشاف تنظيمات الشيعة الكبرى في مصر بين أوائل الثمانينيات ومنتصف التسعينيات، وهي الفترة نفسها التي بدأت المرجعيات الشيعية في طهران ومدينة قم تغيير استراتيجية عملها في الشرق الأوسط بمليار دولار.. إضافه لمليار ونصف المليار في أوروبا!!

17- في مقابلة لشيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب. شهر يوليو 2011 مع وفدين من «حزب الله» و«إيران»: قال الإمام الأكبر: إن الأزهر سيقف بالمرصاد لكل دعوات «التبشير والتشييع». وقال الإمام الأكبر ـ بعد تلقيه رسالة لزيارة طهران ـ لوفد حزب الله: "إن ما تحقق سلفًا من مواقف وطنية ورصيد نضالي لا ينبغي تبديده بمواقف حزبية أو طائفية أو نظرات إقليمية ضيقة". وطالبهم بالنظر إلى مصالح الأمة كلها من دون أي اعتبار آخر. كما طالب الدكتور الطيب. أعضاء الوفد الإيراني ـ بإبلاغ رئيس مجلس الشورى الإيراني بضرورة الإسهام في مسيرة التفاهم والتعاون بين المذاهب الإسلامية ونشر ثقافة التسامح بدلًا من «الحقد والخلاف». واستصدار فتاوى واضحة وصريحة تدين من يدعو بدعوى الخلاف والفرقة والهجوم على الصحابة والتابعين وأمهات المؤمنين. الذين ورد بالقرآن الكريم احترامهم والثناء عليهم. وجدد شيخ الأزهر رفضه الشديد لكل دعوات التشيع في مصر. مؤكدًا أنها دعوات مرفوضة. وأن الأزهر سيقف بالمرصاد لكل دعوات التبشير والتشيع.

بسم الله الرحمن الرحيم

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة البقرة

الشيخ "عباطة" لا يعرف اللّٰه!

(1)

بعد الثورة الفرنسية؛ كتب "إدموند بيرك" أن المجتمع الذي آمن بـ"الحقيقة الدينية الواحدة" بعد الثورة، هو نفسه الذي رفض "الدوجماتيك"، بعدما اكتشف آثار "الأصولية" التي تملكت دولة فرنسية سيطر عليه رجال الدين.[1]

ولما جاء "مارتن لوثر كينج"؛ كشف ما أدت إليه "الدوجماتيك"، من دخول "أساطير" على العقائد، إلى الحد الذي تحولت فيه "الأساطير" على يد رجال الدين فيما بعد إلى جزء لا يتجزأ من صلب العقائد، أو معلوم من العقائد بالضرورة.

الثورات "انقلابات" اجتماعية في الغالب، وفي "الانقلاب الاجتماعي" غالبًا ما يلجأ العوام إلى دين أعادوا صياغة مسلماته من أنفسهم.

لذلك؛ أسهب "بيرك" في الكلام عن "استغلال" التيارات السياسية لرجال الدين، ومحاولات هذه التيارات للإيقاع برجال الدين وسط دوائر غير دينية تحت دعاوى عقائدية، بينما لم يتمكن رجال الدين من ملاحظة هذا.[2]

ففي أزمات اجتماعية كثيرة، تأرجح رجال الدين، أو "الثيوقراط" كثيرًا بين نظريات عقائدية لم يفحصوها، وبين أطماع سياسية لم يفطنوا إليها.

مثلًا؛ لاحظ "دور كايم" أبو علم الاجتماع "ظهور طبقات من الكهنة مزجت آراؤهم بين أفكار الكتب المقدسة وفكر العوام"، ثم اكتشف "دور كايم" أن هذه الطبقات من الكهنة؛ هي التي عادة ما تستغلها التيارات السياسية.. من دون أن يفصح السياسيون، ومن دون أن يلحظ الملعوب بهم![3]

1- الأصولية والإسلام مراد وهبة.

2- المرجع السابق .

3- راجع "تكوين العقل العربي". للدكتور محمد عابد الجابري. سلسلة نقد العقل العربي "مركز دراسات الوحدة العرقية بيروت" وفيه يتكلم عن النموذج المعرفي الذي يخلق "عقلًا مغلقاً" يدعى امتلاك الحقيقة. وهو ما يدعم قيم التسلط. لادعائه أنه على اتصال مباشر بالذات العليا (الإلهية). ومعارف هذا العقل. لا مجال للبرهان العقلي فيها. لأنها هبة إلهية.

ملاحظة "دور كايم" كانت إلى حد ما صحيحة، فبعد ثورة "عرابي باشا" وهزيمته في "التل الكبير"، دخلت الصوفية إلى دلتا مصر وصعيدها، بوصفها إحدى تداعيات هزيمة عرابي.

أكثر "المتصوفة" الذين ظهروا بعد ثورة عرابي كانوا مهديين، دعوا لمطالبات الإمام المهدي السوداني بضرورة الانفصال عن مصر.. من خلال الدعوة لـ"حب آل البيت".

وانخدع المصريون في المهدية؛ فروجوا لمطالبهم من منطلق "ديني"، رغم أنه لم تكن هناك علاقة بين رغبة "متصوفة" سنار السودانيين في الانفصال عن مصر، وبين "التشيع لعلي وفاطمة" أو "حب الحسن والحسين"، أو الهيام في "آل البيت" والعترة النبوية.

وعندما داهمت الشرطة المصرية مجمع خدمات الطريقة الهاشمية الصوفية في البحيرة أوائل عام 2009؛ لاحظوا جدارية كبيرة للإمام الحسين كتب تحتها "لبيك يا حسين"؛ فسألوا شيخ "الطريقة الهاشمية" وقتها عن سبب تعليق الجدارية؛ فقال: "بركة"، مع أن السنة لا يتبركون بصورة الحسين، ولا يعتقد أكثرهم أن الإمام الحسين (رض) يمنح الكرامات.

الشيخ "الصوفي" لم يلاحظ أن صورة الإمام الحسين، طبعتها جريدة "كيهان الإيرانية الشيعية".. قبل سنوات من حصوله عليها، وكتبت أسفلها بالفارسية.. وبخط بالغ الصغر "بركة مولانا الحسين.. من كيهان"!!

يمكن القول إنه كان هناك من استغل "بركة الحسين" في النفاذ بالسياسة، وربما كان هناك من استعمل الصوفية للتغلغل بين المصريين، وإن هناك ما لا يزال "الصوفية" يرفضون تصديقه، ولا يرغبون في الاعتراف به.

لما بحث بعض علماء الحملة الفرنسية في السبب وراء تمسح المتصوفة المصريين بالأضرحة، واعتقادهم في أن الأولياء المدفونين بها لا يزالون أحياء، يراقبون العالم من المقابر؛ قالوا إن الشيعة المغاربة هم السبب، فلا المصريون قدسوا أضرحة الأولياء قبل ذلك، ولا رموا فيها طلباتهم من الله بخط اليد إلا بعد دخول وخروج الفاطميين من

مصر.[4]

بعض الفرنسيين قال إنه في الفترة بين دخول "نابليون" مصر وخروجه؛ ظهر 27 ضريحًا جديدًا، لـ27 "وليًا" في القاهرة ودمياط والشرقية والوجه البحري، وهي نسبة كبيرة من أضرحة تظهر خلال أقل من 3 سنوات.

ناقش الفرنسيون المصريين في ذلك، لكن علماء الأزهر هاجوا وماجوا ودخلوا الجامع الأزهر وصلوا جماعة، لأجل أن يخسف الله الأرض بـ"نابليون" الذي يسأل أصحابه عن أشياء إن تبدوا لهم تسؤهم؛ فاستغرب الفرنسيين من جديد.

وحتى خرجت حملتهم من مصر.. لم يعرف الفرنسيون السر في انتشار "أضرحة المجاذيب"، كما لم تعرف هيئة الآثار المصرية أسرار مقام "الشيخ عباطة"، ولا عرفت من الذي أطلق على المغربي "حسن الذوق" لقب "سيدي".

لم يعرف الآثاريون أيضًا كيف نشأت مقامات الشيخة سناء والشيخ عصام والشيخ

4- راجع النبهاني في "جامع كرامات الأولياء". وعادة إلقاء البسطاء المصريين لأوراق كتبوا فيها مطالبهم من أصحاب الأضرحة. لا تزال شائعة. ولاحظ بعد الباحثين انتشارها بعد هزيمة 1967. وكتب في ذلك الدكتور على فهمي أستاذ علم الاجتماع السياسي، وجرى في ذلك مقابلة خاصة مع الدكتور فهمي بواسطة المؤلف.

ومخاطبة "أولياء الأضرحة" مكون أساسي لدى المتصوفة المصريين. وهو ما يشير إليه الباحثين بوصفه موروثًا شيعيًا. انتقل من الفاطميين إلى المصريين. وكما لا يزال فكرًا معتدًا به. وعقيدة لدى الشيعة الإماميين. فالشيعة الإماميون يعبدون قبور أئمتهم. فيذبحون عندها. ويتبركون ويحلفون بها.. ويطلبون منها قضاء حاجاتهم.. ويسجدون ويركعون عندها. وقبر الحسين بن علي له عند الشيعة قدسية خاصة. وتكلم "المجلسي" في "بحار الأنوار" عن تربة الحسين وفضائلها. وقال إن الإمام جعفر بن محمد قال: "حنكوا أولادكم بتربة الحسين فإنها أمان". وقال: " عندما تذهب إلي قبر الحسين تعلق بالضريح وقل "يا مولاي يا ابن بنت رسول الله. إني آخذ من ترتبك بإذنك وسماحك: فاجعلها شفاء من كل داء. وعزًا من كل ذل. وأمنًا من كل خوف. وغني من كل فقر".

وقد طلب "آية الله الخميني" من أتباعه ومريديه. أن يأكلوا من تربة الإمام الحسين للاستشفاء بها.. وقال في كتابه "تحرير الوسيلة": " يستثنى من الطين. طين قبر سيدنا أبي عبد الله الحسين ـ عليه السلام ـ للاستشفاء.. ولا يجوز أكله بغيره. ولا أكل ما زاد عن قدر الحمصة المتوسطة. ولا يلحق به طين من غير قبره. حتى لو كان من قبر النبي " صلى الله عليه وسلم". أو الأئمة ـ عليهم السلام.

ويقول "محمد بن حسن في كتابه" نور العين في المشي إلى زيارة قبر الحسين" (طبعة بيروت): "إن زيارة قبر الحسين توجب العتق من النار.. وإن زائر القبر يُعطى له يوم القيامة نور يضيء ما بين المشرق والمغرب.. وإن الزيارة تعدل الإعتاق والجهاد والصدقة والصيام. وتعدل اثنتين وعشرين عمرة. وتعدل أيضًا حجة لمن لم يتهيأ للحج.. وأن الله عز وجل يقوم بزيارة الحسين في قبره كل ليلة جمعة"!! "ويتجلى لزوار القبر ويخاطبهم بنفسه"!!

".. حتى أن محمد بن عبد الله ـ صلي الله عليه وسلم". وإبراهيم الخليل. وموسي بن عمران وسائر الأنبياء والملائكة يسألون الله. سبحانه وتعالي أن يأذن لهم بالزيارة.

ويقول "محمد بن حسن" كذلك أن زيارة واحدة لقبر الحسين بن علي ـ رضي الله عنه. تعدل ثلاثين حجة مبرورة.. وأن من يقوم بالزيارة يكتب الله اسمه في علّيين!!

ياسر، ولا كيف قدسهم المصريون، وصاروا يلقون إليهم بخطابات مكتوب فيها طلبات، بينما كان كل هؤلاء "المشايخ" في الواقع "متخلفين عقليًا" في حياتهم، وكانوا أطفالًا قبل مماتهم.. لم يتعد أكبرهم الخامسة عشرة من العمر!!

يعني؛ لا كانوا أولياء ولا دياولو.

عند الجبرتي؛ أن المغربي "حسن الذوق" الذي نصبه المصريون "سيدي": أراد أبناؤه إعادته لبلاده لما تقدمت سنه، ولما رفض أجبروه على لملمة حاجياته للسفر غصبًا عنه؛ إلا أنه لمّا وصل إلى باب الفتوح.. مات من حسرته، أو كمدًا.. فالرجل الذي عاش في مصر فترة، كان يود أن يموت فيها، حتى مات فعلًا.. وتحقق له ما أراد.[5]

لذلك؛ حفظ المصريون سيرة حسن الذوق، وظلوا يتبركون به، ويقدرونه بعدما عاش بينهم كثيرًا، ورفض أن يعود لبلاده حبًا في القاهرة، وبعد أجيال.. "بقدرة قادر": اكتشف بعضهم أن "حسن الذوق" كان وليًا، وشهر عنه أنه استطاع في حياته إحياء "حمار" لأحدهم، بعد موته بأيام!!

و"الشيخ عصام" كان طفلًا ناقص النمو، ولد عام 1901. بينما كان الشيخ ياسر "متخلفًا " هو الآخر: ولد في إبريل 1971، لأب نجار وأم خياطة.

أما ضريح "سيدي عباطة" صاحب المولد السنوي الكبير بالسيدة عائشة: فلا يعرف له المؤرخون تاريخًا ولا نسبًا، وليس لدى أحد يقين ما إذا كان تحت قبته شيخ من الأساس.. أم لا؟![6]

5- يرى المهندس إبراهيم أبو النجا ـ الخبير في ترميم الآثار الإسلامية. إن أكثر من 50 في المائة من الأضرحة المنتشرة في محافظات مصر "مزيفة". وليست لرفات أولياء كما يزعم البسطاء. حسب تصريحاته للصحافة عام 2009. مع بدء حملة وزارة الآثار تسجيل الأضرحة. وحسب أبي النجا: فإن هناك عددًا من الأضرحة لأناس عاديين لا يملكون كرامات. مدللًا على ذلك بالضريح الذي يوجد على يسار بوابة الفتوح في شارع المعز لدين الله الفاطمي. الذي يقال إن بأسفله قبر "محب القاهرة حسن الذوق". وهو مغربي الأصل هاجر من بلاده إلى القاهرة الفاطمية. ولما تقدمت به السن أراد أبناؤه إعادته لبلاده. ولكنه رفض فأجبروه فمات على مدخل القاهرة. إلا أن أهل الحي جعلوا منه شيخًا ووليًا من أولياء الله. فصنعوا فتحة في القبة لإلقاء النقود ومن ثم الحصول على البركة منه.

وراجع أيضًا "ملامح الثقافة السياسية للمهمشين في مصر المحروسة". للأستاذ الدكتور علي فهمي. في دراسة الثقافة السياسية في مصر بين الاستمرارية والتغيير (مركز البحوث والدراسات السياسية. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. جامعة القاهرة) تحرير الدكتور كمال المنوفي.

6- حسب المهندس إبراهيم أبو النجا: "هناك ضريح باسم سيدي عباطة مقام بمقابر سيد جلال نسبه إلى جلال الدين السيوطي بحي السيدة عائشة. ويقام له مولد سنوي. رغم عدم معرفة أي من الباحثين والمؤرخين به".

كل ما يعرفه المصريون عن هؤلاء "المشايخ" أنهم كانوا أقطابًا "صوفيين"، وأن الصوفية هم أهل الله!

عوامل مختلفة هي التي حولت بسطاء المصريين للتصديق في ولاية "هؤلاء المشايخ"، وهي نفسها العوامل التي حولت المتصوفة إلى "متقاعدين". رغم ذلك؛ لم يكف المصريون عن تداول قصص عن تخاطبهم مع بعضهم بعضًا عبر المسافات والزمن، للحد الذي وصل فيه بعض أبناء الطبقات الشعبية إلى الاعتقاد في إمكانية وجود كثير من هؤلاء "المبروكين" بأماكن مختلفة في الوقت نفسه!

وسرى الاعتقاد في أن بعض "ناقصي النمو" أولياء، أطلق البعض عليهم "مجاذيب"، جذبتهم نداءات السيدة زينب وسيدنا الحسين؛ فتركوا الدنيا واتجهوا إلى ملكوت "آل البيت".

دس الفاطميون على المصريين الأفكار؛ فصدقوها، والنتيجة؛ تحول «المبروكين» إلى شيوخ «منسر» في التكايا، وشغل «المتخلفون» وظائف الأولياء والصالحين، واسترزق من الهبل المجانين أمثال سيدنا عبد القادر الدشطوطي وإبراهيم المتبول!![7]

7- المراجع السابقة. وكلام أبو النجا: "ومن العجائب أن يتم تنصيب طفل أو مجذوب أو مصاب بالتخلف العقلي وليًا: لأنه في الاعتقاد شخص مبروك ودعوته مجابة. ومن أهم القرى المصرية التي اشتهرت بهذه الظاهرة قرية سيف الدين مركز الزرقا بمحافظة دمياط. وفيها قبة الشيخ عصام. وهو طفل ولد مجذوبًا لأب من مواليد 1901 يعمل مفتشًا بأحد المعاهد الأزهرية" و"....... كما أن هناك الشيخ ياسر مواليد إبريل 1971. الذي يعاني من تخلف عقلي لأب نجار وأم خياطة. والشيخة سناء تبلغ من العمر 30 عامًا ولدت بالتخلف العقلي. وهناك زروق المغربي الذي ادعى انه أحيا حمارًا بعد موته بثلاثة عشر يومًا. ويشير إلى أن منطقة بولاق عرفت بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ أبو محمد يوسف عبد الله التكروري. وكان رجلًا تقيًا ونصبه الناس وليًا يمتلك من الكرامات الكثير".

وذكر أبو النجا أن العالم الفرنسي جومار في موسوعة وصف مصر. قال إن الدراويش فئة من المجانين الذين يرسلون شعورهم. ويؤمن بهم العامة في تبجيل أعمى وخارق للمألوف. وأحد هؤلاء ممن رأيتهم بالقاهرة. أشيع أنه يوحى إليه من محمد. وكانت لديه عادة التجول في شارع المدينة عاريًا تمامًا. وكانت النساء حتى ذوات الوضع المتميز فيهن يقفن ويقتربن منه لتقبيل يده بدلًا من أن يتراجعن إزاء هيئته.

وأكد أن الواقع التاريخي يشير إلى أن بداية ذيوع خرافات الأولياء تعود إلى العصرين المملوكي والعثماني. فقد ولدت الخزعبلات على أيدي الدراويش الذين خرجوا من خانقاوات المتصوفة. وهي كلمة فارسية. ومعناها "بيت". ثم أطلقها العامة على مستشفى المجانين وحرفت إلى كلمة "خانكة".

وكانت عند بداية إنشائها على يد صلاح الدين الأيوبي بيوتًا للعلم. إلا أن سلاطين المماليك أعطوها للدراويش والصوفية. وكان كل صوفي يصرف له في اليوم رطل من اللحم الضان المطبوخ وأربعة أرطال من الخبز. علاوة على أربعين درهمًا ورطل من الحلوى ورطلين من زيت الزيتون ومثلها من الصابون.

وفسر ذلك بأنه ربما كان واقعًا لفرار الكثير من قسوة الحياة والرغبة في بسطة العيش من دون عناء الدخول في الصوفية. وهؤلاء انصرفوا عن الذكر والعبادة إلى البحث عن المال والمتاع. وهؤلاء يقول عنهم المقريزي "لا ينسبون إلى علم ولا ديانة وإلى الله المشتكي".

ونتيجة لذلك. تحولت الخانقاوات إلى أوكار تنابلة السلطان. فادعوا الزهد في حين امتنعوا عن أداء شعائر الصلاة. مدعين أنهم يقومون بها في الأماكن المقدسة. ومن هؤلاء عبد القادر الدشطوطي وإبراهيم المتبول. وكان للسلاطين دور كبير في

بعد عشرات السنين من هيام أصحاب العمامات الخضراء في عشق الأضر والمدفونين تحت قباب الأضرحة؛ اتضح أنه ليس دائمًا تحت القبة شيخ، فلا الد عصام كان شيخًا، ولا الشيخ عباطة كان يعرف ربنا من الأساس.. لعتهه!

أكثر أضرحة القاهرة والشرقية والبحيرة ودمياط وكفر الشيخ «مزيفة»؛ لا الرفاد داخلها.. رفات أصحاب كرامات، ولا المدفونون تحت قبابها أصحاب خطوة يتصلور بالله وقتما يحبون، ويظهرون في بلد بينما هم في بلد آخر كما اعتقد المصريون!

مع ذلك يوميًا؛ يرمي عشرات المرضى، والحالمات بالحمل بعد زواج من دون أطفال.. ألوف الخطابات في مقام سيدي "حسن الذوق" عند باب النصر، بعضهم كتب ما يصبوا إليه، وبعضهم شكا وحكى وطلب الصفح والمغفرة، لكن لا المرضى طابوا، ولا النساء حملن.

لما مات « حسن الذوق» عند باب النصر.. ودفن هناك، قال المصريون: «الذوق ما خرجش من مصر»، ثم بنوا مقامًا علي تربته، قبل أن يتناقل أهالي القاهرة قصصًا عن محبة الله له.

الشيخ عصام أيضًا لم يكن وليًا، لكن الدمايطة، أقاموا له موالد، وصنعوا له قصصًا.. وتوسلوا به لله، مع أنه كان مجذوبًا، مات في التاسعة من عمره!

وولد الشيخ ياسر صاحب ضريح البحيرة الشهير عام 1972، بجسم نحيف وعقل خفيف هو الآخر، ولمّا مات قدسوه، وأخذوا منه البركة.. بلا سبب، ومن دون أن يعرف أحد لماذا.[8]

والشيخ ياسر مثل الشيخة سناء التي ماتت في الثلاثين، بعدما قالوا إنها أحيت 3 موتى، ومشت على الماء.. وأبرأت الأكمه والأبرص.. وأخبرت أهل قريتها بما يدخرونه في بيوتهم!!

وحكى علماء الحملة الفرنسية عن الصوفي "المجذوب"، الذي كان يسير في شوارع

مساندة هؤلاء "المجاذيب".. فقد تحول التصوف إلى وظيفة لخدمة السلطان.

8- المراجع السابقة. وراجع د. عمار علي حسن "التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر". ص 470.

القاهرة عاريًا، ولما يقف تتهافت النساء علي تقبيل يده ووجنتيه. قال "جومار الفرنسي" إن أهل القاهرة آمنوا أن الصوفي العريان كان قادرًا على إحياء الموتى، مثله مثل "رزيق" المغربي الذي قال المصريون إنه "انجذب" آخر أيامه، لذلك لما مات حماره، دعا رزيق ربه.. فاستجاب له وأحياه!!

الفاطميون هم الذين صرفوا على المتصوفة ودعموهم، وآمنوا بهم، وهم الذين ورثوا المماليك فكرة بركة «المجاذيب»، وسطوة الدراويش، وولاية خفاف العقول؛ فأصبحت تلك الروايات نسيجًا لا يمكن قطعه من الثوب النفسي للتراث الشعبي المصري.

فيأتي الشيخ عباطة للبعض في المنام، ويخبرهم بأشياء تتحقق، ويسافر حسب رؤيته أشخاص، ويطلق حسب أوامره أزواج زوجاتهم، ويكسب بعضهم، ويخسر الآخر.

وفي كثير من قصص الأحياء الشعبية القديمة، تزور الشيخة سناء كثيرين هي الأخرى فيما بين النوم واليقظة بعد صلاة العشاء، وكثيرًا ما تتحقق نبوءات الشيخ "عصام"، وتصح تهويمات الشيخ "الذوق".

في النهاية تشتد حالات الوجد باتباع الشيخ فلان، وتتزايد ثقة المتصوفة في كرامات الشيخ علان.. فنسمع مزيدًا من قصص "الاتصال الروحي" بين صوفية على قيد الحياة، وبين من ماتوا في زمن الشيخ عصام مثلًا!

وتتردد بين العامة حكايات عن "ذوبان" آخرين في "الذات العليا" للشيخ "رزيق".. فيصدق كثيرون، ويكون "متجبرًا" على بركة الأولياء من يكفر بهذا الكلام.

تقترب هذه "الأفكار الشعبية" من سيناريو "التصوف الشيعي"، وما يسمى بـ"الوجد" الصوفي و"الاتصال اللدني"، و"الذوبان في ذات الأقطاب العليا".. وكلها أفكار فارسية قديمة.[9]

أبو بكر بن زكريا الرازي "أول ملاحدة الفرس المسلمين" اعترف أن حديث المتصوفة

9- راجع: "المدخل إلى التصوف الإسلامي". محمد أبو الفيض. سلسلة مذاهب وشخصيات. وكتاب اللمع. لأبي نصر السراج الطوسي. تحقيق وتقديم. الدكتور عبد الحليم محمود.
وأبو بكر محمد الكلابذي "التعرف لمذاهب أهل التصوف". تحقيق وتقديم محمود أمين النواوي.
وللمزيد: راجع: "التصوف الإسلامي بين الاستشراق والفلسفة". الدكتور مصطفى غلوش. كلية أصول الدين. جامعة الأزهر.

عن "العلم اللدني" وكلامهم عن "الذويان في عشق النبي وأهل بيته" ليس إلا محاولات لأسلمة تراث فارس القديم، أو هي محاولات لـ"تتريث" الإسلام بتراث إيراني.

فالتراث المجوسي هو الذي عرف مصطلح "الخلاص"، فقال سدنة النار إن الزهد في الدنيا الطريق الوحيد للذويان في "روح الآلهة".[10]

ولما شرب المتصوفة المسلمون "الخلاص الفارسي".. سموه "الارتقاء"، وفكرة "الاتصال" بالأرواح الميتة الهائمة نقلها الفرس للبوذيين، فأضاف الصينيون عليها، ثم طوروها وسموها "النيرفانا"، وهي تقريبًا نفس ما وصل إلى المتصوفة المسلمين.. فأطلقوا عليه "العلم اللدني".[11]

"العلم اللدني" في أدبيات المتصوفة نوع خاص من المعرفة يساعد في تحرر الروح من المادة التي التصقت بها بحكم قوانين الدنيا، "العلم اللدني" خبرة خاصة، يعتبرونها أحيانًا "فتحا إلهيًا" لا يحوزه إلا الصالحون.

وهو حالة "صفاء نفسي" لا توصف، تحول على أثرها كثير من أقطاب الصوفية إلى "أصحاب خطوة"، على حد اعتقاد المؤمنين بهم، ينتقلون عبر الزمان والمكان بقوانين غير قوانين الفيزياء.. مقاومين الجاذبية ومخالفين نظريات الرياضة وحساب المثلثات.

ففي التاريخ الصوفي انتقل السيد البدوي على "سجادة طائرة" من المغرب لمصر![12]

وفي أدبيات الصوفية أنه ـ السيد البدوي ـ أحيا الموتى، وأمات الأحياء، وأن الرفاعي كلّم الزواحف وأخذ العهد منهم بعدم إيذاء أبنائه وأتباع طريقته!!

رغم كل ما قيل في هذا الإطار، ورغم كل ما يمكن أن يقال؛ لا يمكن اعتبار التصوف

10- راجع أبو زهرة. تاريخ المذاهب الإسلامية.

11- العلم اللدني أو "اللا دنيوي". والمقصود به: "العلم الإشراقي الحديث. القادم من لدى الله. لا من لدى الدنيا. والعلم اللدني. في الاصطلاح. هو "الحدس" والإشراق. الذي لا يتأتى إلا بالذوبان في ذات الله. والارتباط في معيته. بترك الدنيا. ونبذ المادة.

وهو المفهوم المقابل لمرحلة "النيرفانا" لدى الرهبان البوذيين. فالنيرفانا هي الارتقاء بالذات الإنسانية. إلى المعرفة الحقة. بالارتفاع عن المادة. والزهد فيما تتطلبه الذات الإنسانية. وهو ما يؤدي بالنفس إلى الصفاء. بداية الوصول للنيرفانا. حيث يصبح الإنسان "مستنيرًا" لا ماديًا.

12- سيرة السيد البدوي في كتب المتصوفة (التفتازاني مثال). وراجع "آل بيت النبي في مصر" أحمد أبو كف. و"دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي: عصر سلاطين المماليك" الدكتور قاسم عبده قاسم.

"حالة شرعية إسلامية"، يمكن إخضاعها للتجربة أو النقض.

وفي الدراسات الإسلامية ليس لـ"تجارب المتصوفة" ما يربطها بسائر علوم الدين.

صحيح يدرس المتخصصون كلام الغزالي عن "الوجد الصوفي" وما قاله عن "الشعور بلذة الاقتراب من الله"؛ إلا أن "شعور" الرجل لا يخرج عن كونه حالة خاصة.. ليس لها طريق للإثبات بأي من الأدلة.. إلا في مذاهب الشيعة!![13]

مثل الغزالي جرب الدهلوي، والسهروردي، وابن الرومي، وابن عربي، والحلاج، والفارابي حالات "الاتصال الصوفي"، وكلهم كانوا فرسًا، تمامًا كما كانت الصوفية حالة "وجد" خاصة.. تطورت، وتلونت، ورقت نفسها من عصر لعصر حتى وصلت للغلاة.. وصدقها المتصوفة.

الشيعة مرة ثانية، هم الذين رسموا صورة التصوف الجديد؛ فظهرت في كتب التاريخ "كرامات" الأولياء، إضافة إلى تفاصيل منوعة عن قدرة الأقطاب في كشف الغيب، مع حكايات كثيرة عن "الاتصال" و"العلم اللدني" و"خلاص الروح"، المصطلحات التي آمن بها المتصوفة، ولم يكن المسلمون قد سمعوا عنها من قبل.

"كرامات الرجال" و"ذوبان روح الصوفي في روح الله" و"غيبوبة الاتصال".. لم يتكلم عنها المسلمون الأوائل حتى خلافة علي (رض).

صحيح عرف الإسلام في عصوره الأولى زهادًا كثيرين؛ إلا أن مفاهيم التصوف، والاتحاد مع الموتى، والحديث عن حلول الأرواح من أجساد لأجساد لم يظهر بقوة إلا بعد سنوات من خروج الجيوش من الجزيرة العربية للفتوحات الإسلامية.

عودة التراث المجوسي القديم، واختلاط كثير من أفكاره بأفكار المتصوفة كان رد فعل، بدأ بعد الفتح العربي لفارس.

"حضارة" الفرس، وقدرتها على التكيف كانت العامل الأهم الذي أدى بقطاعات

13- إشارة إلى ما تكلم عنه الإمام الغزالي من "الحدس" والإشراق. وما جاء في "تهافت الفلاسفة" في تجربته عن "الحدس الصوفي". والذوبان في ذات الله. بالطريق إلى الله.

عديدة من أبنائهم لدخول الإسلام، وبالتالي ذوبان "الفلسفة الدينية" الفارسية في كثير من الأفكار العقائدية الإسلامية.

لم ينشأ مع تلك الأفكار الجديدة فلسفات مختلفة لطوائف الشيعة فحسب؛ إنما نشأت أيضًا بها مذاهب جميع "الغلاة المسلمين" الذين تطابقت أفكارهم عن "حلول الأرواح" و"رجعة الموتى" و"كرامات الصالحين" مع الأفكار الفلسفية القديمة للعقيدة الزرادشتية.[14]

وذابت "فلسفة الغلاة" في فقه أهل السنة، تظهر وتختفي.. وتختفي وتظهر، كخيال الظل. وفي فترات معينة.. لا تستطيع أن تفصل بين الموروثات المختلفة، كما لا تستطيع بسهولة تتبع نمط فكري معين لتعرف من أين جاء؟.. وإلى أين ذهب؟ لكن هذا لا يعني أن ليس هناك ملامح أو مؤشرات يمكن دراستها، ومقاييس يمكن جس النبض بها.

الملاحظة المهمة على سبيل المثال؛ ظهور اعتقاد فجائي لدى مشايخ المذهب الحنفي السني في "أصحاب الخطوة" و"أصحاب الكرامات".

فظل الفقه الحنفي يأخذ بمبدأ "الزواج الحكمي" في إثبات النسب بالمحاكم المصرية، حتى نهاية العشرينيات من القرن الماضي.[15]

في الزواج الحكمي.. يثبت نسب طفل لرجل تزوج "بالوكالة"، من دون أن يثبت التقاؤه زوجته.

وأجاز ذلك النوع من الفقه للقاضي أن ينسب طفل لأب في بلد، تزوج من سيدة في بلد آخر؛ أنجبت خلاله المرأة؛ بينما لم يثبت دخول الرجل بها، لعدم حضوره من البلد الآخر.

أباح بعض فقهاء الحنابلة هذا النسب على أساس اقتناعهم بأصحاب الكرامة؛ فقالوا إن الزوج ربما يكون من الذين قربهم الله إليه فجعلهم من "أصحاب الخطوة" بحيث

14- راجع عقائد "الحابطية"، و"البيانية"، و"الخطابية"، وعقيدة أتباع أحمد بن الكيال، عن "عالم النفس الأعلى"، وما كتبه "أبو الخطاب" في نبوة الإمام جعفر الصادق، وانتقال "روح النبوة" إليه من علي بن أبي طالب إليه، للحد الذي حدا بالإمام جعفر الصادق إلى التبرؤ منه.

15- النظام القانوني للأسرة في التشريع الإسلامي، الدكتور محمد علي محجوب، معهد الدراسات الإسلامية، عام 2003، في باب أحكام الزواج، وصحة عقده، ولزومه، وبطلانه.

يكونون في أكثر من مكان في الوقت نفسه.. ومن دون أن يشعر الناس.

لم يشعر "الحنفية" أصحاب هذا الرأي أنهم طغوا في العقيدة، مثلما لم يشعر العباسيون أنهم طغوا هم الآخرون في البلاد المفتوحة.

ولمّا برر "العباسيون" قهرهم للموالي في إيران، وأحقيتهم في حكمهم لمجرد "قرابتهم لله"؛ لأنهم الأقرب إلى رسوله؛ ظهر من فلاسفة الفرس من يتكلم عن قرابتهم الأشد للنبي (ص)، وقرابتهم الأوثق بنسله، في إشارة لزواج الحسين بن علي (رض) من "شهر بانو" ابنة كسرى يزدجرد.[16]

قالوا إن دم نسل الإمبراطور الفارسي الذي كانوا يعتبرونه "إلهيًا"، قد اختلط بدم نسل النبي الذي أشاع عنه بعض العرب أنه إلهي هو الآخر، ما يؤدي بالضرورة إلى نسل مقدس.. من زواج مقدس.

لذلك؛ اعتقد الشيعة في عصمة أبناء علي بن أبي طالب، وتنزههم عن الخطأ الدنيوي مثلما اعتقدوا في تنزه الأئمة والمرجعيات الشيعية، نتيجة ما انتقل إليهم من "نور إلهي" بحلول أرواح أبناء علي بن أبي طالب فيهم!

وكان "التفلسف" هو الحل الفارسي الأخير.

بمعنى آخر؛ كانت المواجهة الثقافية هي المعركة الأخيرة الباقية أمام الفرس ضد العرب. فلم تمر سنوات قليلة على دخول العباسيين فارس.. حتى سرت مجموعة من المذاهب الفلسفية التي تكلمت في حقيقة الوجود، ونشأة الكون، وعلاقة العبد بالإله (في المجوسية)، وشريعته ورسله.. والكتب التي تنزل على أنبيائه (في الإسلام).

غلف الفرس الإسلام بغلاف جديد، فتكلموا عن "الرجعة" أو الاعتقاد في إمكانية عودة الروح بعد الوفاة، وتكلموا عن إمكانية حلول روح علي بن أبي طالب في جسد أي من أجساد أحفاده، ثم فتح الفرس فيما بعد مواضيع عن "قائم الزمان"، الإمام والفقيه المعاصر الذي يحمل لمحة إلهية.[17]

16- راجع "رسائل الرازي". مرجع سابق.

17- إشارة إلى ما يعرف لدى الفقهاء الشيعة. الإمامية على وجه الخصوص. بمفهوم "الرجعة" أي رجوع الإمام الغائب

وفي الوقت التي كانت تتهاوى فيه الخلافة الفاطمية في مصر؛ كانت "فلسفة فارس" قد التصقت بجماعات التصوف، الذين تحولوا هم الآخرون من "زهاد في الدنيا" إلى "فلاسفة" في الإسلام على طريقة "الفرس".

لم يكن "قعود السنة" خلال التاريخ الإسلامي عن مواجهة التطرف الفكري الشيعي هو المشكلة الوحيدة؛ إنما تسامح مشايخ المذهب السني مع كل ما كانوا يفاجئون به من أفكار.. كانت مشكلة أكبر.

فقد قفز الشيعة فجأة إلى صحن الأزهر الشريف في عصر الإمام الأكبر محمود شلتوت.. بطيب خاطر.. وسماحة!

اشتراك شيخ الأزهر الراحل الشيخ شلتوت مع الشيعي البارز تقي الدين القمي في تأسيس دار التقريب بين السنة والشيعة كانت مفاجأة، فمكانة الشيخ في المذهب السني وعلمه كانت أولى ـ كما رأى البعض وقتها ـ بعدم اعتقاده في إمكانية نجاح التقريب بين المذهبين.

لكن الشيخ شلتوت تكلم وقتها عن "التسامح"، في الوقت الذي تكلم فيه المعارضون عن "الطعم" السياسي الذي رماه تقي الدين القمي لأئمة الأزهر.. فالتقطوه من باب "إذا جنحوا للسلم".

لم يثبت تشيع الشيخ شلتوت، لكن "تسامحه" في الأربعينيات هو الذي "أقعده" عن "اختبار" دعوة الشيعة.

للآن.. لم تقدم دار التقريب شيئًا، وربما لم يبق منها غير استضافة رئيسها وكيل الأزهر السابق الشيخ محمود عاشور من آنٍ لآخر في الفضائيات.

"تسامح" الشيخ شلتوت كان أشبه بـ"القعود" السني، وكان "القعود" خطيئة سنية؛ لأن "التسامح العقيدي" كان مثله مثل "إرجاء" بحث القضايا الخلافية، الذي كان الوسيلة الأولى لنفاذ عقائد بطعم إسلامي، قبل أن تتطور فيقيم عليها البعض فقهًا كاملًا

من غيبته. وما يدور حول هذا المفهوم من هيام أرواح الأئمة المختارين بعد وفاتهم، وقدرتهم على الالتحام بأجساد "آيات الله" أو "الملالي" من بعدهم.

للتصوف بحلول القرن التاسع الهجري.

الملاحظة: أن معظم الذين كتبوا عن حالات "الوجد" الصوفي و"الاتصال".. و"الوصول لمراتب الذوبان في الذات العليا"، وكثير من "حالات" المتصوفة، كانوا من أبناء فارس، كالدهلوي، والسهروردي وابن الرومي.. وابن عربي.. والحلاج.. والفارابي.[18]

في الوقت نفسه: أسس أبو بكر بن زكريا الرازي نقده للدين الإسلامي على عدة نقاط.. أولها ما سمّاه بـ"الطقوس الإسلامية الخرافية". منها إيمان المتصوفة المسلمين بـ"العلم اللدني" و كثير كلامهم عن الذوبان في عشق النبي وأهل بيته، مشيرًا إلى تطابق تلك الأفكار مع معتقدات المجوس القدماء.

قال الرازي إنه كان أولى بالعرب أن يتحولوا لعقائد فارس القديمة، بدلًا من الاحتجاج بالنبوة العربية في وجه الفرس الجدد.

ثم إن فلسفة "التصوف" لم تكن تراثًا فارسيًا محضًا، فقد عرف الهندوس والكنفوشيوسيون والمؤمنون بديانات "الشنتو" اليابانية.. قصصًا مختلفة لاتصال الأحياء مع "الموتى الصالحين"، كما عرفوا تفاصيل مختلفة عن استحالة موت "الأولياء".. وزعماء القبائل.

في التاريخ الإسلامي: ظهر أن "حالات التصوف" كانت غالبًا تشتد أعراضها في البلدان التي ناوشتها مدارس فلسفية أجنبية، كالمغرب وتونس والعراق.

وانتشر الجزء الأكبر من أفكار الصوفية، من مصر التي تأثرت إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية والإغريقية، ثم مدارس الفلسفة "اللاهوتية" المسيحية. فقد تركت تلك المدارس أسئلة متباينة حول "طبيعة الروح".. و"مغزى الموت" و"صفات الإله" و"طبيعة

18- جاء في مقدمة ابن خلدون: أنه لما فتح العرب فارس، ووجدوا فيها كتبًا كثيرة، بعث سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، ليستأذن في نشرها، ونقلها للمسلمين: فكتب عمر بن الخطاب إليه: أن اطرحوها في الماء، وهي واقعة ظلت مرتبطة بآراء الفلاسفة الفرس، وما جاء في كتبهم، تأكيدًا للغريب من عنصرهم الفارسي على العرب، حسب المعتقد العربي.

وفي كتاب "البيان والتبيين للجاحظ" وصف "سهل بن هارون" الفيلسوف الفارسي الملتحق بخدمة الخليفة المأمون الذي عينه صاحب خزانة الحكمة (أو مدير مدرسة الفلسفة) التي أنشأها المأمون، قال الجاحظ: "كان حكيمًا فصيحًا، شاعرًا، فارسي الأصل، شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب". والإشارة إلى توجس تيارات عربية من فلاسفة الفرس، الذين دخلوا منهم إلى الإسلام، حتى إن بعضهم كفر الفارابي، وابن سينا على الإطلاق.

الخلاص" الذي شرعت الديانات السماوية من أجله.

"الخلاص" في الفلسفات القديمة كان مصطلحًا مرادفًا للتحرر من "المادة"، أو كل ما هو "رغبات دنيوية" بهدف الذوبان في "روح الآلهة".

في الحضارات القديمة، كانت مشاعر المتصوفة حالات "وجد" خاصة، ربما لذلك طرأ على هؤلاء كثير من المتغيرات، تأرجحت بين الخرافة قديمًا، وعتبات ساحات السياسة حديثًا، إلى أن انتهت الحال بأقطاب الصوفية في الألفية الجديدة عند عتبات الرغبة في الأضواء.. وحب الظهور.

(2)

مشايخ الطرق الصوفية في القاهرة، منذ مطلع الألفية الجديدة، ينافسون نجوم السينما في الكلام للصحافة، والعراك على الظهور ببرامج التليفزيون.

لا زهد، ولا وجد ولا يحزنون.

عام 2009 مثلا؛ رفعوا عشرات القضايا على كتاب المسلسلات، والأفلام، ودخلوا في سجالات مع نجمات السينما، والمغنيات، ثم.. لا انتصروا، ولا أخذوا ما كانوا يزعمونه من حقوق لدى نانسي عجرم، ويحيى الفخراني.. وهيفاء وهبي.

لما دب الصراع على مشيخة الطرق الصوفية بين الشيخ القصبي، والشيخ أبو العزائم عام 2008، قال البعض إنهما قد عين كل منهما نفسه محتسبًا لـ"المجاذيب"، وحامل لواء "الدروشة".. ابتغاء الصيت.

ربما لذلك قاضى الصوفية المطربة اللبنانية هيفاء وهبي عام 2009، وطالبوا بوقف عرض فيلمها "دكان شحاتة". كانت فرقعة والسلام، مع أنه لم يكن لأهل الله أن يتخذوا أنفسهم "هزوًا".. فيجابهون "راقصة" في ساحات المحاكم.

قالوا: هيفا أساءت للمتصوفة على شاشة السينما، والذي حدث أنها في الفيلم لعبت دورًا لإحداهن، تسببت في إغراء احد الصوفية.. واستجاب، ولما وقع في المحظور؛ اعترضت جماعات الصوفية، بدعوى تهاوى سمعتهم، وبحجة "مرمغة" عمائمهم الخضراء في التراب!

كانت زوبعة في فنجان، هدأت بعدها عاصفة الصحافة، وقلت تصريحات الشيخ علاء أبو العزائم النارية، لكن لا اعتذرت هيفا، ولا أوقف الصوفية عرض "دكان شحاتة".

مقاضاة هيفا كان لغزًا، فلو سلمنا بدفوع مشايخهم؛ كان مفترضًا أن يقاضي الصوفية منتجًا أو مخرج أو كاتب سيناريو الفيلم، لكن الذي حدث لم يكن كذلك.. لماذا؟

لأن هيفا أشهر من المنتج. فصور اللبنانية طاغية الأنوثة في الجرائد وفي صفحات الحوادث خلال معالجة الصحف للقضية، ونشرها عنها، كانت أهم من صور خالد يوسف مخرج الفيلم.

ليس كل الظن إثم. والظن أن الصوفية قصدوا منافسة "هيفا" على شعبيتها؛ فارتبطوا معها في صراع لم يكن له محلٌ من الإعراب.

هللوا، وشاطوا، واستشاطوا، وزعق مشايخهم في مؤتمراتهم الصحفية مستنجدين بنخوة "أهل الله"، وشخط، ونطر، وتشنج، وحلفوا بأيمانات الله.. والمصطفى أن يجعلوا هيفا تندم.

وقتها كان الخلاف بين القصبي وأبو العزائم على رئاسة مشيخة الطرق الصوفية على أشده، والذي ظهر أن ركب كل منهما حصان الدفاع عن "أهل الله"، وقبض على سيف "الدراويش"، والاحتمال الأكبر أنها كانت محاولات للفت انتباه جمهور "هيفا"، الذي هو أكبر من أتباع رؤساء الطرق.

كانت نقلة من نوع جديد.. وكانت حادثة؛ ظهر معها أن "البروباجندا" والإعلانات، والاستعلامات، والنزوح لمخاطبة الناس بدلًا من مخاطبة الله؛ قد تحولت في فقه مشايخ الطرق الصوفية إلى فرض عين، مع أن أحدًا لم يكن يسمع لهم في القاهرة القديمة "حس".

وقوف المتصوفة أمام هيفا وهبي في ساحات القضاء؛ كان مؤشرًا على التغيرات التي طرأت عليهم، وكانت إشارة أيضًا إلى أن التغيرات في جبهات الصوفية كثيرًا ما تكون سريعة، ومشوشة أحيانًا.

في القاهرة المملوكية، لبس دراويش "الصوفية" رث الثياب، وناموا على أرصفة الأزهر زهدًا، جاوروا مقام السيدة عائشة والسيدة رقية والسيدة نفيسة، وغمسوا "العيش الناشف" بالماء ابتغاء وجه الله.

وفي التاريخ، لا دخل المتصوفة المولات، ولا ركب مشايخهم المرسيدس، فأخفوا وجوههم بستائر سوداء في المقاعد الخلفية.

كان للمتصوفة في الشارع المصري هيبة باعتبارهم أهل الله، أما عنهم؛ فلم يكن لهم في نفوذ الحكم مأرب، ولا كان لديهم في النزاع على الدنيا غرض.

استمرت صورة الصوفية لدى عوام المصريين حتى وقف أحد مشايخهم عام 2009 رأسه برأس هيفاء وهبي أمام النائب العام.. وكانت صدمة، على الأقل في أوساط المراقبين.

وقتها تساءل الشارع عن حجم الإساءة التي يمكن أن تضع مطربة من نوع هيفاء في مواجهة مع "صوفي" أو "متصوف"؟

وقت قضية "دكان شحاتة"؛ قال نقاد السينما إن المتصوفة لا يرتادون السينما، وتوصل البعض إلى أن خصومتهم للفيلم كانت بـ"السماع"، ومعارفهم عن دور هيفا اللبنانية كانت بالنميمة.

ثم ظهر أن المشهد محل الخلاف لم يكن في مولد، وأن اللبنانية لم تفتن واحدًا من "أهل الله"، ثم ظهر أن الذنب ذنب الدراويش "الذين زاغت أعينهم للدنيا".. في حضرة الله!!

على كل؛ مرت قضية فيلم "دكان شحاته" بتداعياتها، وبعدها اتضح أن هيفا لم تفتن المتصوفة، أكثر مما فتنوا بعضهم بعضًا، فلم تفتن "هيفاء" أهل الله، مثلما فتنهم الشيخ علاء أبو العزائم بصراعه على رئاسة المشيخة.

وهيفاء لم تطعن في الشيخ القصبي كما فعل الشيخ أبو العزائم، ولا وصفت اللبنانية أحد مشايخ الصوفية بالعمالة للأمن، كما قدح مشايخ المتصوفة كل في سيرة الآخر!

لا "شنعت" هيفا على رواد حلقات الذكر كما شنع "الصوفية" على بعضهم ابتغاء "كرسي المشيخة"، ولا نابزتهم اللبنانية بالألقاب كما نابز "المشايخ" بعضهم بعضًا بأوصاف لم يتوقعها أحد على أفواه أهل الله من قبل!!

لم تكن أزمة فيلم.. بقدر ما كان زمنًا جديدًا، وصورة مختلفة لصفوة أهل الله الذين لعبت بهم الأهواء.. وأضلتهم السياسة.

المهم أن الصوفية وصفوا الذين انتقدوهم بـ"السفسطائيين"، وقالوا على الذين استغربوا ما يحدث أنهم أعداء الدين.

فعل المتصوفة نفس ما فعله السنة، فقد "قعد" السنة عن الفلسفة والاجتهاد، ثم تسامحوا مع الدخيل من الشيعة. بينما تصدر الصوفية لهيفا في "الهايفة"، وتركوا ما لم يكن ينبغي أن يتركوه من تحكيم العقل فيما وصل إلى جماعاتهم من "النقل" عن حب آل البيت على طريقة "المتشيعين"!

بسم الله الرحمن الرحيم

"اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٩) لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون (١٠) فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون (١١) وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون (١٢) ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين (١٣) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم (١٥)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة التوبة

عندما أمّ رسول اللّٰه

المسلمين في.. المهندسين!!

(1)

الشيعة حسبوا الباحث السوري د. محمد شحرور على المسلمين السنة، والسنة "ردوه" للشيعة، والاثنان وصموه بـ"التفلسف".. مع أن "التفلسف" ليس وصمة ولا "سفسطة".[1]

د. شحرور يرى أن "السفسطة" ليست "عارًا"، والسفسطائيين في عصر الفيلسوف اليوناني أرسطو كانوا الأكثر قدرة على النظر للحقائق بتجريد.. من دون تحيز.[2]

كتاب شحرور "الكتاب والقرآن" موسوعة بحث في عقيدة المسلمين، رفضها الشيعة لغلوهم في الدين، واستنكرها السنة لقصرهم الإسلام على عبادات تبدأ بسنن دخول الحمام "الخلاء" وأدعيته، وتنتهي بأحوال "المستحاضة" وتفرقة النزيف من دم الحيض!!

د. شحرور قدم رؤية جديرة بالدراسة عن حرية العقل، ومسئولية الإنسان عن أفعاله.

يرى د. شحرور أن الله لم يكتب على البشر شيئًا؛ إنما وضع قوانين وسننًا للكون تسير بها مقدراته من دون تدخل منه، في الوقت نفسه يدخل علمه "سبحانه" كل ما يمكن للبشر اختياره من سلوك، لكن هذا لا يعني أن يدخل علمه سبحانه "ما سوف يقدم عليه فلان من فعل محدد في زمن محدد".

رؤية د. شحرور هي الأقرب حتى الآن لروح القرآن، وحدود "عقلانية العقيدة" التي تكلمت فيها مدارس الفلسفة الإسلامية بالعراق، بينما عارضتها آراء "أهل الحديث" في المدينة.[3]

1- إشارة إلى ما أحدثه صدور الطبعة الثالثة من كتاب الدكتور محمد شحرور بين المذهبين السني والشيعي عام 1996. وما بعده.

2- اعتبر العرب الأوائل أن السفسطائيين اليونان، أصحاب مذهب "الحيل" في الفلسفة، لأنهم كانوا يقلبون الحقائق، ويزيفون المسائل الجدلية. لكن هذا لم يكن صحيحًا. على أساس أن مدرسة السفسطائيين كانت إحدى مدارس اتجاهات الجدل والنقض الفلسفي لقضايا البحث حول حقيقة الوجود، وطبيعة الموجودات، بالجدل.. باستخدام علوم وآليات المنطق للوصول إلى "حقائق الأشياء كما هي موجودة، لا كما يتصورها الإنسان".

3- في حكم الأخذ بالحديث الضعيف (كمثال بين فكر المدينة وفكر المتكلمة في العراق)، وفي حكم الأخذ بالحديث

فالقرآن الكريم ليس "تراثًا"؛ لكن تفسيرات الصحابة - رضوان الله عليهم - لآياته هو التراث، فالتراث هو التصور الإنساني، واجتهادات مجموعة من البشر لأحداث معينة حسب الأرضية المعرفية لهؤلاء البشر.. ووفق ثقافتهم في زمانهم. بينما "النصوص القرآنية" ليست اجتهاد بشر.

فالآيات الكريمة "كلام رباني".. من عند الله، أما "اجتهادات" أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رض) في تفسير الكتاب أو التعامل مع أحكامه؛ فهي التي من عند البشر!!

لذلك؛ لا كلام البشر مقدس.. ولا نقضه "كاملا" فيه إثم، وإعادة فحص تراث الصحابة ليس خروجًا عن الدين!![4]

لكن الذي حدث أن حاصرتنا المسلمات التراثية، بقصص كارتونية لحكايات لم يكن متصورًا أن يتم تداولها، صدقها من كان متصورًا فيه.. ألا يصدق!

عام 2006؛ انزعج مفكر إسلامي كبير، وفقيه قانوني أيضًا - من منع وزارة الأوقاف الشيخ جابر الدسوقي من الخطابة وإمامة المصلين في مسجد الحامدية الشاذلية بالجيزة.

كان الشيخ جابر - وقتها - قد تسبب في مصيبة من نوع خاص؛ فقد حكى الرجل قصة قلبت الدنيا.. وأزعجت كمًا هائلًا من المثقفين الذين لم يكن أكثرهم تشاؤمًا يعتقد أن تصل حال الإسلام، إلى ما وصلت إليه.

لكن المفكر الإسلامي الكبير لم ينزعج من رواية الشيخ الدسوقي لوكالات الأنباء الأجنبية عن رؤيته الرسول (ص) يدخل عليه وعلى المصلين المسجد، قبل أن يصلي بالناس جماعة في المهندسين!!

الضعيف لدى الدكتور أحمد عمر هاشم (قواعد أصول الحديث). معهد الدراسات الإسلامية. 2003. ص: 94, 96: "واتفق العلماء جميعا على أن الأحاديث الضعيفة لا يجوز الأخذ بها. ولا روايتها. ولا ذكرها إلا إذا اقترن ذلك ببيان كونها موضوعة. ولا أصل لها". و"... وكما لا تجوز رواية الموضوع. فلا يجوز من باب أولى العمل به. وما أشبه بأي حال من الأحوال. لا في الحلال. ولا في الحرام. ولا في الوعظ. ولا في الإرشاد. ولا في الترهيب. ولا في الترغيب ولا في التفسير ولا في غير ذلك إطلاقًا". وفي الكتاب نفسه : "روى عن الإمام أحمد بن حنبل (أحد أئمة فقه المدينة) أنه كان يعمل بالحديث الضعيف. ويجعل منزلته في العمل.. بعد فتاوى الصحابة"!

وقال السيوطي: "إنه يعمل بالحديث الضعيف. وعزا ذلك إلى رأي أبي داود. وأحمد".

4- الكتاب والقرآن. الدكتور محمد شحرور.

لذلك قال: إن منع الشيخ الدسوقي من الخطابة جنون، وعلق على قرار المنع بأنه ضد "حريات الأشخاص"، في الوقت الذي لم يعلق فيه المفكر الإسلامي على اعتقاد الشيخ الدسوقي في إمكانية حضور الرسول (ص) إلى جامع الحامدية الشاذلية بعد أكثر من 1430 عامًا من وفاته (ص)!!

كانت كارثة مجتمع أصبح يتعاطى الخرافة قبل الأكل وبعده، ثم يجد من يدافع عنه من "المفكرين".

من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمدًا قد مات، لكن الشيخ الدسوقي لم يجد أن الاعتقاد في هذا ملائم. لذلك؛ صدق رواية إحدى المصليات، التي أسرت له برؤية الرسول بين الرجال داخل المسجد.

قال الشيخ الدسوقي إنه هرول إلى المكان المزعوم للنبي (ص)، فكشف له الرسول عن شخصيته بعد ربع ساعة من ظهوره في المسجد، ووافق على رجاء الدسوقي له بإمامة المصلين في مزيد من وقائع كراماته (ص)!!

عمر الشيخ الدسوقي وقتها كان قد ناهز الـ(70) عامًا، الرجل يؤم المصلين منذ 33 سنة، كان طوالها أحد رجال الأوقاف، قبل أن يدخل زمرة الصحابة رمضان عام 2006!!

فكل من صحب رسول الله أو شاهده "صحابي"، وفي كتب علوم الحديث، أن من شهد النبي وحضر مجلسه - ولو لم يسلم - فهو صحابي أيضًا.[5]

لم يعد الإيمان عاصمًا من الخرافة

ففي واقعة جامع الحامدية الشاذلية؛ كان الشيخ الدسوقي مؤمنًا، وكان المفكر الإسلامي مؤمنًا هو الآخر، لكن الشيخ الدسوقي اعتقد في الذي قال، بينما رأى المفكر الإسلامي الكبير أن منع الدسوقي رغم البلبلة التي تسبب فيها بين عوام المسلمين، استخفافًا بعقيدة شيخ جامع مؤمن بالرسول حتى الثمالة.. والأرض يرثها عباده

5- كرسول هرقل إلى النبي (ص). راجع "علوم الحديث" لابن الصلاح.

مرت أزمة إمام جامع المهندسين، رغم أنها لم تمر. فالأزمات من ذلك النوع متجددة، وقصصٌ مثل تلك لدى المصريين كـ"الأميبا".. أحادية الخلية مع قدرة عالية على الانقسام.. والانتشار.

أفكار المسلمين تتجه لـ"الخرافة" الآن بعد سنوات من تفوق "طقوس الدين" على الدين نفسه.

والنتيجة كوارث.. من عينة "أزمة الشيخ الدسوقي إمام الحامدية الشاذلية"، وأزمة الرئيس الإيراني المسلم أحمدي نجاد عام 2007 في الأمم المتحدة.

نجاد فعل موقفًا مشابهًا للذي فعله إمام الحامدية الشاذلية، ففضح الشيعة بعدما سلم على المهدي المنتظر في إحدى خطبه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ذلك العام.

بالمناسبة؛ سلام المتصوفة المصريين على سيدنا الخضر في مجالسهم.. عادة شيعية.

فلدى المتصوفة أن سيدنا الخضر حي لم يمت، مع أنه هو الذي قال لسيدنا موسى "إنك لن تستطيع معي صبرًا" قبل نحو 3 آلاف عام.[6]

لم يثبت على الرئيس الإيراني التصوف؛ لكن أفكار الشيعة هي نفسها "شطحات الصوفية".

فلا المتصوفة يعلمون أن سيدنا الخضر مات، ولا الشيعة يعلمون أن الذي يموت لا يعود، وأن الإمام الذي يقولون إنه غائب منذ ألف عام.. لن يحضر، كما أن سيدنا الخضر لن يظهر.

الشيعة والرئيس الإيراني أحمدي نجاد والمتصوفة.. في فلك يسبحون، وكون ومدبره سيدك!

6- إشارة إلى ما جاء من سيرة سيدنا الخضر في بعض أدبيات المتصوفة، وما تناقل بينهم من القصص.

يؤمن الشيعة (الاثنا عشرية) باختفاء الإمام الثاني عشر من داخل قصره في بغداد منذ 12قرنًا.[7]

يقولون إن الله رفعه إلى السماء؛ فاستقر هناك فترة حتى يؤذن له بالعودة إلى الأرض من جديد؛ فيملؤها عدلًا بعد أن ملئت جورًا.

يؤمن الشيعة أيضًا أن الإمام الثاني عشر "محمد المهدي" يحمل في نفسه نور آبائه وأجداده الأئمة الأحد عشر الذين هم نسل الحسين بن علي بن أبي طالب.

الأئمة الاثنا عشر معصومون في عقيدة الشيعة، فقد نزل النور الإلهي الممتد فيهم، من علي بن أبي طالب، الذي وصل إليه من نور محمد رسول الله (ص) بعد وفاته.[8]

ويعتقد بعض الشيعة أن الإمام الثاني عشر محمد المهدي "مستور" في مكان ما على الأرض أو في السماء بأمر إلهي ليراقب البلاد والعباد، حتى يأذن الله له بالخروج من محبسه.. ليظهر بين الناس.

وهم يتداولون أحاديث نبوية عن وقت وعلامات قرب ظهور الإمام الغائب، مشايخهم يقولون إن أفضل العبادة "انتظار الفرج"، والفرج هو ظهور الإمام.. ويقولون في الدعاء "فرج الله كربه.. وعجل بظهوره".[9]

7- تعتقد الطائفة الإمامية بأن المهدي المنتظر هو محمد بن الحسن العسكري. وهو الإمام الثاني عشر ويقولون في اختفائه. منتظرين عودته من "الستر". واختلفوا في سنة غيبته. فيقولون غيب من دون أن يراه أحد. ويقولون إنه دخل الستر بعد ثلاثة ليال من ولادته. وبعضهم قال في اليوم السابع. وبعضهم قال بعد أربعين ليلة من ولادته. راجع ابن حزم. الملل والنحل. والطوسي في "الغيبة". والنوبختي في "فرق الشيعة".

8- إشارة إلى اعتقاد كثير من طوائف الشيعة. بعصمة الأئمة. لتوارد النور من الإمام المستور إليهم. راجع "النهج" للشريف الرضي. و"علل الشرائع" لابن بابويه. و"أصل الشيعة" لمحمد حسن كاشف غطاء.

وفي فرض معرفة المؤمن للإمام. بالنص في المفهوم الشيعي. راجع "الاحتجاج" للطبرسي. الجزء الأول.

9- المراجع السابقة في "كرب الإمام الغائب وستره". والأصل أن عقيدة الغيبة ترجع إلى أصول قديمة عند المجوس. عبدة النار. فهم يعتقدون أن لهم إمامًا اختفى داخل أحد الحصون الموجودة فيما بين خراسان والصين.. وأنه لم يمت وبقي حيًا حتى الآن ولكنه غائب.. وقد أخذ الشيعة الإماميون هذه العقيدة عن المجوس. وقالوا إن إمامهم الثاني عشر "محمد بن الحسن" الملقب بالمهدي "قد غاب عن الأعين عندما دخل سردابًا في دار أبيه ولم يخرج".. وهم لا يزالون حتى يومنا هذا يجتمعون كل ليلة بعد صلاة المغرب أمام باب السرداب. وينتظرون خروجه.

وأخذ الإماميون فكرة "الرجعة" أيضًا عن بعض الديانات المجوسية.. والمقصود بها هو رجوع إمامهم "المهدي المنتظر". الظهور في المدينة المنورة. ويهدم الحجرة المدفون في أرضها أبو بكر وعمر بجوار النبي محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويرسلهما إلى البقيع. ويصلبها على خشبتين.

ويقول الحر العاملي في كتابه "الأيقاظ". و"المجلسي" في كتابه "بحار الأنوار" أن المهدي سيقوم بعد رجعته أيضًا بإقامة الحد على الحميراء (يقصد أم المؤمنين الطاهرة السيدة عائشة. رضي الله عنها). ثم يتوجه إلى الصفا والمروة ليقتل

ولدى مرجعياتهم أن الله أرغم الإمام على الاحتجاب، كي يراقب أفعال البشر من بعيد، ويتابع القتل والقسوة والبلطجة الذي يمارسونه بين بعضهم، إضافة إلى أن الله أخفى الإمام المهدي أيضًا، كي يعذبه.. عقابًا على ما اقترفه بنو آدم من آثام.

والإمام المستور، يكفر عن خطايا المسلمين، حتى يعود آخر الزمان، بعدما يفيض الكيل.. وينضح الإناء؛ فيعيد الحق، ويمحق الباطل.. لتقوم القيامة.

مسالة الإمام الغائب شائكة لدى الشيعة، وهي سر من أسرارهم.. وربما هي السبب في أن كثيرًا منهم لا يتحدثون فيها باستفاضة مع غيرهم.

ومرجعيات الشيعية لا يتداولون قصة الإمام الغائب على الملأ هم الآخرون؛ لكن الرئيس الإيراني نجاد فضح الإيرانيين، وأظهر للعالم "خرافات" الشيعة.

في خطبته عام 2007؛ قال نجاد إن يد المهدي هي التي تدير أحوال بلاده، وإن الإمام الغائب هو الذي يحدد الميزانية، وهو الذي يراقب المرور ويصدر الأحكام في الدوائر القضائية في إيران.

قال نجاد إن "أعداء" إيران يعلمون أن عودة المهدي حتمية، وأن الأمريكان لم يذهبوا إلى العراق لوضع أيديهم على الثروات النفطية ونهب البلاد؛ إنما لأنهم أدركوا أن هذه

الحجاج الذي قتل الأبرياء من الشيعة. ثم ينتقم من المشرفين علي الحرمين الشريفين. ويقوم بتعذيبهم بقطع أيديهم وأرجلهم.. ثم ينزع الحجر الأسود من مكانه في الكعبة المشرفة. ويأمر بنقله إلي مدينة الكوفة المقدسة.. ويختتم مهمته بمصادرة ممتلكات وأموال النواصب "أهل السنة" ويبيحها لأتباعه.

والشيعة "الإماميون" يؤمنون بأن أئمتهم لهم حق التحريم. والتحليل. والتشريع.. ويقول "محمد بن يعقوب الكلين" في كتابه "الكافي": "أن الله خلق محمدًا وعليًا وفاطمة. فمكثوا ألف دهر ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها. وأجرى طاعتهم عليها. وفوض أمورهم إليها.. فهم يحلون ما يشاءون. ويحرمون ما يشاءون"!! وأورد المجلسي في "بحار الأنوار" نفس النص!!

وقال المجلسي أيضًا: "أن الأئمة (الاثني عشر) هم الواسطة بين الله وبين خلقه.. وأن الناس لا يهتدون إلا بهم.. وأنه لا يدخل الجنة إلا من عرفهم.."!!

ويعتقد الشيعة أن الدنيا والآخرة. كلها للإمام يتصرف بها كيف يشاء.. ويسندون إلي أئمتهم الحوادث الكونية التي لا يتصرف فيها إلا الله سبحانه وتعالى.. فكل ما يجري في الكون من رعد وبرق وزلازل وغير ذلك من خسوف وكسوف وفيضانات وبراكين يرجع أمره إلي الإمام..

ويجمع "الكافي". و"المجلسي". و"الكليني". علي أن الأئمة يعلمون الغيب. وأنهم - عليهم السلام - يعلمون متى يموتون. وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم.. وأنهم يعلمون كل علوم الأولين والآخرين.. ويعلمون ما في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء.. ويعلمون أيضًا ما في السماوات وما في الأرض. وما في الجنة وما في النار. وكل ما كان وكل ما سيكون..

وروي "الكليني" في كتابه "الكافي". أن الإمام جعفر بن محمد "أبو عبد الله" قال: "منذ أنزل الله عز وجل. الروح علي محمد - صلي الله عليه وسلم - وبقي مع رسول الله على الأرض. يخبره ويسدده. وبقي بعد وفاة الرسول مع الأئمة"..!!

المنطقة ستشهد حدثًا "متوقعًا"؛ حيث ستظهر يد الله وترفع جذور الظلم عن العالم.. بعودة محمد المهدي.. المنتظر من هناك!!

راقب العالم الرئيس المسلم على الفضائيات في القرن الواحد والعشرين يقول إن قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، وانتصار طهران على بغداد في الحرب التي بدأت في السبعينيات من "معجزات" المهدي، وإن "آية الله الخميني" و"شريعة الله مداري" و"شريعة الله منتظري" وجميع مرجعيات الشيعة في "قم" الإيرانية لم يكن لهم لا في الطور ولا في الطحين، وإنهم فعلوا ما أمرهم وأسر به لهم الإمام المستور من مخبئه.. باعتبار أن كل هؤلاء الأئمة أوصياء "قائمون" على إدارة الشيعة؛ لحين فك الكرب.. وخروج الإمام.

كانت المرة الثانية التي يقول فيها الرئيس الإيراني هذا الكلام، والمرة الثانية التي يتابع العالم فيها مسئولًا كبيرًا بدولة إسلامية يتحدث عن "عقيدة" بهذا الشكل.

عام 2005؛ تكلم نجاد عن الإمام الغائب في نيويورك أيضًا

وفي حواراته للصحافة الأجنبية، بعد خطاب إمام الجمعية العامة للأمم المتحدة؛ قال الرئيس الإيراني إنه شعر بهالة الإمام "الضوئية" تحيط به، وهو يلقي كلمته أمام ممثلي دول العالم؛ فضحكت الوفود وقهقه السفراء عليه بالفرنسية والإنجليزية والألمانية.

أما الأزمة التي حدثت في طهران بعد كلام نجاد عن الإمام؛ فلم تكن بسبب ما ظهر من "خرافات" عقائدية، ولا بسبب تندر العالم على المسلمين؛ إنما لأن الأئمة في طهران فهموا أن نجاد يقول إنه هو الذي يدير مقاليد الأمور في البلاد بمباركة الإمام المستور.

فهم المرجعيات أن نجاد يقصد أن "آيات الله" و"شريعة الله" و"علي الله"و "الله الله" من المرجعيات وأعضاء مجلس تشخيص مصلحة النظام لا دور لهم.

لذلك ردوا عليه.. وحذروه ونتفوا فروته، وظهر أكثر من آية الله.. وعدد من شريعة الله، وقالوا إن الإمام الغائب لا يعلم شيئًا عن التضخم في البلاد، وإن المهدي المنتظر لا يدير

مفاعل "نتانز" النووي في بوشهر؛ وقالوا أيضًا إن الإمام الغائب ليس هو الذي درب ميليشيات الشيعة العراقيين وعناصر حزب الله في المعسكرات الإيرانية.

كأنهم قالوا لنجاد "اخرس أنت".. فقد تجاوز، لماذا؟ لأن إيران يقودها أصحاب العمامات السوداء من أئمة الشيعة المعتبرين، صحيح كلهم مؤمنون بقرب عودة الإمام؛ لكن (ليس كل ما يعرف يقال).

فللسياسة في إيران أصول.. وتصدير الثورة حرفة، لكن نجاد تطاول.. ليس لأنه ذكر المهدي، لكن.. لأنه تجاهل الأئمة.. والأئمة في إيران إذا خاصموا فجروا، والشيعة إذا تكلموا.. افتضحوا، تمامًا كالصوفية، الذين لو حكوا عما يعتقدونه أكثر مما يرقصون على الطبل والزمر والصاجات في حلقات الذكر؛ لاكتشفنا مزيدًا من الكوارث!

الانتشار السريع للخرافات الدينية كارثة اجتماعية، وأزمات المجتمعات مثلها مثل أزمات بني آدم النفسية، فلو مرض البني آدم، اكتأب، وانزوى.. وهلوس، ثم بدأ في التهيؤات!

في العصور الوسطى هلوس رهبان أوروبا؛ لذلك انتشر وقتها هناك ما سمي بـ "سمات السيد المسيح".

فقد نزفت أيدي بعض الرهبان وأرجلهم، من الأماكن التي قيل إنهم دقوا فيها مسامير الصلب بجسد المسيح النحيل.

بعدها بعشرات السنين؛ جاء العلماء ليحللوا.

قالوا: إيمان شدِيد، وقالوا "محاكاة نفسية"، لكن الاجتماعيين قالوا: "فكرة أدت إلى ظاهرة نفس عضوية"، أي رد فعل اعتقاد.. انعكس على أعضاء الجسم التي استجابت للفكرة، فالرهبان الكاثوليك أهّلوا أنفسهم للشعور بما شعر به السيد المسيح.. اقتداء به، وحبًا فيه.

ولو أن التفسير منطقي؛ إلا أن المسألة كانت "اقتداءً شكليًا" بالسيد المسيح.. أو هو

إيمان "طقسي" لم ينق العقيدة من بلاوٍ كثيرة ألمت بها.

فالرهبان الذين أدمت أيديهم فكرة إيمانهم بالصلب حبًا المسيح، هم أنفسهم الذين باعوا صكوك الغفران، وهم الذين كسبوا أموالًا طائلة من المؤمنين على الأرض، بعدما باعوا لهم أراضي وقصورًا ومساحات خضراء.. في السماء.

فمات المؤمنون بعدما خسروا أموال الأرض، ومن دون أن يجدوا ما اشتروه في السماء!!

"سمات السيد المسيح" لم تشد عضد المسيحية، تمامًا كما لم يفتح كلام الرئيس الإيراني عن الإمام الغائب، أو قصة ظهور الرسول في المهندسين آفاقًا جديدة للخطاب الإسلامي.

مرت أزمة حديث نجاد، ونسينا أزمة إمامة النبي (ص) المسلمين في المهندسين.. لكن ملف هذا النوع من "الأزمات".. ما زال مفتوحًا.

ربما نعود بعد فاد.ل قصير؛ فيفسح منا دسوقي آخر المكان لإمامة النبي (ص) في مسجد آخر، المساجد كثيرة.. وجعلت الأرض له (ص).. مسجدًا وطهورًا.

تغير الشيعة.. وتغير المتصوفة أيضًا.

أقطاب اليوم غير أقطاب زمان، وأولياء الله عام 2009، غير الأولياء قبل 500 عام.

المتصوفة الآن يأكلون "الدنش" نفحة في الحضرات بدل "قرص العجوة"، وينفق الأعيان منهم على "المهلبية بالأيس كريم" في حلقات الذكر بلا حساب.

لكن كثيرين لا يستسيغون فكرة قدرة فلوس النفحات، و"رزق" الرفاعية من "اصطياد الثعابين" مثلًا على شراء قنوات فضائية.

فضمن ما يحدث، كان إعلان الصوفية عن تحضيرهم لإطلاق قناة فضائية، تعبر عنهم، وتعيد تقديمهم من جديد للرأي العام.

فقد أعلن الشيخ علاء أبو العزائم عام 2008 أن "قناة صوفية" في الطريق، ولمّا

سألت الصحافة عن الممول؛ قال الشيخ أبو العزائم: التمويل من تبرعات المريدين، وإحسان "أهل الله"!

ولم يصدق أحد؛ لأن ما قاله مشايخ الصوفية، لم يكن يصدق.. أما الذي بدا.. فأن هذه الجماعات والتجمعات كانت قد دخلت طرقًا مختلفة، ومراحل جديدة.

المعنى؛ أن هذه الجماعات لم تعد مثار قلق في معتقداتها فقط؛ إنما توجهها المالي، ومصادر تمويلها باتت ألغازًا هي الأخرى.

حتى الآن لم يسأل أحد عن مصادر أموال المتصوفة؛ فالأصل أن الذي زهد لا مال له.. ولا غرض.

لكن ما يبدو.. أن وضع المتصوفة قد تغير، في الوقت الذي يصيب التشنج مشايخهم عندما يترامى الحديث عن سيرة تعاونهم مع أئمة الشيعة، حتى إن الشيخ علاء الدين أبو العزايم - عضو المجلس الأعلى للطرق الصوفية وشيخ الطريقة العزيمة - انفعل في أكثر من مناسبة وقال "الله يحرق إيران مع الجن الأزرق"، لكن الانفعال وحده لا ينفع، ولا الحلفان على الماء يجمد يسمن من جوع.

دعم المؤسسة الشيعية في إيران للمتصوفة في العالم الإسلامي.. قانون، صحيح بعضهم لا يعرف،، لكن البعض الآخر يكذب.

الشيعة يكذبون أيضًا، فالكذب جهاد، والتقية اجتهاد، فالشيعة (الاثنا عشرية) قننوا الاحتيال، ثم حولوه إلى فرض كفاية ونقلوه إلى المتصوفة، الذين بدءوا الحديث عن قناة تليفزيون بتمويل تبرعات أهل "الجلابيب المقطعة" ومن حر مال نفحات "حضرات الموالد" وأصحاب "الخيام الخضراء".

كان افتراء.

لكن البسطاء في "السيدة عائشة" وفي "السيدة زينب" وقرب مقام "علي زين العابدين" يصدقون المتصوفة، والمتصوفون يصدقون الشيعة، والشيعة يلعبون بـ"المتصوفة" و"الأضرحة"، كما لعبوا بسيرة "السيدة عائشة" و"السيدة زينب" وبـ"علي زين العابدين".

(2)

أثر البهرة الشيعة في الصوفية المصريين كثيرًا طوال الأربعين عامًا الماضية، فإليهم يرجع المتصوفة فضل تعليمهم طرق التوحد "الكامل" مع الذات الإلهية، بوساطة النبي (ص)، أو عن طريق أحد الأولياء.

"خزعبلات" البهرة عن معجزات "الأقطاب" و"انتقال أرواح الصالحين" الذين ماتوا ثم عادوا من حياة البرزخ للتنقل بين حضرات الذكر؛ كانت شديدة التأثير على أفكار "أهل الله".[10]

قلب "البهرة" "الزهد".. أساطير، وجعلوا الطريق إلى الله محفوفًا بآلاف القصص الخرافية.. كتبها قبلهم وليام شكسبير.

الإنجليز يقدرون وليم شكسبير، لكنهم لا يصدقونه، مع أن شكسبير لا كان ا.٨ في "العلم اللدني"، ولا في "اتحاد الروح" مع "القطب " في الزمان والمكان.

شكسبير الذي هو أبو المسرح الكلاسيك؛ لم يرتعد مرة في "حضرة" بجامع السيدة نفيسة، ولا دخل في غيبوبة "الوصول" على حصيرة .خضراء في مولد سيدي "ابن الفارض".

بدأ وليم شكسبير المسرح الإنجليزي بـ"قصص أطفال" وحكايات "ناس تطير" و"ملائكة تنزل" و"أصحاب خطوة" تتلاقى أرواحهم في الحياة الدنيا بلا سبب.. ولا سابق معرفة.

شكسبير قلب مسرح الإنجلين، كما فعل الشيعة بجغرافيا الصوفية، فحولوا طبوغرافيا "أهل الله" إلى سلاسل متصلة من "الكذب" و"الخرافة"، وضعت "العزمية" و"الدسوقية"

10- تنسب طائفة البهرة إلى الشيعة الإسماعيلية. التي ظهرت بعد وفاة الإمام الصادق. وقالت بإمامة ابنه إسماعيل. ولم تعترف بإمامة موسى الكاظم. معتمدين على ما ورد في روايات الأئمة من أن الإمامة في الأكبر من أبناء الأئمة. وكان إسماعيل أكبر أبناء الإمام الصادق. والبهرة من غلاة الشيعة. راجع أبو زهرة و"تاريخ المذاهب الإسلامية".

و"الشاذلية" و"الرفاعية" في موقف دفاع في الشارع، وفي الجامع.. أيضًا.

يرى بعض الباحثين أن ميل الفكر الصوفي للتشيع؛ كان السبب الرئيسي في ظهور "سلفية" الجزيرة العربية. ويرون - أيضًا - أن شيوع "تهويمات" الصوفية لدى عامة المصريين والتوانسة والمغاربة والسودانيين، كان عاملًا مهمًا في تضخم "الفكر المتشدد"، فأنتج في النهاية ما سمي بـ"الحركة الوهابية" في المملكة العربية السعودية بقيادة محمد بن عبد الوهاب.[11]

سيطرة "عبد الوهاب"، ثم آل "الشيخ" على "فقه الجزيرة العربية"، ومحاولات تصدير هذا الفقه إلى الخارج كان ارتدادًا لأقصى اليمين، بعدما طوح الشيعة بالإسلام لأقصى

11- هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبه بن سنبع بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعه بن أبي سود بن مالك بن حنظله بن مالك بن زيد مناه التميمي من المشارفة من المعاضيد من آل ريس من قبيلة الوهبة من بني تميم. أما والدة محمد: فهي بنت محمد بن عزاز بن المشرفي الوهيبي التميمي. فهي من عشيرته الأدنين. فيقال: (المشرفي) نسبة إلى جده مشرف وأسرته آل مشرف. ويقال: (الوهيبي) نسبة إلى حده وهيب جد الوهبة. والوهبة يجتمعون في محمد بن علوي بن وهيب. وهم بطن كبير من حنظلة.

ولد محمد بن عبد "وهاب سنة 1115 هـ (الموافق من 1703م). وذلك في مدينة العيينة قرب الرياض[2]. تعلم القرآن وحفظه عن ظهر قلب قبل بلوغه عشر سنين. وقرأ على أبيه في الفقه.

وتذكر مصادر الترجمة أنه كان مشهورًا حينئذ بحدة ذهنه وسرعة حفظه وحبه للمطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الإسلام. حتى إن أباه كان يتعجب من فهمه ويقول: لقد استفدت من ولدي محمد فوائد من الأحكام

وتوجه محمد بن عبد الوهاب للرحلة في طلب العلم فرحل إلى مكة والمدينة والبصرة غير مرة. طلبًا للعلم.. ولم يتمكن من الرحلة إلى الشام. ثم عاد إلى جد يدعو الناس إلى التوحيد. ولم يثبت أن محمد بن عبد الوهاب قد تجاوز الحجاز والعراق والأحساء في طلب اا علم. فتفقه على المذهب الحنبلي وتلقاه على يد والده بإسناد متصل ينتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل. كما تلقى علم الحديث النبوي ومروياته الحديثية لجميع كتب السنة كالصحاح والسنن والمسانيد وكتب اللغة والتوحيد وغيرها من العلوم عن شيخيه: العلامة عبد الله الفرضي الحنبلي والمحدث محمد حياة السندي وأسانيدهما مشهورة معلومة.

يقول في الايمان ما قاله السلف إنه قول وعمل يزيد وينقص. يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. هذا من عقيدته. وليس له في ذلك مذهب خاص كما يقول. وإنما أظهر ذلك في نجد. وما حولها ودعا إلى ذلك ثم جاهد عليه من رفضه. وعانده. وقاتلهم. وكذلك هو على ما عليه من الدعوة إلى الله. وإنكار الباطل. والأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر ولكن محمد بن عبد الوهاب وأنصاره يدعون الناس إلى الحق. ويلزمونهم به. وينهونهم عن الباطل. وينكرونه عليهم. ويزجرونهم عنه حتى يتركوه.

للمزيد.. راجع: محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته. تأليف الأستاذ الدكتور سليمان بن عبد الرحمن الحقيل ,الطبعة الأولى. 1999م.

محمد بن عبد الوهاب مصلح [illegible] ومفترى عليه. الأستاذ مسعود الندوي. ترجمة وتعليق عبد العليم عبد العظيم البستوي. مراجعة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي. 1420 هجري.

تاريخ العرب الحديث والمعاصر. دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. الطبعة الخامسة 1990م.

محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه. أمر بطباعة الكتاب الملك فيصل آل سعود. 1395 هـ

العبد اللطيف. عبد العزيز بن محمد بن علي (1989). دعاوى المناوئين لدعوة محمد بن عبد الوهاب: عرض ونقض. جدة. دار طيبة.

اليسار.

فقد حرّمت الوهابية التبرك بالأضرحة، وحرمت إقامة شواهد المقابر، ورفض الوهابيون الاقتناع بكرامات الأولياء.

قال الوهابية إن النبي وآل بيته ماتوا، فلا أرواحهم ممكن أن تعود، ولا كانت لهم أجساد "نورانية" يمكن أن تحضر سرادقات "الموالد" بعد مئات السنين من وفاتهم.[12]

الأهم: طعنت الوهابية في ما ميز به الشيعة الرسل.. كاستشراف الغيب، ومعرفة المستقبل؛ فقال الوهابية إنه ما كان محمد إلا بشر.. أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟

كانت الوهابية رد فعل، والنتيجة: أن حركتهم الممتدة حتى الآن، أعادت الغلبة لمدرسة "فقه المدينة"، أو مدرسة إسلام "الحديث النبوي" بعد مرحلة طويلة من الصراع مع مدرسة الرأي والاجتهاد في العراق.

فيما يبدو: أن ظهور الوهابية كان محفوفًا بالنوايا الحسنة، والأمنيات الطيِّبة.. إلا أن استمرار الحركة عاد بالمسلمين مئات السنين إلى الوراء: فانقفل مرة أخرى باب التجديد في الإسلام، بعد أكثر من بارقة أمل لبصيص من ضوء.

بعد خمسين عامًا من وفاة النبي (ص): اعتبرت مدرسة "الحديث" في المدينة أن "النقل" تمام العقيدة، لذلك: دارت أغلب مسائل مدرسة المدينة حول "العبادات" بوصفها أساس الدين، وقالت بإبطال العقل بالنقل"!!

"النقل" هو الأثر أو السنة المنقولة من العصر النبوي، مرورًا بالتابعين وتابعي التابعين.

صحيح جاء "القرآن الكريم" على رأس النقل، بوصفه ثابت المصدر: إلا أن مدرسة

12- دعا بن عبد الوهاب الناس إلى عقيدة التوحيد. ولذلك سمى أتباعه هذه الدعوة بالدعوة السلفية نسبة إلى السلف الصالح. وكان جل دعوته إعادة الناس إلى تحقيق التوحيد ونبذ الشرك الذي كثر آن ذاك مثل التعبد بالقبور والتقرب بالأصنام والأشخاص والبناء على القبور والتعامل بالسحر وغيرها من مظاهر. التي هي بحسب رأيه تنافي عقيدة التوحيد في دين الإسلام والتي ختمها آخر الأنبياء وتبعه بها الخلفاء الأربعة والصحابة والتابعون ومن بعدهم. ودعوة الناس لنبذ ما يخالفها من الأفكار التي كانت قد تفشت في ذلك العصر حسب اعتقاده.

الحديث أضافت السنة النبوية بجميع أنواعها.. حتى الضعيف منها لمصادر التشريع.. فأصبحت أحاديث الرسول في حكم "النقل".

أضر فكر "مدرسة المدينة" كثيرًا بالإسلام؛ فقد احتفلت هذه المدرسة بالمنقول على حساب المعقول، بزعامة الإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، وسفيان الثوري.. وآخرين.

ففي مقدمة كتابه "الموطأ"، قال الإمام مالك إنه جمع "كل ما شهر أن رسول الله قاله".. حتى الضعيف والمتروك والغريب!![13]

وكتب الإمام مالك في "الموطأ" أيضًا أنه جمع "الحديث الشاذ" و"المعلل" وغيره من الأنواع التي لا ينظر لرجال إسنادها.. ولا إلى رواتها.

في العراق؛ كان الأمر مختلفًا فلم تعول مدارس الفقه هناك على "الحديث النبوي" من دون اختبار، ولم تسلم بالمشهور من الأقوال عن النبي (ص).. والسلام، كما فعل أهل المدينة.

وضع فقهاء العراق الحديث النبوي تحت أكثر من مجهر عملاق؛ فتعاملوا أحيان كثيرة مع بعض النصوص "المنقولة" أو "المشهورة" بـ"ريبة" أدت إلى اللجوء كثيرًا لـ"شيء من الفلسفة" في التعامل مع "روح" النصوص القرآنية.. وتبين ما أراده الله، بحيث لو تعارض الحديث مع المنطق.. رفضوه.

وفي الوقت الذي أخضعت فيه مدرسة العراق النص.. ومفهوم النص.. وعنعناته لـ"ميكروسكوب" التدقيق؛ توارثت مدرسة المدينة "العنعنات" بلا قدرة أو شجاعة على "النقد" لتبين الرشد من الغي.

تطورات.. وتصورات مدرستا "العراق" و"المدينة" الفقيهة مرّتا بالتوازي، في فترة زمنية واحدة.. افتقدت إلى جسور التواصل، أو ما يمكن تسميته بحرية تداول البيانات بين الفريقين.

فنظرت مدرسة العراق في فلسفة "النص"، والبحث في "علل الأحكام"، وفحص

13- كتاب الموطأ، للإمام أنس بن مالك.

أسبابها. على النقيض من منهج أهل الحديث.

ففي المدينة أخذوا بـ "المنقول" كما هو، وفسروا الشك فيه لصالحه، حتى إن بعض الأئمة تمادى في ذلك.. فاعتقدوا في أن الله قد حفظ الحديث النبوي من "التحريف"، كما فعل سبحانه بالقرآن!

لذلك؛ ركب المنقول ظهر الزمن، وأسهم فقه المدينة في توصيله، من الماضي، على جسر الحاضر، للمستقبل على طريقة شركات البريد السريع، لا أحد فتح الرسالة.. ولا أحد اختبر ما بداخلها!!

أسهم تاريخ "المدينة المنورة" السياسي في تكوين "مدرسة الحديث"، وطريقة تفكير فقهائها؛ فأهل المدينة لم يشتغلوا بالسياسة طوال عمرهم، وفقهاء المدينة كانوا "رهبانًا" "نساكًا"، مقارنة بفلاسفة "العراق" الذين اصطدموا بمعارك فكرية وسياسية طاحنة فجرها "مسلمو فارس".

حتى ما وصل أهل المدينة من شظايا هذا "التطاحن": فإما أنهم رفضوه كله، أو أخذوه كله.. كعاداتهم، الأمر الذي اظهر نتائج فيما بعد، لا كانت متوقعة، ولا كانت مرغوبة.

(3)

لم يخض الفرس معارك سياسية فعلية مع العرب إلا في عهد هارون الرشيد، معاركهم الأكبر قبل مرحلة الاشتباك السياسي؛ كانت "عقلية".. "جدلية " في المقام الأول.

بحكم القرب الجغرافي؛ أثرت "جدلية" المسلمين الفرس في مدرسة العراق إلى حد كبير، في الوقت الذي ظلت فيه "مدرسة الحديث" بالمدينة بعيدة عن "الفلسفة الإسلامية"، وزخم الحوار الذي أظهرته علوم الكلام في الكثير من أمور العقيدة حتى فترة متأخرة من التاريخ.

لم ينس الفرس تراثهم الديني خلال الحكم الإسلامي، كما لم تغب واقع إمبراطورية الأكاسرة التي سُحقت تحت أقدام مسلمين بلا حضارة ولا مدنية، على الأقل فإن حضارة فارس، بعد فترة من دخول المسلمين؛ كانت قد دمرت بيد احتلال "ديني" لم يكن لخلفائه أي تاريخ "فكري" موازٍ أو مقارب للتاريخ الفارسي.

ولما اشتبكت مدرسة "المتكلمين" في العراق مع "الفلسفة" الإسلامية الفارسية، ظهر أن الفرس ابتكروا إسلامًا جديدًا خلطوا فيه بين تراثهم ومناطق في العقيدة الإسلامية لم يكن المسلمون قد "امتلكوها فكريًا" بعد.[14]

قاومت مدرسة العراق، في الوقت الذي لم يكن لأقطاب المدينة طاقة للمقاومة، أو احتمال لتبعاتها.

لما تكلم الفرس المسلمون مثلًا عن "الحلول"؛ ردت عليهم مدارس العراق. ولما فتحوا موضوعات خروج الأرواح من أجساد الكهنة بعد موتهم، لتحل في أجساد آخرين؛ جادلهم متكلمة العراق.. بينما "قعد" أهل المدينة عن النقاش.

فالفرس المسلمون كانوا أول من تكلم عن "حياة الأرواح" بعد الموت، وإمكانية انتقال

14- راجع ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، وأحزاب المعارضة، للمستشرق الألماني " فلهاوزن". وابن حزم "الفصل في الملل والأهواء والنحل" الجزء الثاني.

الصالح منها عبر الأزمنة والأمكنة.. بقوانين مختلفة قالوا إنها "قوانين البرزخ".

أما المتصوفة المصريون، فقد كانوا أول من تحدث عن مفهوم "الولي"، فأضفوا على "العارفين بالله" و"الأولياء" لمحة من "الخوارق"، وصورة من "الإعجاز".

اتجاه الصوفية الفكري هو الذي أثار السلفية؛ فاقتحمت جماعات السلفية الساحة منزعجة مما طرأ على الإسلام من خطوط جديدة؛ لينتهوا إلى أن الحل في القضاء على خرافات الصوفية، بالعودة للاحتكام إلى طريقة السلف الصالح في العبادة.

"الضغط الفكري" و"التحور الديني" هو الذي أنزل السلفيين أرض المعركة.. أشد بأسًا وأشد تنكيلًا؛ فعاد "أهل السلف"، والمتعبدون على طريقة "صحابة رسول الله" لآراء مدرسة المدينة، فتمسكوا بالحديث النبوي، إضافة إلى "ما يشتم فيه رأي صحابي" أو "أثر تابع من التابعين".

والذي حدث؛ أن السلفيين انغلقوا على أنفسهم؛ بعدما حتمت الظروف هذا الانغلاق، فقد كانت سوابق "الاختراق الخرافي" الذي نفذه المسلمون الفرس، وما نقلته جماعات الصوفية عن الشيعة عاملًا مهمًا في رفض السلفيين كل ما يخالف تصوراتهم الفكرية أو العقائدية.

جمود "السلفية" كان مبررًا، في الوقت الذي كان دخولهم مع "المتكلمين" في مسائل فلسفية إسلامية ليس فقط غير متكافئ؛ إنما لم يكن مناسبًا في مراحل تاريخية أخذ "السلفية" فيها على عاتقهم صد هجوم "الخرافة" وتنقية الدين.

في المقارنة بين مدرسة "الحديث في المدينة"، ومدرسة الكلام في العراق، كان المتكلمون أقوى حجة، وأكثر عقلًا، في الوقت الذي لم يثبت فيه ابتكار مدرسة "الحديث" أية أدوات فكرية للدفاع عن منطقها، فلا هم ابتكروا صيغًا "عقلية منهجية" لجدال المتكلمين، ولا سعوا لإيضاح وجهات نظرهم.. بدلًا من سيوف "العنعنات".. وتروس "حدثنا فلان عن فلان"!!

استمر الأمر حتى دخل التشيع مصر والمغرب العربي، ورغم ما أحدثه من مآسٍ؛ لا يزال كثير من المشايخ يتكلم عن "التقريب"، وعن المؤامرة السياسية الدولية لتقسيم

المسلمين؛ بدق أسافين الصراع بين مذاهبهم المختلفة.

مثير أن يرى كثير من المشايخ حتى الآن أنه لا خلاف بين السنة والشيعة، ولا بين الشيعة والدروز.. ولا بين الدروز والبهرة.. مع أن الحقيقة أن الخلافات، والاختلافات واضحة.

الخلافات العقائدية الشديدة بين المذاهب الشيعية والسنية.. هي التي جعلت محاولات الشيخ محمود عاشور والدكتور سليم العوا والمستشار طارق البشري والكاتب فهمي هويدي للتقريب بين المذهبين أقرب للتقوى.. منها إلى التوصل لصيغ وحلول، أو حتى رؤية حقيقية للواقع.

ووسط هذيان "مؤتمرات التقريب"، كان الشيعة يضربون من آن لآخر قنابل شديدة الانفجار في مكان ما على الأرض.

ففي عام 2007؛ تناقلت وكالات الأنباء العالمية أخبارًا وصورًا عن "حضرة" مدينة آسفين المغربية.

هناك، على شاطئ المحيط الأطلنطي؛ بدأ عشرات المغاربة في الطواف والحج في حرم "سيدي شاشكال"، قبل أن يقفوا وقفة "عرفات" على تلة صغيرة قرب قبر سيدي "شاشكال" أيضًا![15]

15- حسب سبكة العلم المغربية: فإنه في التاسع من ذي الحجة من كل سنة أي ليلة عيد الأضحى تؤم مجموعات من الساكنة المحيطة بضريح سيدي شاشكال (35 كلم شمال آسفي). الضريح المذكور للتبرك وأداء مناسك ما يعرف محليا بـ«حج المسكين» لغير القادرين على توفير تكاليف المشاعر المقدسة بالحرم المكي الشريف.

ويستقطب ضريح سيدي شاشكال (وهو شخص قادم من الشرق العربي حسب بعض الروايات المحلية) والقائم داخل مسجد مشيد فوق صخرة مطلة على المحيط الأطلسي «حجاجًا» وافدين من قبيلة أولاد زيد وغيرهم. وينتصب الضريح في شكل دائري شبيه بالكعبة المشرفة. و حوله يقوم رواد الموسم بإكمال سبعة أشواط من الطواف بأقدام حافية مرددين عبارات التلبية والتكبير. كما يصعدون إلى هضبة مجاورة يسمونها جبل عرفة ويصلون الظهر جماعة. ليتبادلوا التهاني في الأخير بإتمام المناسك المنتحلة.

ويقام موسم سنوي بجانب الضريح من أجل التسوق تباع فيه أساسًا لوازم عيد الأضحى من سكاكين وحبال ومجامير وحبال وتوابل وغيرها. وهو المكان الذي يقصده أغلب سكان المنطقة بكثرة.

وندد علماء دين مغاربة بـ"مناسك الحج" التي يؤديها المئات من مرتادي ضريح "سيدي شاشكال". واعتبروا أن هذه "الطقوس" تعد من تصرفات الجاهلية وافتراء كبيرًا على الإسلام وابتداعًا خطيرًا في الدين. فلا تقبيل لأي حجر في الدنيا بكاملها إلاّ الحجر الأسود. ولا طواف إلاّ بالكعبة المشرفة. ولا سعي إلاّ بين الصفا والمروة. ولا وقوف إلاّ بعرفة. انقيادًا لأوامر الله تعالى.

من سيدي "شاشكال" هذا؟

نصف المغاربة لا يعرفون.. لكن تقول الروايات إنه أحد تلاميذ "حمزة بن علي الزوزني" وزير الخليفة الفاطمي "الحاكم بأمر الله".

"الزوزني" هو الذي وضع عدة كتب في ألوهية الخليفة الفاطمي، وأرخ لما سماه الشيعة الإسماعيلية فيما بعد بـ"حلول روح علي بن أبي طالب في روح الحاكم بأمر الله، ثم تلبس روح الحاكم بروح الله".[16]

انتقل "الزوزني" من القاهرة للشام، وأسس مذهب الشيعة "الدروز"، فرفعته بعض طوائف جبال الشام إلى مرتبة "النبوة"، ووصفه كثير من الشيعة بـالـ"لا زماني" والـ"لا مكاني"، ثم قالوا بعد ذلك إنه سحب الألوهية من الحاكم بأمر الله واحتفظ بها لنفسه!

حتى الآن يعتقد الشيعة الإسماعيلية أن في "الحاكم بأمر الله" ملمح من روح الله، بينما يعتقد كثير من الدروز أن "الألوهية" لم تزل في حمزة الزوزني.. الذي صعدت روحه إلى السماء من دون أن يموت![17]

طائفة شيعية غير معروفة الأصل في المغرب.. هي التي بدأت الحج لدى "سيدي شاشكال".

فقد اعتبروا أن "شاشكال" هو نبي "الزوزني"، وأن "الزوزني" التقى "شاشكال" قبل موته وقال له: "أنت.. أنت"، الجملة نفسها التي قالها عبد الله بن سبأ لعلي بن أبي طالب (رض).. والمعنى الذي قصده ابن سبأ أن عليًا (رض) هو نبي الله.

"القديانيون" أيضًا لا يزورون الحرم المكي.. لكنهم يحجون إلى مدينة قديان الهندية كل عام، ويطوفون الأشواط السبعة حول قبر الإمام "أحمد" مؤسس المذهب و"نبي الله"،

16- رسائل الزوزني، والنقض الخفي، مرجعان سابقان، وراجع "القرمطي" فيما كتبه للحاكم بأمر الله عند وصوله إلى مصر، وراجع - أيضًا - الحاكم بأمر الله والدعوة الفاطمية.

17-اعتقد بعض الفرس أيضًا، بعد دخول العرب، وقتلهم أبا مسلم الخراساني، أن أبا مسلم لم يمت، وأنه خليفة النبي محمد (ص)، وأن الله قد رفعه للسماء، وأنه سوف ينزل بعد فترة؛ ليخلص الفرس من العرب، راجع "وليد الأعظمي" مرجع سابق، والشهرستاني، في "الملل والنحل".

كما يسمونه! [18]

بعض المشايخ لا يعتبرون القديانيين "شيعة"، مع أن الشيعة يعتبرون القديانيين منهم.. بينما يؤكد القديانيون أنهم "مسلمون" رغم شكوكا في هذا الأمر لدى كثير من مشايخ الأزهر الشريف.

تقرأ الطائفة القديانية القرآن الكريم إلى جانب كتب مقدسة أخرى، وهم يعترفون بمحمد (ص).. ويعتقدون في أن روحه انتقلت لأئمتهم بعد وفاته.

ويكفّر القديانيون "البهرة". فالبهرة يشدون الرحال إلى جامع الحاكم بأمره في القاهرة، بينما لا تؤمن الطائفة القديانية بشد الرحال إلا إلى مسجد الإمام سيدي أحمد القدياني.. في الهند!

ويحاول القديانيون "باستماتة" نشر مذهبهم طوال الخمسين عامًا الماضية بالدول الإسلامية، يقولون إنهم مذهب إسلامي.. لكنهم ليسوا كذلك.

مشايخ الأزهر لا يعترفون بهم للآن.. ومعهم حق، لكن لا حياة لمن تنادي، فحمى

18- ظهرت القديانية سنة 1900 م. وكان ميرزا غلام أحمد القدياني 1839-1908م أداة التنفيذ الأساسية لإيجاد القديانية. وقد ولد في قرية قديان من بنجاب في الهند عام 1839م. لأسرة موسرة. وقد تصدى لدعوته الشيخ أبو الوفاء ثناء الله الآمرتسري أمير جمعية أهل الحديث في عموم الهند. حيث ناظره وأفحم حجته. وكشف خبث طويته. وكفر وانحراف نحلته. ولما لم يرجع غلام أحمد إلى رشده باهله الشيخ أبو الوفا على أن يموت الكاذب منهما في حياة الصادق. ولم تمر سوى أيام قلائل حتى هلك الميرزا غلام أحمد القدياني في عام 1908م. مخلفًا أكثر من خمسين كتابًا ونشرة ومقالًا. ومن أهم كتبه: إزالة الأوهام. إعجاز أحمدي. براهين أحمدية. أنوار الإسلام. إعجاز المسيح. التبليغ. تجليات إلهية. ويعتبر نور الدين الخليفة الأول للقديانية. هو ومحمد علي وخوجه كمال الدين. أمير القديانية اللاهورية. وهما منظرا القديانية. وقد قدم الأول ترجمة محرفة للقرآن الكريم إلى الإنجليزية ومن مؤلفاته: حقيقة الاختلاف. النبوة في الإسلام. والدين الإسلامي. أما الخوجه كمال الدين: فله كتاب المثل الأعلى في الأنبياء وغيره من الكتب. وجماعة لاهور هذه تنظر إلى غلام أحمد ميرزا على أنه مجدد فحسب. ولكنهما يعتبران حركة واحدة تستوعب الأولى ما ضاقت به الثانية وبالعكس.

وقد بدأ غلام أحمد نشاطه كداعية إسلامي حتى يلتف حوله الأنصار. ثم ادعى أنه مجدد وملهم من الله. ثم تدرج خطوة أخرى.. فادعى أنه المهدي المنتظر والمسيح الموعود ثم ادعى النبوة وزعم أن نبوته أعلى وأرقى من نبوة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم.

ويعتقد القديانيون أن الله يصوم ويصلي وينام ويصحو ويكتب ويخطئ ويجامع ـ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا. وتعتقد القديانية أيضًا أن النبوة لم تختم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم: بل هي جارية والله يرسل الرسول حسب الضرورة. وأن غلام أحمد هو أفضل الأنبياء جميعًا. وأن جبريل ـ عليه السلام ـ كان ينزل على غلام أحمد وأنه كان يوحى إليه. وأن إلهاماته كالقرآن. ويقولون لا قرآن إلا الذي قدمه المسيح الموعود (الغلام). ولا حديث إلا ما يكون في ضوء تعليماته. ولا نبي إلا تحت سيادة غلام أحمد. وهم يؤمنون أن كتابهم منزل واسمه الكتاب المبين وهو غير القرآن الكريم. لأنهم أصحاب دين جديد مستقل وشريعة مستقلة وأن رفاق الغلام كالصحابة. وأن مدينة قديان كالمدينة المنورة ومكة المكرمة: بل أفضل منهما وأرضها حرم وهي قبلتهم وإليها حجهم.

المذاهب الإسلامية "الغريبة" تعمل تحت الأرض منذ فترة، والأعوام العشرة الأخيرة بدأ "اللعب" فوق الأرض.. من دون أن يعرف أحد السبب.

مصر - غالبًا - محطة مهمة في خريطة التبشير القدياني.

عام 2007؛ أوصى مجمع البحوث الإسلامية بمنع نشر وتداول كتاب يروج للقديانية، ألفه خليفتهم الرابع ميرزا "طاهر أحمد".

ولو أن مفهوم المصادرة لم يعد مجديًا.. ولا منطقيًا؛ إلا أن فوضى المذاهب الدينية قلق "مبرر".

ففوضى المذاهب لم تعد تحسب على الدين قدر حسبانها على الدنيا، والقديانيون لديهم علاقات وطيدة بالمرجعيات الشيعية في طهران وقم والنجف، في الوقت الذي كان لدى الثورة الإسلامية في إيران استعداد واضح لاستيعاب جميع التيارات "الإسلامية" على طريقتها.

القديانية ليست مذهبًا شيعيًا صرفًا، لكن - رغم ذلك - يظل إنكار ارتباطها عقائديًا بمذهب "الروافض المتشيعين" غير واقعي، فمساحات "التلاقي" بين "الرافضة" و"(الاثنا عشرية)" وبين البهرة وباقي طوائف الشيعة الإسماعيلية واضح، حتى مع الاختلافات بين كل تلك الطوائف.

لذلك فـ"التفاهمات العقائدية" بين (الاثنا عشرية) والقديانية.. في نقاط مشتركة.. ممكن أيضًا!!

ميرزا "طاهر أحمد" مؤلف الكتاب الذي صادره الأزهر عام 2007؛ زار دولًا أوروبية كثيرة بترتيبات ودعم إيراني طوال الخمسة عشر عامًا التي سبقت هذا التاريخ.

ميرزا "طاهر" أسس أيضًا مراكز"تبشيرية" يسميها القديانيون "مراكز علم".. بدعم إيراني حول العالم.

وفي كندا.. تولت الجالية الإيرانية دعم بناء أول مسجد قدياني عام 88، تلاه "مراكز علم" في ضواحي قرى بعيدة في زامبيا وسيراليون وليبيريا وساحل العاج وغانا

ونيجيريا.

كسبت القديانية أكثر من نقطة منذ نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، فيما بدا الباب المصري مفتوحًا أمامهم.. بدعم شيعي أيضًا.

كتاب القديانية الذي أوصى الأزهر بمصادرته، مكتوب بالعربية رغم أن القديانيين لا يميلون إلا لتعلم الفارسية.. إضافة إلى الهندية، فقد ظهر مذهبهم أواخر القرن التاسع عشر بقرية "قديان" في إحدى مقاطعات إقليم "البنجاب" الهندي.

قبل وفاة ميرزا "الطاهر أحمد" عام 1984؛ لم يكن القديانية قد وضعوا مصر على خريطتهم التبشيرية بعد، لكن الوضع تغير بعدما تولى ميرزا "مسرور أحمد" منصب ناظر المذهب وأميره الأعلى عام 2003.

من وقتها، يبحث القديانيون سبلًا عديدة للنفاذ إلى الدول العربية.. ومصر على رأس القائمة!!

القديانيون يتصلون بالصوفية في مصر، والصوفية لا يفقهون حديثًا. ولا يعرفون أن "القديانيين" يحاولون نشر مذهبهم في حين أنهم لا مسلمون ولا "دياولو".

لا يعرف المتصوفة غير أن "القديانيين" يلبسون عمامة خضراء، وجلابيب بيضاء.. وأنهم "أحباب الله"، جميع أصحاب العمامات الخضراء والجلابيب البيضاء.. بالضرورة أحباب الله، مع أن الله لا يأخذنا بألوان العمائم، ولا بأطوال الجلابيب.

لكن أعمى يسامر ميتًا، والصوفية كالأنعام.. والقديانيون أضل.

بسم الله الرحمن الرحيم

"صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة البقرة

حبب إليهم قناطير الذهب والفضة والظهور في الفضائيات

(1)

يبدو أن الله لا يود أن يتوب علينا.. ولم نرغب نحن في ذلك من الأساس.

عام 2008 عقدت صحيفة خليجية مشهورة ندوة - علمية - لمناقشة "الرقية الشرعية" في الإسلام.[1]

حضر المشايخ.. ونظّروا.. واستفسروا، وناقشوا، وكان الإسلام هناك على المشاع، على عينك يا تاجر.. ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لكن في الخليج لا يكفر أحد بالرقية الشرعية.. ولا بكلام الشيخ عائض القرني.

والشيخ القرني حسب ما نشر قال إن الرقية علاج رباني للأمراض النفسية، وأفتى أن القرآن والسنة والأدعية المأثورة عن الصحابة علاج فعال لبعض الأمراض العضوية.

قال القرني إن العلم أثبت هذا الكلام خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة.. من دون أن يذكر متى ولا أين، ومن العالم الذي أدخل الرقية الشرعية المعمل، وقاس ذبذبات الحديث النبوي، وخرج بنظرية إمكانية شفاء الأمراض بآيات القرآن الكريم؟

الشيخ القرني علامة في الخليج، وهو حجة الإسلام في بلاده.. وإذا كان رب البيت بالدف ضارب؛ فأهل البيت لا بد أن يرقصوا.

في ندوة الرقية الشرعية رقص المشايخ

قدم بعضهم أوراقًا "بحثية" في قدرة الأدعية المأثورة عن الصحابة في علاج اضطراب إنزيمات الكبد، أما عائض القرني على طريقة "وان مان شو"؛ فقد قلب الطاولات.. ورزع رءوس الحضور في الحيطان.. قبل أن يرزعها في الأرض؛ ليفجر قنبلته المدوية بإفتائه الذي تناقلته الصحافة الخليجية على نطاق واسع بعدم جواز ضرب

1- ندوة نقلتها عن جريدة عكاظ. معظم جرائد وصحف الخليج العربي. وذاع صيتها حتى تناقلت أحداثها عدة وكالات أنباء وبرامج فضائية في العام نفسه.

المريض في "الرقية".

وكأنه لم يعد لدينا من الكوارث غير "شرعية الضرب في الرقية". أسقط في يد الجميع، فهم يضربون المرضى.. حتى ينزفوا، والثابت لدى مشايخ الخليج.. نقلًا عن السلف الصالح "طحن" المريض "ضربًا" مع تلاوة الأدعية على جسده.

في الندوة المعجزة، حدد القرني شرعيًا ـ للمرة الأولى ـ ما يستوجب الضرب وما يكره معه.

انتهت الندوة ببروتوكول "إسلامي" اتفقوا فيه على أن "الرقية" هي العلاج الوحيد لـ"مس الجن" و"فك السحر" ودرء "عين لم تصلِ على النبي"!!

التائب من الذنب كمن لا ذنب له، لكن بعض المشايخ لا يفكرون في التوبة، أنعم الله عليهم بالنفس المطمئنة قبل النفس اللوامة.

قال الشيخ القرني إنه لا يجوز الضرب في الرقية حسب "ابن القيم"، وقال إن على المسلمين التمسك بالرقية في المرض حسب "ابن القيم" أيضًا، ووافَقه باقي المشايخ، ففي السعودية لا يعارض الشيخ عائض أحد، أما الشيخ عائض فلا يقوى على مجرد إعادة التفكير فيما قاله الإمام ابن القيم الجوزية.

بعضهم يعتقد أن الأئمة السابقين "سلف صالح"، أو هم لا يُسألون عما يفعلون.. ولا يجوز غربلة ما شهر عنهم أنهم قالوه.

"ابن القيم" كان إماما مشهودًا له في بعض آرائه، فكثير من تخريجاته الفقهية كان معتبرًا، لكن بعضها لم يكن كذلك.[2]

ولو صح أنه تكلم عن "الرقية"، وفصل فيها.. فعاد وزاد.. وربطها بالدين؛ فالأكيد أن

2- هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زيد الدين الزُّرعي. ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بشمس الدين. أبو عبد الله وابن قيم الجوزية. من عائلة دمشقية عرفت بالعلم والالتزام بالدين. واشتهر خصوصًا بابن قيم الجوزية. وقيم الجوزية هو والده. فقد كان قيمًا على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن. واشتهر بذلك اللقب ذريته وحفدتهم من بعد ذلك. وقد شاركه بعض أهل العلم بهذه التسمية. وتقع هذه المدرسة بالبزورية المسمى قديمًا سوق القمح أو سوق البزورية (أحد أسواق دمشق). وبقي منها الآن بقية ثم صارت محكمة إلى سنة 1372هـ 1952م.

ولد في اليوم السابع من شهر صفر لعام 691هـ الموافق 2 فبراير 1292م. ويقال إنه ولد في أزرع جنوب سوريا وقيل في دمشق.

الرجل في هذا الموضوع.. لا كان عدلًا، ولا هو ثقة!!

العلاج بالقرآن، والرقية بأدعية النبي (ص) لم تعد فقط "سبوبة" لكسب أموال يأكلها أصحابها فيأكلون نارًا ويصلون سعيرًا؛ إنما تحولت لدى الكثيرين معلومًا من الدين بالضرورة.. بعدما ضرب أدمغة المشايخ.. "الكلام الفارغ".

في ندوة "الرقية" تكلم الشيخ الغامدي أيضًا، وقال إن الضرب في الحالات القصوى جائز، وقال إنه واجب في الحالات التي يتعرض فيها الراقي لـ"هجوم الجن"!!

وقال الغامدي إن الضرب يجب أن يكون في المكان الذي لا يشعر فيه المريض بألم!

"الضرب" في الرقية عند الشيخ الغامدي الذي يصلي بآلاف المسلمين في الحرم المكي أحيانًا، ويفتيهم في معظم بلدان المسلمين آناء الليل وأطراف النهار.. واجب شرعي، والأكثر وجوبًا عند الغامدي "الضرب مباشرة.. في المكان المستقر به الشيطان في جسم المريض"!! وفي الندوة؛ تكلم المشايخ ما زاد على 6 ساعات؛ فاستمع لهم وأنصت ملايين المسلمين على الفضائيات.

بعض المشايخ لا يفقهون حديثًا!! تجلياتهم أرهقت أطباق الاستقبال فوق أسطح المنازل، وكما زلزلنا حديث عائض القرني، والغامدي عن "الرقية الشرعية"؛ زلزلتنا وقلبت رءوسنا ورزعتنا في الأرض "نورانيتهم" في تفسير الأحلام على الفضائيات.. بكتاب الله، وبسنة رسول الله أيضًا.. كما قالوا.

تجليات الشيخ سيد حمدي والشيخ سمسم والشيخ نمنم أرهقت أطباق الاستقبال فوق أسطح المنازل، معادن الدش تنصهر - في الغالب - من نورانياتهم، فالشيخ حمدي يفسر الأحلام، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخبرهم بما يدخرون في بيوتهم من استوديوهات الفضائيات!![3]

للشيخ سيد في تفسير الأحلام كرامات لو تعلمون، ولجمهوره في رواياته أسقام.

3- ظهر الشيخ سيد حمدي بداية من عام 2001 على إحدى الفضائيات العربية. وقال إنه يفسر الأحلام بكتاب الله، وسنة رسول الله: ما أحدث لغطًا بين أئمة الدين، والأزهريين. وقال إنه كان عضوًا في لجنة الفتوى بالأزهر، وكثرت الأسئلة حول حقيقة ارتباط تفسير الأحلام لمشاهدي القناة التي يظهر من خلالها بعلوم الدين، وبالمشهور عن النبي (ص). وتوفي رحمه الله عام 2011. غفر الله لنا وله.

المسلمون في مصر والسعودية والكويت، وفي جزر إندونيسيا وفي الأزاروس والملايو يؤمنون أن المشايخ لا يأتيه الباطل في تفسير الأحلام لا من بين يديه ولا من خلفه.

بالنسبة للمشايخ؛ فان في اعتقاد المسلمين فيهم "مصلحة"، ورزق، وأكل عيش، وبالنسبة للشيخ سيد حمدي إمام فقه تفسير الأحلام؛ فإنه يجوز اعتبار إصراره على تأكيد تأييد كتاب الله وسنة رسوله لتفسيراته؛ إنما هو من باب الرد على "خباثة" الذين في قلوبهم مرض، أو الذين قالوا إنه يلعب بالدين، ويلعب بالذين لا يعرفون أنه يلعب بالدين!

بالسنة يفسر الشيخ سيد حمدي الأحلام، وبكتاب الله فيعطي الشربة فينزل الدود، ويعطي الدود، تنزل الشربة.. ويعطى الشربة.. والدود ينزل الحاج محمود!!

لا سحر ولا شعوذة

"تفسير الأحلام" بالنسبة للمشايخ الجدد نوعَ من أنواع "الولاية"، مع أنه لا تجوز ولاية فاحش الغلط فاحش الغفلة، كما لا تجوز للأسير والضرير، ومشايخ تفسير "المنامات" على الفضائيات تقبل دعوتهم، ولا تقبل روايتهم، لكن يا فرعون إيه فرعنك؟ قال: "ما لقتش حد يلمني".

رجال الدين في الألفية الجديدة.. كما رجال الأعمال قبل 35 سنة.

في السبعينيات؛ كان تجار المارلبورو المهربة، وسماسرة الشيكولاتة "المارس" في بورسعيد هم رجال الأعمال.

في السبعينيات أيضًا تحول "ميكانيكي السيارات" إلى باشمهندس، وفتحت التوصيفات الجديدة أبوابًا كثيرة.. وكبيرة.

لما جاءت الملكة فريدة إلى القاهرة في الثمانينيات؛ سمعت بواب عمارتها يقول لزميله يا "باشا".

ولما طلبت إلى بوابها شيئًا خاصًا؛ خاطبها هي الأخرى يا باشا؛ فثارت، واحمر وجهها وقالت للبواب ما لم يفهمه، كما لم يفهم ما الذي أثار هذه السيدة العجوز، التي

لا يعرف من هي، ولا ما الذي أتى بها للسكن في شقة قديمة بالزمالك آخر أيام عمرها.

قالت الملكة للبواب: لا تقل لي يا باشا.. فلا يمكن أن أكون أنا باشا.. وزميلك أنت باشا أيضًا، هناك شيء ما خطأ، ثم طلبت الملكة فريدة إليه أن يناديها بجلالتك.. أو "أفندم" على أقل تقدير.

الملكة فريدة عادت لمصر بداية الثمانينيات من القرن الماضي، واصطدمت باختلال الموازين، والأبواب التي انفتحت للبواب الذي تحول إلى باشا، والبائع السريح الذي تحول بعد سنوات إلى رجل أعمال.

الأبواب نفسها انفتحت بداية من منتصف الثمانينيات للمشايخ عمر عبد الكافي، وياسين رشدي ثم عمرو خالد، وخالد الجندي وسيد حمدي.

معظم نظريات سيد حمدي، أحد كبار مفسري الأحلام، ليست من عند الله... لكن الله جاب.. الله عليه العوض.

الأضواء لمت في السبعينيات.. والفضائيات - أيضًا - في الألفية الجديدة.

إليك هذه القصة: "ففي حضرة الخليفة "المأمون" العباسي، اختلف فقهاء المسلمين فيمن صعد للشمس وأدركته الصلاة، أيتوضأ أم تجوز صلاته من دون وضوء؟!".[4]

واستمر الخلاف ثلاث سنوات

وفي العصر الفاطمي اختلفوا في "نملة" سيدنا سليمان.. ذكر هي أم أنثى؟! وفي نهاية العصر المملوكي نشب خلاف فقهي حاد، في قميص سيدنا يوسف - عليه السلام - الذي أعطاه لإخوته، فألقوه على وجه أبيه يعقوب - عليه السلام؛ فارتد إليه بصره، ناقشوا لون القميص المفترض، وشكله، ثم تفرع الخلاف إلى شرعية القميص الذي ارتداه الفاطميون مقارنة بقميص يوسف - عليه السلام.

وبعد مئات السنين.. تكررت المأساة؛ فاشتد الخلاف عام 1998 في الشرق على

4- من تاريخ العباسيين. مراجع مختلفة. وراجع الفلسفة في العصر العباسي الأول.

عرض فيلم آلام المسيح.. قبل أن تتفرع الآراء للجدل في جواز ظهور الصحابة والمرسلين على شاشات التلفزيون.

كانت قضايا مثل "الصلاة على الشمس" و"قميص يوسف"، و"نملة سليمان" لا تزال تأكل فينا، وتطور نوعًا غريبًا من الفقه الديني الذي وأد العقول.

في عصر الدولة العثمانية؛ رفض الخلفاء الحرب بالبارود باعتباره أمرًا مخالفًا للشرع، فالبارود لم يرد له ذكر في الكتاب ولا في السنة النبوية.

وكلما كانت تشتد هجمات الأوروبيين بالبنادق والمدافع؛ كانت يشتد بين المشايخ الخلاف في وجهات النظر، وتوظيف الأحاديث.. والعنعنات.. حتى سقطت أراضي الدولة العثمانية في يد الاحتلال.

ما زال البعض يعوق الفقه الإسلامي، فيضع أمامه الحواجز والمتاريس، ويغلق أمامه الطرق والمسارات والشوارع.. فيجعله كالنهر الذي لا يجري إلا بين ضفتين ضيقتين.

فيصبح تحريم ظهور الصحابة على الشاشات واجبًا شرعيًا، بينما يقف العالم على قدم بفيلم لا يُضاهىاسمه "آلام المسيح"!

معظمنا تقبل الوضع، واستسلمنا للذين لم نسأل إلى أية قواعد استندوا؟! ومن الذي خرّج آراءهم؟! ولا كيف أخرجوها لتصبح قاعدة شرعية نسير عليها وتسير عليها أجيال من بعدنا؟!

ضيقوا، مع أن فقه الإسلام "على حقيقته" واسع المدى، مرن، أو قصد الله له أن يكون مرنًا.

فقد أقام الله الدين على مصادر غير جامدة، وأراد سبحانه لها القدرة على استيعاب كل ما يظهر من جديد في أي عصر.

رغم ذلك يصر بعضنا على اختزال المرونة، وتضييق الواسع.. فيضيق على نفسه وعلينا؛ ليجعلنا أضحوكة، أو نكتة يطلقها.. ولا يضحك عليها أحد.

حتى نحن لم نعد نضحك، فنحن الذين نجري وراء "طقوس" بوصفها كمال الدين،

ونلهث وراء "رتوش" بوصفها روح "الفن".. رغم أن لا الرتوش فنون، ولا الطقوس عقيدة.

في الشارع المصري زاد الحجاب، لكن لم تقل نسبة المتقاضين بالمحاكم.. وزاد الملتحين من الرجال، ولم ينخفض عدد قضايا الأحوال الشخصية في المحاكم، بعدما افترى الرجال.. ونشزت النساء.

صار الحجاب الفضيلة الوحيدة، مع أن رذائلنا كثيرة في المعاملات والحقوق. نضرب أولادنا على الصلاة والصوم، بينما لا نحضهم على ألا يخسروا الميزان، نمنع ظهور الصحابة وآلام المسيح و"الرسالة"، ونمنح فيفي عبده ودينا ولوسي جوائز الإبداع!

طالبنا المشايخ بالكف عن الاجتهاد في العقائد، بينما هم لا يتوقفون عن الثرثرة على شاشات التلفزيون، في فقه "تفسير الأحلام"، و"أحكام دخول الخلاء" أو "دورة المياه"!

لا المشايخ تطوروا، ولا ساعدونا على أن نفعل؛ فتشوهت صورة الإسلام، مع أن في قرآن المسلمين القدرة على احتواء تغيرات المجتمعات، وفي الدين القدرة على استيعاب هذا التغير.

معجزة قرآن المسلمين ليست في بلاغته وحكمته، بقدر ما هي في قدرة نصه الذي لم يتغير منذ نزوله على استيعاب جميع المتغيرات الزمنية التي زادت على 1430 عامًا.[5]

ولأنه ـ القرآن ـ أوسع مصادر التشريع وأكثرها مرونة؛ فإنه من غير المعقول أن نظل واقفين وراء من نصبوا أنفسهم أئمة، يتعاملون مع الكتاب بسوء بصيرة وضيق أفق فتكون النتيجة سوء المنقلب.. وبئس المهاد.

فبعد انقطاع الوحي، ووفاة النبي (ص)؛ طرأت على حياة المسلمين أمور جديدة لم يذكرها الكتاب في عصور الإسلام الأولى؛ لذلك كان على المسلمين أن يتدبروها بأنفسهم.[6]

5- راجع الكتاب والقرآن للدكتور محمد شحرور، والمستشار العشماوي، مراجع سابقة.

6- راجع حديث "النخل". "أنتم أعلم بشئون دنياكم". وما ورد بالبخاري.

الأصل في فلسفة الدين الإباحة ما لم يرد نص يحرم.. وهي القاعدة المعروفة بأن الأصل في الأحكام الإباحة، ما لم يرد نص.. غير الدماء والفروج فالأصل فيها التحريم.[7]

والإسلام بخلاف الديانات الأخرى؛ لا يعرف الكهانة، فلا يعترف بنخبة حاكمة من رجال الدين؛ لأن أمور المسلمين شورى بينهم.

ويعرف الدارقطني "شئون الدنيا" بأنها "التي لم يرد فيها نص قرآني ولا شهدت عليها السنة ولا أجمع عليها المجتهدون".

[8]المنطقي - مثلًا - اعتبار ظهور الصحابة والمسيح وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح على شاشات التلفزيون والسينما من أمور الدنيا، فلا نص يرفض ولا سنة تنفي، مع غياب الإجماع في هذا الخصوص.

ثم إنه في نهاية القرن الرابع الهجري؛ اجتمع أهل الفقه على استحالة الإجماع، لصعوبة اجتماع العلماء.[9]

والإجماع هو اتفاق جملة المجتهدين في عصر معين على حكم شرعي معين في واقعة معينة، ومن تعريفاته اشتراط موافقة عدد من المجتهدين في مكان معين بزمن معين، وإجماعهم بالرأي على حكم شرعي معين.

يقول السهلي: فإذا لم يوجد مجتهدون في هذا الوقت أو تفرقوا بما يجعل اتفاقهم مستحيلًا أو متعذرًا؛ استحال وقوع الإجماع.

ويشترط الإمام الشافعي اتفاق جملة مجتهدي العصر لوقوع الإجماع والاعتداد به كحكم شرعي يحرم أو يحلل، لذلك؛ قال الشافعي بضرورة اتفاق جميع من توافرت فيهم شروط الاجتهاد في جميع الأقطار الإسلامية على موافقة صريحة، أو حكم واحد.

7- قاعدة أصولية فقهية معتبرة لدى الجمهور على العموم.

8- هو الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن دينار البغدادي، ويلقب بـ "الدارقطني" ولد بدار القطن، بغداد (306 هـ - 385 هـ).

المقرئ، المحدث اللغوي، الأديب صاحب المؤلفات المتقنة في علوم القرآن والحديث.

9- يعرف الإجماع على أنه "اتفاق جملة المجتهدين في عصر معين على حكم واقعة معينة". وذهب الكثيرون من العلماء، إلى استحالة وقوع الإجماع بعد ترامي المسلمين، وانتشارهم في الأرض والبلاد، لاستحالة معرفة آراء كل المجتهدين في بلاد الإسلام جميعها، ولاستحالة معرفة رأي كل منهم (راجع الإمام ابن حزم في الأحكام فيما نقله عن أحمد بن حنبل).

وأخذ المالكية والحنابلة بالمصالح المرسلة لتدبير شئون المسلمين فيما لم يرد فيه نص.

ووفقًا لمبدأ المصالح المرسلة؛ فإن كل فعل مباح ما دام لم يرد في تحريمه نص، ما دام يؤدي إلى مصلحة.

القضية ليست منع فيلم، أو الإفتاء بعدم جواز ظهور الصحابة أو الأنبياء على الشاشات؛ القضية قضية سلوك فكري.

فعندما مر الفقه الإسلامي بفترات طويلة من التضييق والانغلاق، استبدل مبدأ المصالح المرسلة الواسع بقاعدة سد الذرائع شديدة الضيق.[10]

فقد أباح "إرسال المصالح" كل ما لم يرد فيه نص، بينما حرم سد الذرائع كل شيء.. حتى ما لم يرد فيه نص، وعلل الذين لجئوا لسد الذرائع إلى جواز تحريم الحلال، الذي قد يؤدي بحلاله إلى حرام.

كانت مصيبة.. نعاني منها حتى الآن.

فـ"سد الذرائع" هو الذي منع العثمانيين من الحرب بالبنادق خوفًا من الوقوع في الحرام، وهو الذي حرم صناعة البارود؛ لأنه إذا كانت صناعتها حلالًا، فإن استخدامها في حرام جائز!!

كان "سد الذرائع" سببًا في توالي المصائب

ففي القرن الخامس الهجري نادى بعضهم بتحريم زراعة العنب خوفًا من رواج صناعة النبيذ.. وتجارته؛ فزاد الميل إلى المنع، على حساب الميل إلى الإباحة.

مع أن المنع سلطة إلهية، أما الإباحة؛ فهي سلطة إنسانية في غياب النص.. طلبًا للمصلحة.

10- المعنى من "المصالح المرسلة" هو: كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها أو عدم اعتباره." وقالوا: "إنه الإتيان بكل ما لم يقيده النص. أو الإجماع. أو باقي مصادر الأحكام الشرعية. باعتبار أن الإتيان بالفعل طبقًا للمصلحة يجلب نفعا. ويؤدي إلى دفع ضرر" (راجع محمد يوسف موسى في "المدخل". و"الأصول" لمحمد بن زكريا البرديسي.
وبينما التعريف الواسع لقاعدة "سد الذرائع" هو: "النهي عن كل ما يؤدي بحلاله إلى حرام" والمعنى "منع المباح". إذا أدى إلى محظور حسما لمادة الفساد ودفعًا لها" (راجع الفروق للقرافي). والموافقات للشاطبي.

فقهًا؛ تتدرج الأحكام الشرعية من التحريم إلى الإباحة.. بالمرور بالكراهة والندب والوجوب.[11]

ربما يجوز أن يحمل بعضهم ظهور الصحابة في الأعمال الفنية على الكراهة، بينما يجوز أن يحمله آخرون على الإباحة.. والرأيان اجتهاد، لكن لا يجوز بأي حال المنع والتحريم.. في غياب النص.

11- قاعدة شرعية متعارف عليها بين الدارسين والعلماء.

بسم الله الرحمن الرحيم

"فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (١٠)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم
سورة الأنعام

فقه "الجماع".. وأدعية دخول "دورات المياه"!!

(1)

خضع الدين على الفضائيات لقوانين العرض والطلب.

اشترك رجال الدين في اختزال "الواسع" غير المحدد، في موضوعات "ضيقة.. محدودة"؛ بدأت من الاختلاف في أسانيد حديث دعاء دخول "الخلاء"، وانتهاء بمتون سنن تحرم الخروج منه بالقدم اليسرى.

الداعية "عمرو خالد" كان أحد أهم الذين يمكن أن نعلق على أكتافه مسئولية "نيولوك" برامج الدين على شاشات التليفزيون، وكثيرٌ منها كان أزمة!

فللشيخ عمرو براءة اختراع "تزويق الدين" بلا مضمون، ولا يحزنون، فهو الذي اكتشف سطوة بدلة الداعية "الاسبور" على عقول مشاهدي برامج السيرة النبوية من الشباب، وهو الذي عرف سحر بث ندوات دينية تلفزيونيًا، يلبس روادها الجينز "الليفيز" والأحذية "الريبوك" على المؤلفة قلوبهم من أبناء الذوات، وعضوات النوادي الراقية بالقاهرة والمحافظات.

عمرو خالد عرف كيف أن مثل هذا التعاطي مع "الدين" على شاشات التلفزيون، كان العامل الرئيسي في رفع ساعات المشاهدة على الفضائيات.

لم يكن أحد ضد "عصرنة" الدين الإسلامي، ولا ضد "مدنية " رجال الدين، لكن أحدًا لم يكن يتصور بداية الألفية الجديدة: أن تمتد جهود كل هؤلاء إلى أقصى مداها في "لخبطة" الدين نفسه.[1]

1- في ندوة "دور الإعلام في مناهضة ثقافة العنف وحماية الحق في الحياة"، التي نظمها المركز العربي لاستقلال القضاء والمحامين شهر يوليو 2011، أكد حسام كنعاني سكرتير تحرير القسم العربي والدولي لصحيفة الأخبار اللبنانية.. أن الإعلام كان متهمًا رئيسيًا في التحريض على العنف الطائفي. ففي لبنان (مثلًا) هناك ما سماه الإعلام الفئوي والطائفي، الذي لعب دورًا تحريضيًا في إزكاء الفتنة والحروب الطائفية في لبنان.

ولفت إلى أن هناك علاقة طردية بين العنف والإعلام، مؤكدًا توصل الباحثين في نهاية الستينيات إلى أن صور العنف في التليفزيون هي التي أسهمت في زيادة الاضطرابات في الشوارع الأمريكية. مشيرًا إلى أن هناك دراسة لاتحاد الإذاعة والتليفزيون في مصر: كشفت عن أن 87% من الشباب المحبوسين بالسجون المصرية يرجع سبب ارتكابهم للجريمة لرغبتهم في تقليد

كان للهجوم على عمرو خالد وعمر عبد الكافي أسباب، وقتما أصبح نفوذ الدعاة على الشاشات مصدر قلق.

القلق كان من سطوة هؤلاء ودرجات تأثيرهم على قطاع عريض من المسلمين بدرجة لا يستهان بها.

الأزمة من وجهة نظر المتخوفين؛ في أن كل ما يطرح من قضايا دينية على الفضائيات، كان يدخل العقول كأخبار مصدقة، ووقائع حقيقية لا جدال فيها من دون الرجوع للمصادر، ومن دون رغبة أكثر المشاهدين في إعادة نقاشه أو إخضاعه للتفكير بروية.

في الأزمات الاجتماعية؛ غالبًا ما يكون الدين هو السلعة الوحيدة التي لا تخضع لا للضرائب ولا للجمارك، فلا تنظمه قرارات الوزراء، ولا تخضعه أجهزة الدولة للرقابة والتفتيش.

لذلك؛ بدت برامج الدين في الفضائيات خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة كفتارين العرض في محلات البقالة.

تنافسوا في "الديكور" وشكل البائع وطريقة البيع، وظلت الحال على حالها، انتشرت الفضائيات، وتعددت برامج الدين، فاكتشف أصحاب رؤوس الأموال، مع المشايخ الذين تحولوا إلى نجوم، أو النجوم الذين قالوا إنهم مشايخ؛ أن السلعة واحدة، وأن تطابق مواصفات المعروض يؤثر بالركود في حركة البيع، لذلك بدأت كل "فاترينة" في البحث عن التفرد.

التفرد في "الدين"، كان مزيدًا من القصص والحكايات والسنن والفتاوى مع كثير من المشهيات "الخرافية".[2]

أدوار العنف التي يجسدها ممثلو السينما والتليفزيون (ناهيك عما يدخل الأدمغة من معتقدات وآراء دينية خاطئة).

2- في ندوة عقدها مركز "رؤية للتنمية والدراسات الإعلامية" ومركز "صحفيون متحدون" شهر يوليو 2011: أقر الباحث هاني لبيب بظهور قنوات دينية مسيحية خلال السنوات الخمس الماضية. تفتقد إلى التدقيق في المعلومات؛ بل تعتمد في بعض الأحيان على تضخيم الأحداث في قضايا معينة. مؤكدًا أن هناك قنوات مسيحية شاذة تتعمد الهجوم على الرسول والقرآن.
وقال لبيب إنه أعفى هذه القنوات من التسبب في الفتنة الطائفية في الفترة الأخيرة. ويمثل أحد رموز هذا المنهج القمص زكريا بطرس. الذي بدأ الحديث في السبعينيات بالرد على الشيخ الشعراوي. وهو ما أحدث قلاقل وقتها. ثم خرج من مصر

ويعدما كنا مع عصرنة "الإسلام"، ومع تنقيته من أفكار شابتها "شوائب" التصقت بقصصه، ويعدما استبشرنا بالدعاة الجدد خيرًا، وطلبنا لهم في البداية العون والمدد.. فوجئنا بالنفوس ليست صافية، وأن الغرض مرض، وأن الأهواء قد اختلطت بجهل الرجال.

فصار الدعاة نجومًا، ولاكت الألسن غيرة النجوم من بعضهم بعضًا؛ فطعنوا في فتاوى بعضهم، وتبادلوا تكذيبات قصص المنافسين، وكان أن خلط "مشايخ الفضائيات" الدين بـ"الكاتشب"؛ فذابت الخطوط الفاصلة بين مسئولية الداعي، ومهمة مدير التسويق في سوق "رولمان بلي" السيارات.

خلال فترة غم؛ لعبت برامج الدين على نغمات جماهيرية، فحولت الإسلام إلى "الأكل باليد اليمنى أفضل سبع مرات من الأكل باليسرى"، إلى أن ظهر فقه تفسير الأحلام.. وكان رزق الهبل!

عندما ظهر عمرو خالد على شاشة التليفزيون؛ جرد الدين من أفقه الواسع، ثم فصله عن الشريعة والقانون وأصول الحكم، والمعاملات؛ ليقدمه بعباداته فقط، لخص عمرو الإسلام في الصلاة، وفي السنن وفي النوافل، وفي المرغوب في الحج والمكروه فيه، رغم أن الإسلام كان أوسع من ذلك.

ولمّا تكلم عمرو خالد في الأخلاق؛ أشاع قصصًا من التراث مشكوكًا فيها، حتى إن كثيرًا من الفقهاء الأقدمين كانوا قد أوصوا بإغلاق باب الكلام في تلك الوقائع، تجنبًا لما قد تحدثه من اضطراب لدى البسطاء.[3]

ود. محمد هداية أثار عدة أزمات هو الآخر.

باتفاق بين البابا شنودة ووزير الداخلية وقتها زكي بدر (وإن كانت هذه الرواية غير مؤكدة).

ومن جانبه: أشار د. محمد شومان عميد "المعهد الدولي للإعلام" إلى أن القنوات الدينية الإسلامية بدأت مع تراكمات الرأسمالية النفطية في منطقة الخليج وتحديدًا في 1998. مستغلة تكنولوجيا الاتصال وتطور البث الفضائي. مؤكدًا أن هدف هذه القنوات في المقام الأول هو الربح. وأضاف شومان: إن معضلة القنوات الدينية الإسلامية أنها تسيّس الدين وتديّن السياسة. إذ تقوم بإخضاع أي قضية سياسية للدين وتعلن رأيها في ذلك.

3- إشارة إلى انتقادات الأزهريين لحديث عمرو خالد على شاشات الفضائيات عن تفاصيل قصة خلق آدم. و بناء نوح للسفينة. وهو ما تساءل بعض العلماء عن مراجعه فيها. وأدلته في الكثير من تفاصيلها.

رغم أن الرجل ـ للإنصاف ـ كانأحد أهم المجتهدين المحدثين في كثير مما غم من أمور العقيدة؛ لكن هذا لا ينفي مساحات الاختلاف الشديدة بين ما يعتبره د. هداية وما كان يجب أن يعتبره هو نفسه في مسائل معظمها يحتاج إلى المزيد من البحث والتدقيق.

كان من الخطأ فرد مساحة كبيرة لهذه "الكوارث" على الشاشات؛ لتستقر كمسلمات لدى المسلمين، يربون عليها أولادهم، ثم يربي أولادهم أبناءهم عليها. ومع الزمن تتحول خواطر د. هداية إلى معلوم هي الأخرى من الدين بالضرورة.. بصرف النظر عن الاختلاف حولها.

استفاض د. هداية مثلًا في قصة خلق "آدم"، بتفاصيل كثيرة لا نعرف من أين أتى بها وهو عالم الدين.

قصة آدم عليه السلام لم تتعد آياتها في القرآن إلا القليل، والحوار الطويل بين الله وآدم، وبين آدم والشيطان، وبين آدم وحواء.. لم ترد في كتاب الله!

والذي كان أن د. هداية حكى قصة الخلق بتفاصيل من عنده، من خياله الشعبي، بوصفها مسلمات دينية.. وهو نفس ما فعله عمرو خالد أكثر من مرة، سواء على شاشات التلفزيون، أو في لقاءاته الشبابية، بمنديل جيب لون القميص الذي يرتديه، وحذاء "بالي" "هافان"، في قاعة معطرة بأفخم الروائح الباريسية.

لم ينتبه أحد إلى أن التراث اليهودي هو الذي كون كثيرًا من تفاصيل قصة الخلق كما ظهرت لدى المجتهدين المسلمين. وأن التراث نفسه هو المسئول عن تفاصيل أخرى لحكاية طوفان نوح "عليه السلام"، لا يزال يحكيها عمرو خالد، وخالد الجندي، ولا يزال يحكيها آخرون.

يتكلمون عن الإسرائيليات، ويحذروننا من الإسرائيليات، ثم يعودون ليعرفونا الدين بالإسرائيليات.

الإسرائيليات ليست فكرًا مندسًا كما يرى الكثيرون؛ إنما هي خلاصة تفسيرات عبرانية قديمة لقصص أنبياء كانت معروفة في الجزيرة العربية قبل نزول القرآن.

وبعد الرسالة المحمدية؛ ربط المسلمون الأوائل بين التفسير العبري القديم لقصص

الأنبياء وعلم التفسير حديث الظهور بعد فترة قصيرة من وفاة النبي (ص).[4]

تكلم عن هذا الربط كثير من الأئمة، وفقهاء عصر التابعين؛ فأجازوا اللجوء إلى نصوص "أهل الكتاب" لمعرفة ما لم يذكره القرآن الكريم من تفاصيل حكايات الأنبياء، والصالحين، وبعدها أجاز الفقهاء اللجوء إلى تلك الشروحات "العبرانية" لتفسير بعض آيات القرآن.[5]

قال "ابن كثير" إنه سيجعل روايات اليهود القديمة مصدرًا لا غنى عنه في مؤلفه، مستشهدًا بالحديث النبوي: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج".[6]

انتقال "قنابل مروية" في صورة قصص سنة، وروايات سيرة، في برامج الدين على الفضائيات، هي المسئولة عن وصم الإسلام بما توصم به حكايات ما قبل نوم الأطفال!

لا تمارس برامج الدين نقاشًا علميًا مدروسًا، في الوقت الذي تناقلت فيه "مسلمات" الدعاة بين العامة بسرعة الصوت.

فبدا أن الإسلام هو أسامة بن لادن، وحركة حماس، وأيمن الظواهري، بينما كان الظواهري وبن لادن يجاهدان الأمريكان من كهوف أفغانستان بأسلحة أمريكية. فيقيمون الصلاة على سجاجيد "صينية"، ويستمعون لآيات الذكر الحكيم على أسطوانات مدمجة تروجها كبرى شركات اليهود في واشنطن العاصمة.

ومع كثرة الهجوم على برامج الدين: رد "مشايخ الفضائيات" بأن "الناس تحب الجديد"!

الحديث عن أن "الناس تحب الجديد".. أشبه بمبدأ "الجمهور عايز كده" الذي عرفته سينما مقاولات السبعينيات، أيام أفلام عنتر شايل سيفه، وتجيبها كده تجيلها كده هي كده![7]

4- مقدمة ابن كثير في البداية والنهاية، وتاريخ الأمم والملوك.

5- المرجع السابق.

6- المرجع السابق، والإشارة في الموضوع.

7- ظهر هذا المبدأ على السنة الكثير من منتجي أفلام السينما في السبعينيات، وهي ما سُمي وقتها بأفلام الأربعة أيام، في إشارة إلى قصر أيام تصويرها، وشهد بعض هذه الأفلام رواجًا، عاد بالمكسب على منتجيها، بصرف النظر عن مضمونها، وما

ما حدث على فضائيات المسلمين؛ أنهم لم يفرقوا بين تراث أبي بكر الصديق وتراث عادل إمام؛ فاستطاع جيل من شباب مقدمي البرامج بما لديه من ثقة الجاهل، ويقدر ما استحوذ عليه من سطوة الشهرة أن يدفع بالكثير من العلماء إلى الشاشة.. ففتحوا ملفات خطيرة، كان ضررها أكثر.

فتكلموا عن القضاء والقدر، والاختيار الإنساني لأفعاله، ومسائل أخرى لا تصلح للجدل علنيًا إلا في حدود.. وهو ما حيرنا في الأسباب التي جعلت مجموعة من العلماء "الثقات" يطاوعون مجموعة "هواة": فيختم بعض المشايخ حياتهم طمعًا في "فلوس الفضائيات"، مستعيضين بها عن رضوان الله.. والتيسير على أدمغة خلق الله. بالظهور في تلك البرامج.

قبل جيل "هواة الفضائيات" بأكثر من سبعة قرون، أوصى الإمام الشافعي بـ"عدم الخوض في مسائل معينة في مجالس العامة"، وقال إن فتنة الجهل: أهون من فتنة العلم بما لا يستوعبه العوام.

وأثنى الشافعي على الذين "يخاطبون الناس على قدر عقولهم".

لم يقلل الإمام من عقول عامة المسلمين ازدراءً.. أو تحقيرًا؛ لكنه كان عالمًا بمقدار ما يحتاجه الحديث في قضايا الجبر والاختيار، وفلسفة العقوبات، وعلل الشرع في التشريع من سعة أفق واطلاع فلسفي وفقهي ولفظي ليس متوفرًا لدى الجميع.

لكن برامج الفضائيات دخلت للدين بمنطق السلع الاستهلاكية في "السوبر ماركت": فتجاوزت خطوطًا حمراء، انتهت بإعلان أحدهم عن بيان غسل وتكفين الموتى على شاشة التليفزيون، كما لو أنه لم يبق للمسلمين إلا كيفية إعداد الكفن، وتطييب الميت.. ولم يعد لدينا إلا المجادلة في طرق إحسان الدفن، وإحكام الأربطة!!

بعضهم تاجر برغبات المسلمين محبة في رسول الله.

تقدمه من قيمة مضافة للمجتمع. ومع الهجوم عليهم؛ ادعى المنتجون أنهم يقدمون للناس ما يريده الناس. ولم يكن هذا تبريرًا معتبرًا ولا جائزًا؛ إنما غطى على رغبة منتجين من نوعية خاصة دخلت مجال الإنتاج السينمائي في السبعينيات (مع الانفتاح) بغرض المكسب السريع. فاستغلوا المشاهير والمشهورات من النجمات في أفلام ذات "طبيعة خاصة" أقبل عليها جمهور من المراهقين. وتلقفها موزعو "الفيديو" في ذلك الوقت.

والممثل لما يستشيخ.. ماذا يفعل؟ يفعل الذي فعله الشيخ مجدي إمام.. الممثل الذي كان، فالرجل سجل برنامجًا عن سيرة الرسول ومآثر الرسول وخُلق أصحاب الرسول من الحرم النبوي على إحدى القنوات، ثم ختم حلقاته برقم تليفون يطلبه الراغبون في الفوز برحلة "لقبر الرسول".[8]

كانت موضة الأرقام التليفونية "السريعة" قد ظهرت، واسترزقت منها القنوات الفضائية؛ فلعبت على رغبات البسطاء الذين دفعوا من أقواتهم ما اقتسمته القنوات ومصلحة التليفونات.. ثم لا عمرة ولا حج.

ودخلنا عصر "فقه تفسير الأحلام".. فعرفنا الشيخ سيد حمدي، بعدما ضحك علينا الشيخ مجدي إمام.

في الصحافة عادة ما يسمون العنوان العريض "سلوجان"، وتعتمد الصحافة الأوروبية على "السلوجان" في لفت الانتباه وشد النظر، فالسلوجان غير أنه شعار؛ إلا أنه يحوي المبدأ العام، أو خلاصة الفكرة.

"سلوجان" الشيخ سيد حمدي مثلًا: كان أن تفسيره للأحلام متفق عليه بين الأئمة.[9]

وقال الشيخ سيد وقتها: إن تفسيره للأحلام مستخرج من كتاب الله ومنصوص عليه في سنة رسول الله، وصدق الشيخ كثيرون، مع أن أحدًا لم يسمع عن أن رسول الله تكلم عن منامات النائمين، ولا أن كتاب الله نص على طريقة لتفسير ما يراه النائمون!!

في التراث الشعبي يتندرون بالذي فعله الأعمى بالميت، لا الأعمى يرى، ولا الميت يشعر.

كأن الشيخ "سيد" يذيع في بلد خالٍ من المسلمين، مع أن كلنا مسلمون، وكأنه يؤذن في مالطة، أو ليخشنشتين أو يؤذن في تايلاند؛ حيث اختلاف اللغة، وقلة الوعي؛ تجعل

8- إشارة إلى برنامج قدمه الممثل مجدي إمام على فضائية معروفة في الفترة ما بين 2001 و2005. وضم مسابقة للفوز برحلة عمرة عن طريق اتصال الراغب برقم سريع. مع غلاء سعر الدقيقة. وبداية "مودة" مسابقات الأرقام السريعة. وهي ما نهى عنها بعض علماء الأزهر فيما بعد. بدعوى أنها نوع من المقامرة. وفيها شبهة استغلال للبسطاء.

9- إشارة سابقة إلى عدم وجود ما يؤكد حديث الشيخ سيد فيما يتعلق بشرعية تفسير الأحلام. من المصادر الشرعية المعتبرة.

كل ما يُقال يُصدق.

أو كأننا سكارى وما نحن بسكارى، لا يوجد فينا من يعرف الرجل من المرأة، ولا الصواب من الخطأ، ولا كلام الشريعة من "الكلام الفارغ".

لا تعرف العلوم الشرعية "فقه الأحلام": فلم يسمع أهل العلم قبل ظهور الشيخ سيد حمدي عن تأويل المنامات، وتفسير "رموز السفر" وظهور "الهدهد".

لا الشريعة تكلمت عن الذي تكسب منه الشيخ سيد، ولا رتب العلماء من قبل أجر وثواب للذين يفعلون كما يفعل الشيخ حمدي.

الشريعة في اللغة هي "الطريق"، وفي القرآن الكريم "لكل جعلنا شرعًا ومنهاجًا".[10]

والشريعة في الاصطلاح: هي الأحكام المستخلصة من المصادر الشرعية الإسلامية.. استنادًا إلى ما جاء في كتاب الله.[11]

إطلاق اصطلاح "الفتوى الشرعية" على مسألة ما: يعني وجود أصل للحكم، أو سبب للفتوى في مصادر التشريع. لذلك: فإن تأكيد أحد المشايخ أن كلامه "فتاوى"، وأن أساليبه في استخلاص الأحكام "شرعي"، فالمعنى أيضًا ديني.[12]

ماذا يعنى هذا؟

يعني أن الزعم بتفسير الأحلام "شرعيًا"، يشير بالضرورة إلى أن المفسر وقف على أصول تفسير الأحلام في المصادر الرئيسية في التشريع الإسلامي. ويعني أيضًا: أن الإسلام اهتم بتفسير "المنامات"، وأن النبي والصحابة اجتهدوا فيها.

ويعني - مرة ثالثة - أن أئمة الفقه تركوا لنا ما نرجع إليه لتفسير المعنى الشرعي في رؤية إحدى الفتيات، فيما يرى النائم أنها تلبس قميصًا أخضر، جالسة في صالون بيتها

10- لسان العرب. والتعريف اللغوي.

11- الشريعة في الاصطلاح الفقهي، وما استقر عليه العلماء.

12- استقر العلماء على العموم على اعتبار القرآن والسنة والإجماع كأدلة نقلية لمصادر التشريع. بينما جاء الاجتهاد، والقياس، والاستحسان، والاستصلاح، مع باقي الأدلة العقلية "هي المصادر العقلية لاستخلاص الأحكام الشرعية من المصدر" الذي هو كتاب الله.

تأكل حمص "بقشره"، وأننا نجد فيما قاله أبو حنيفة والشافعي وابن حنبل ما يؤكد أن ما رأته الفتاة يعني أنها.. "هتتكسي"!!

إصرار بعضهم على أن تفسيرهم الأحلام "متفق عليه"، يعني "عمليًا" أن بعض الذين قالوا إنهم مشايخ؛ يلعبون على فضول المشاهدين، ويستغلون بساطتهم.. ويلعبون أيضًا بأصول الدين والعقيدة.. ابتغاء عرض الحياة الدنيا.

في الأزمة تفهمنا رغبات الكثيرين في "الاسترزاق"، فالمسلمون في "ملمة".. والملمة يعني جائحة.. يعني كارثة، ووباء.

وفي الملمات والنوازل استوعبنا رغبة بعضهم في "الظهور" وفي "الشهرة"، فهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، لكن ما لم نستطع استيعابه أن تدفعهم شهوة الاسترزاق وجنون الشهرة.. إلى العبث بالدين؛ ليصبح "حاميها حراميها"، فالذي يفسر الأحلام "بكتاب الله" هو عضو سابقًا بلجنة الفتوى.. والذين يثنون على ما يقول.. مشايخ بالأزهر!!

يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الرؤى والأحلام أنه قال: "من رآني فقد رآني".[13]

وقال: "الرؤى على ثلاث، رؤى من الله ورؤى من الشيطان ورؤى مما يحدث به المرء نفسه"، مع ذلك؛ لم يرد في فقه السابقين ما يمكن الاستقرار عليه في "الاستدلال الشرعي على حجية المنامات"، ضف إلى ذلك أن ربط تفسير الأحلام بالإسلام وعلومه الشرعية لا يمكن أن يكون في صالح الدين، ليس فقط لأنه تضئيل للشريعة، وتصغير لمقصود الشرع؛ إنما لانعدام إمكانية القياس على أصل.. غير موجود.

13- عن السيدة عائشة. وبعض العلماء قال "حديث مرسل". لا يعتد به.

(2)

في نظريات "العرض والطلب"، وتنافس المنتجين على نصيب سلعتهم في السوق؛ تتمسك مدارس التسويق بإتقان خدمات ما بعد البيع. فخدمة ما بعد البيع أهم من السلعة نفسها.

وعلى الفضائيات؛ مال الدعاة إلى "جدل ما بعد البث" في الترويج إلى "التميز".

الرغبة في الانتشار، والمقام المحمود الذي ابتغاه بعضهم بالإسهاب في "قصص كارتونية" و"معضلات تراثية"؛ هو الذي وضع عقولنا في صراع دائم مع "النقل" على الشاشة. فكثر الجدل، وخاف الاجتماعيون.. وعقلاء المشايخ.

فقد ظهر لبرامج الدين "مواسم"، ودخلت "العلوم الشرعية" ضمن منتجات "الأوكازيون"، عندما بدأ المنتجون البحث عما "يريده الجمهور". في الوقت الذي سعى فيه "نجوم الدعاة" إلى ما يثير اللغط في مادتهم، بنفس المنطق الذي حاولت به مخرجة السينما إيناس الدغيدي التفنن فيما "يثير".. إمعانًا في "التنوير"!

"أوكازيون" أفلام"المناظر" في السينما أقل خطورة من "التخفيضات" في برامج الدين.

أفلام إيناس الدغيدي تلعب على وتر "الأعضاء التناسلية"، في الوقت الذي لدى الناس كثير من الاهتمامات التي تشترك مع "غرائزهم" في الأهمية.. أما العقيدة؛ فلا شريك لها.

فالدين عندنا لا ينازعه في الدنيا شيء، وهنا مكمن الخطورة.[14]

ولأننا قبلنا كل ما وضع في برواز "ديني".. على علّاته، واحترمنا كل من تكلم بالنحو والصرف.. على "عيبه"؛ دخلت برامج الدين ما يشبه بورصة القطن في أربعينيات القرن الماضي.

14- راجع "عمار علي حسن" التنشئة السياسية للصوفية. وكلام الحبيب بن علي الداعية اليمني ص (18 و19 وما بعدها).

في البورصة الجديدة، وبدءًا من بداية التسعينيات؛ ضارب المتعاملون في الأسعار، وكانت الأسهم قنابل موقوتة.. فلا ضمن البائع عيوب الصناعة.. ولا اقتنع في "مآسي ما بعد البيع".

ومنتصف التسعينيات بدأ الحصاد.

لما اكتشفنا الذي يحدث؛ كان الطين قد زاد بلة، ولم نستطع التوصل لطريقة توقف "السوس" الذي اقترب من "العمود الفقري"!

تكاثرت تداعيات الأزمة، وسمعنا أصواتًا عالية.. وشاهدنا "ضربًا تحت الحزام"؛ فتحول دعاة الفضائيات إلى نجوم، وتعاملوا مع بعضهم بمنطق النجوم.. فصار بأسهم بينهم وبين بعضهم.. شديدًا.

عام 2007؛ حدثت "خناقة" بين د. سعاد صالح والداعية صفوت حجازي "على الهواء".

كان سجالًا شديدًا، امتدت آثاره للشارع الذي لم يخرج بنتيجة، إضافة إلى شكل "المعركة" التي لم يكن متصورًا أن تحدث بين أهل الدين، أو من الذين نعتقد أنهم أهل الله.

كان الخلاف على الهواء في "العمرة"، فرض هي أم ليست فرضًا؟!

صرخت سعاد صالح، بعدما وصل الأمر بـ"الشيخ صفوت" إلى الاستهزاء بشخصها، اكتسبت الخناقة سخونتها - وقتها - من التوقعات بارتفاع سعر المنتصر في برامج المستقبل، ومن دخوله شريحة "الأجر الأعلى".

كانت الفضائيات قد صنفت أجر المشايخ، بعد اتساع السوق، وزيادة المعروض، حسب المكانة عند المشاهد، والمكافأة حسب نسبة المشاهدة.

في معركة تكسير العظام بين سعاد صالح وصفوت حجازي، أفتى الأخير على الهواء بأن العمرة فرض شأنها شأن الحج، فاتصلوا بسعاد صالح تليفونيًا فقالت إن "القول بوجوب العمرة شاذ"، واتهمت الشيخ صفوت بالفتونة وفرض الرأي.. في مناقشة نقصها تتطاير الكراسي!

الطريف أن سعاد صالح عارضت بقولها في شذوذ وجوب العمرة آراء فقهية "معتبرة" لها وجاهتها لدى أهل الفقه.

فقد رأى الإمام الشافعي والإمام أحمد أن "العمرة كالحج فرض على كل مسلم ومسلمة مرة واحدة في العمر"، واستدل الإمامان بقوله تعالى: "وأتموا الحج والعمرة لله"، وهو نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة.[15]

وأوردا قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم: "الحج والعمرة فريضتان لا يضيرك أيهما بدأت"، وقوله (ص): "الحج والعمرة فريضتان"، ويروى عنه (ص) أنه قال: "ليس مسلم إلا عليه عمرة".[16]

وعن ابن عباس أن صحابيًا أتى الرسول (ص) وقال: "يا رسول الله إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن"؛ فقال (ص): "حج عن أبيك واعتمر".

وقال ابن عباس (رض): "إنها لقرينتها في كتاب الله" ثم تلا الآية: "وأتموا الحج والعمرة لله".

وسألت السيدة عائشة (رض) النبي (ص): "يا رسول الله.. هل على النساء جهاد"؟! قال: "نعم.. عليهن جهاد لا قتال فيه.. الحج والعمرة".

لكن شهوة الشهرة كانت قد أنست بعضنا نفسه، وأعمى حب الظهور بعض مشايخنا عن التنبه إلى أن ما يزرعونه في عقول العامة من أحكام.. مردود عليه، ولها ما يخالفها، وعليه؛ كان لا بد أن يفقد العامة الثقة بعد فترة في رجال الدين.. وربما في الدين.. أيضًا.

طعنت سعاد صالح في صفوت حجازي، فطعنت في الإمام الشافعي وفريق من الحنابلة، واستهزأ الشيخ صفوت بآراء الدكتورة سعاد تهكمًا على رأي راجح لمالك وأبي حنيفة وبعض أهل الظاهر.

أما المتابعون لحفلات "السيرك الديني"؛ فلم يخرجوا إلا بمزيد من التفاصيل غير

15- راجع أصول العبادات، للدكتور عبد الفتاح حسيني الشيخ، معهد الدراسات الإسلامية، عام 2002، والرأي والاختلاف في وجوب العمرة.

16- رواه أبو رزين العقيلي، وأخرجه الإمام أحمد في المسند، وجاء في السنن الكبرى للبيهقي برقم 4/ 350، وسنن أبي داوود.

المرتبة.. بلا رابط ولا ضابط.

ربما لتلك الأسباب؛ نهي الشافعي وسفيان الثوري وابن تيمية عن "المباراة بين العلماء على مسمع من البسطاء"؛ لما يمكن أن يلحق العقول من شك يفسد عليهم الثابت".[17]

فالقاعدة أن مفاسد "التناحر" على الهواء.. أكبر من منافع تبصير المسلمين بالخطوط العريضة للعقيدة.

لكن "التلميع" عطل وظيفة "حفظ الدين" للذين كلفوا بأن يحفظوه؛ فبدلًا من أن يثبتونا؛ كادوا يقلبون عقول بعضنا ويفسدون عليهم دينهم الذي هو عصمة أمرهم.

فثقة الناس في الدعاة لم تعد تقتصر على قولهم وكلامهم وطريقة تعاملهم مع مفردات الدين؛ إنما امتدت إلى التسليم بجميع كلامهم بمجرد البدء الصلاة على النبي.. بصرف النظر عن مضمون الرواية.

خطورة التسليم الكامل بنجوم الدعوة على الشاشات لدى علماء الاجتماع؛ تتلخص في أن "مخرجات" الداعي، هي في نفس التوقيت "مدخلات" ثم "مسلمات" لدى المشاهدين رغم ما فيها؛ أو رغم ما على الكلام من ملاحظات.. ومع ما فيه من تضارب.

المعنى أن المساحات التي أفردتها مؤسسات الإعلام لـ "الدعاة" كانت سببًا رئيسيًا في تراجع التفكير العلمي لدى المتلقي، على حساب "فقه السوبر ماركت"، أو المعتقدات الشخصية لمشاهير صاروا نجومًا.. وصاروا ثقة؛ فصرنا نحن متدينين بـ"التلقين".

حاول الإعلام الفضائي - عن قصد أو عن جهل - الاستفادة من واقع، وتمثل هذا الواقع في الشعور الاجتماعي الجمعي بضرورة العودة إلى ما يتصور أنه "صحيح العقيدة"، ما أدى في النهاية إلى جري المسلمين في الصحراء وراء المشايخ على أمل اللحاق.. بالسراب.

حتى مع افتراض حسن النية؛ فقد ساهم نجوم الدعوة في انحسار التفكير العلمي

17- راجع روايات "سعيد بن المسيب"، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله الأنصاري في مخاطبة العامة. بما لا يغل عليهم، ولا يغيم.

وتعليق كل الأمور على شماعة "التفكير الغيبي".

وقتها؛ دخل الدين في كل شيء، للحد الذي استخدمناه في تفسير الأحلام.. وقراءة الطالع.. ثم صدقنا أنفسنا!!

يرى أرسطو أن التغير في الأساليب الموسيقيةمثلاً يشير إلى التغيرات في سلوك المجتمعات.[18]

فالأزمات الاجتماعية والاقتصادية مسئولة عن شكل الثقافة الشائعة، والأزمات هي المسئولة أيضاً عن الشعور بالإحباط والرغبة في الخلاص.

ومع الإحباط؛ غالبًا ما تلجأ المجتمعات للتفكير الغيبي.. تمسكًا بالحياة. ومع الإحباط "الاجتماعي" تنحسر مساحات الصفاء العقلي؛ فيبدو أن الانحياز إلى "كل غيبي" انحياز للدين.. وهي كارثة.

صحيح أحدث الإعلام الديني نقلة رهيبة الخمس عشرة سنة الأخيرة، لكنها كانت نقلة على "كم" لا "كيف"، كانت نقلة أفقية، رغم أن المطلوب نقلة "رأسية".

منطق العرض والطلب لم يترك مساحة لحساب آثار "الداعية الديني" على المجتمعات، بقدر ما وفر مساحات عريضة من السعي وراء مؤثراته.

عام 2008؛ تبلورت نظرية العرض والطلب في برنامج ديني أسبوعي تقدمه ممثلة أفلام مقاولات مغمورة سابقاً

تحول الممثلة الشابة من الوقوف أمام الكاميرا في "البارات" إلى الدروس الدينية في الجلسات النسائية بالأحياء الراقية؛ كان كافيًا - من وجهة نظر تسويقية - كي تدخل الفتاة "حلبة" السباق.

وبدأت ممثلة المقاولات في الفتوى، وتعليم المسلمين دينهم، والمثل يقول "البلد اللي متعرفش حد فيها..."؟!

18- نظريات أرسطو في دراسة تطورات المجتمعات. في مقدمة ابن خلدون.

غياب أي نوع من الرقابة على مقدمي المادة الدينية، وعلى معلوماته الشخصية، وعدم اختبار قناعاته من قبل؛ كانت السبب في معركة بين ما وصفهم "العامة" بالعلمانيين.. وبين من اعتبرهم العامة أئمتهم الجدد!

لم يفطن الإعلام لمسئوليته الجسيمة، ولا التفت للقنابل الموقوتة التي يبعث بها في أظرف مغلقة "مزوقة "إلى البيوت.

شجعت الدولة هذا في مرحلة ما، وبأكثر من طريقة. وقتها لم يكن الحكم على المفردات والتفاصيل واردًا.. ولا كان مهمًا. أو ربما حسبوا وقتها الحسنات، ولم يتنبأ أحد بالمساوئ.[19]

السياسة ذلك الوقت كانت ضرب الظالمين بالظالمين، ففرض النظام السياسي إذاعة الأذان، واختتام الإرسال التليفزيوني بالقرآن الكريم لأغراض سياسية.

كانت موازنة خاطئة، ومحاولة ليست في محلها للقضاء على التيارات اليسارية بإطلاق العنان للتيارات "الإسلامية".

الهدف كان إطلاق إسلام شعبي.. لاستخدامه سياسيًا، ولم يتبيّن أحد بعد فترة أن الباب أصبح مواريًا، قبل أن ينفتح على مصراعيه.. لمسلمين.. متطرفين.

في السبعينيات؛ سلط الإعلام الأضواء على من استحقوا الظهور إلى حد كبير، مقارنة بما ظهروا بعد ذلك بعشرين عامًا، فقدم التليفزيون مثلًا الشيخ الباقوري ـ رحمه الله ـ بما لديه، وظهر الشيخ الشعراوي.. وكان عدلًا يستحق الثقة، رغم مساحات الاختلاف.

بالوقت؛ اعتقد الشارع أن "دعاة الشاشة" عدول بالضرورة، وأن روايات التليفزيون مقبولة بالطبيعة.. وقد كان، واستمر، حتى إن أحدًا لم يصدق ما بدأ يتناثر من ملاحظات، ولا ما راحت ترتفع به الأصوات.. ثم الاستغاثات مما أحدثه الجيل الثاني من التابعين.. الدعاة.

19- مرحلة السبعينيات. عندما فتحت الدولة: في بداية الفترة الطريق أمام التيارات الدينية السلفية. لمواجهة جماعات الاشتراكيين. وقوى اليسار. بعد ما سُمي بثورة التصحيح. في عهد الرئيس أنور السادات 1971.

صحيح بدأ بعضنا يرمي بأطواق النجاة، لكن السيف كان قد سبق العزل، فالأمواج ارتفعت.. والسدود تهاوت.

وتضخم الجيل الثاني من "الدعاة" في قفص زجاجي لم يعد متسعًا له بعدما ذاع الصيت، وتناثرت السمعة.

ثم دخل الجيل الثالث من الدعاة، في وقت لم يكتشف فيه إلا القليلون أن هؤلاء كانوا الإفراز البيولوجي لمساجد "الزوايا".. وجوامع الأزقة "وجراجات العمارات" بالقاهرة والمحافظات.

يرى البعض أن الأزمة ليست اجتماعية فقط.. إنما "مهنية" أيضًا.

كيف؟

"بلوتنا" كانت في النقاش المتخصص بآراء متضاربة على الهواء، ثم تصدير آراء متشددة، وتعليبها بعد إضفاء القداسة عليها بوصفها غير خاضعة للنقض.. تحت أي ظرف.. واعتبار كل ما سبق.. كمال الدين!

اختلاف العلماء رحمة، إلا على الهواء.

صحيح لكل عالم أدلته، ولكل واحد منهم أدواته في استخراج الأدلة الشرعية على فتواه، لكن اجتهادهم لا يلغي عدم جواز "تداول" الشائك من القضايا في مجالس العامة، وأمام "بسطاء المسلمين".[20]

لا يُقصد بالبسطاء الأميون أو محدودو المستوى التعليمي فقط؛ إنما البسطاء في علوم الشرع، هم من لا يعرفون الشرع كما ينبغي أن يُعرف.

العلوم الشرعية مثلها مثل الطب والهندسة والكيمياء، فلا الطبيب يعرف الهندسة، ولا للمهندس نظريات في التسويق وعلوم المحاسبة.

مدرب كرة القدم لا يصلح لتدريب منتخب كرة السلة، مع أن الطبيب متعلم، ورغم أن

20- مرجع سابق. روايات ابن المسيب. وغيره.

كرة القدم وكرة السلة لعبتان رياضيتان.

غياب العلم بالقواعد الشرعية، وانعدام "نقاط الارتكاز" الفقهي حتى لدى المتعلمين أمر بالضرورة لا يتيح الفرصة للتثبت، لذلك؛ كان سهلًا تسرب الشك إلى الأنفس من خلاف المشايخ على الهواء.

المتابعة المستمرة للاختلاف، مصحوبة بالشك المستمر؛ ينتهي إلى حفنة معلومات متناثرة، عادة ما تتخطى نقطة "اليقين"، إلى نقطة "محاولة المواءمة" بين أكثر من فكرة في سياق واحد.. والعاقبة خطيرة.

فالأصل في العقيدة اليقين بحكم الإيمان، وإذا كان العلماء منوطًا بهم تثبيت قلوب المؤمنين، فالطريق الأمثل للتثبت هو بالضرورة البعد عن مناطق.. اللغط.

ولما أسهب بعض المشايخ في إثارة الكثير من الكلام، والكثير من القيل والقال.. قلنا إن هناك خللًا ما؛ لأن الوظيفة قد اضطربت.

ليس كل المشايخ على درجة واحدة من العلم بالضرورة، لذلك؛ لم تجز بعض مذاهب الفقه للعالم أن يظهر على الملأ قبل أن يجيزه سبعة شيوخ معترف لهم بالعلم.. والعدل، وأن يشهد هؤلاء للعالم بالعلم والعدل.

ورأت مدارس أخرى ضرورة أن يجيز العالم أكثر من عشرة شيوخ مشهود لهم بالعدل والسمعة.

ولخطورة الأمر؛ دقق بعض المذاهب أكثر من اللازم في مبادئ تلزم العالم بعدم الحديث في أمور شرعية دقيقة أمام عوام المسلمين؛ لما يمكن أن يحدثه كلامه من تشكيك، وعلى خلاف مقصود العالم.

وقالوا إنه لا يجوز عذر العلماء بالجهل، مع أنه يجوز عذر عوام المسلمين بجهلهم بالشرع وأحكامه.

السبب في عذر المسلم بجهله في الدين؛ هو وجود علماء وظيفتهم تصحيح أفكار العامة.

لكن السؤال المهم: ما الذي يمكن أن يحدث لو اشترك العالم مع العوام في المنطق والسلوك؟ وما مدى تأثير هذا في عقيدة العوام؟

حتى الآن لم يتبين أحد الإجابة.. إلا قليل.

عام 2006؛ ظهر ما قالوا عنه وقتها إنه "نموذج" في عالم الفضائيات.

كانت داعية شابة في واحد من أكثر البرامج جماهيرية على قناة سعودية .. اسمها "الشيخة نوارة".

لم تتعد "نوارة" أربعينيات عمرها، بملامحها الراقية، وطريقة كلام أنيقة، وتناسق ما بين "خمار" ملون و"عباءة" طويلة.

بعضهم شبه "نوارة" بعمرو خالد، فهي الأخرى لم يتعد ما طرحته من إسلام أكثر من حدود "دندشة" ثيابها!

سطوة "نوارة" كانت من نوع خاص. ففي فترة قصيرة؛ أصبحت نموذجًا شعبيًا لـ"الموضوعية الدينية" في عرف الفتيات تحت العشرين.

شعبية "نوارة" كانت سببًا في تسليط أضواء الملاحظة عليها، وعلى مادتها، بعدما وضعت الداعية الجديدة نفسها في بؤرة التحليل.. من دون أن تدري.

دفعت نوارة بفكرة "الجهاد في الإسلام"، وحثت الشباب الذين تكدسوا بالآلاف في صالات نوادي القاهرة والإسكندرية الراقية، على الضرورة الدائمة لحمل السلاح في مواجهة غير المسلمين.

الفكرة قديمة، لكن خطيرة، والأخطر كان عودة الجدل حولها مع شباب الطبقات الراقية.

تعمدت "نوارة" تأكيد استمرار الجهاد لفتح "البلاد التي لم يدخلها الإسلام"، فناورت، وراوغت.. وذكرت الأدلة، وانتهت بعد خمسين ساعة "فضائية" إلى وجوب قتال غير المسلمين، حتى إن لم يقاتلوا المسلمين، باعتباره عملًا شرعيًا مقدمًا على أي عمل آخر.

كانت صدمة، وأزمة.. ولم ينتبه أحد أيضًا.

والذي حدث أن زادت شعبية "نوارة"، وعلقوا لها بوسترات بصورتها في المقاهي "الخمس نجوم"، وعلى الحوائط في النوادي.

وتحولت الشيخة "نوارة" إلى رمز، أو "معنى"، فتمادت وتمادت معها "دوائر سوداء" في أدمغة كثير من شباب آمنوا بها.. وصارت أفكار "الشيخة" أحب إليهم من "الدين".. أو ربما صارت "نوارة" هي المعلوم لديهم من الدين!

أثرت "نوارة" كما أثر "عمرو خالد" على جيل كامل، فاستخرجت أحكامًا شرعية بنفسها، وعلى طريقتها، وأعادت إحياء فكرة "الجهاد" التي لم تكن المجتمعات العربية قد فاقت من تداعيات " انفجارها " في السبعينيات والثمانينيات بعد.

أعادت شابة في الثلاثينيات من عمرها الفتيل لقنبلة شديدة الانفجار.. وكان جمهورها من الشباب. فوجه عملة "الجهاد" الآخر؛ هو العلاقة بين المسلم وغير المسلم في البلدان الإسلامية.. وفي أوروبا.

وصفت "نوارة" غير المسلمين بـ"الكفار". فنكأت جروحًا كبيرة، ومن دون أن تدري دخلت حقولًا مليئة بالألغام.. فدخل وراءها آلاف الشباب.

تحدثت "الشيخة نوارة" بحمية العاطفة، وبنشوة التسليم؛ فسلم معها آلاف المراهقين المسلمين في ظروف لم تعد فيها عوامل الأمر بالحرب هي نفسها العوامل التي كان المسلمون مأمورين بها عصور الإسلام الأولى.

كانت مصيبة أخرى؛ فقد بدأ الكثير من رواد النوادي، وطلبة المدارس يتحدثون عن رغبتهم في حرب غير المسلسين، والخروج في سبيل الله بعموم لم يقصده الإسلام.. ولا حثت عليه العقيدة.

لم يكونوا يعرفون العقيدة.. لكنهم كانوا يحفظون كلام نوارة، وملامح نوارة.. وأفكار نوارة، بينما لم يرد أحد على نوارة.. ولا حاول.

تاريخيًا؛ لم يوجب الله سبحانه الجهاد ولا الولاء والبراء، ولا تغيير المنكر باليد على

المسلمين حال ضعفهم بمكة قبل الهجرة.[21]

فهذه الواجبات الثلاثة وإن كان فيها إظهار للدين؛ كانت مضرة بالمسلمين في ذلك الوقت بتسببها في زيادة إيذاء الكفار.[22]

فالمسلمون كانوا مستضعفين بمكة، وفي حاجة إلى معونة أهاليهم المشركين في المعيشة والدفع عنهم.

حتى تحريم الزواج بين المسلمين والمشركين؛ لم يشرع إلا بعد الهجرة وبعد صلح الحديبية، في سورة الممتحنة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ...) (الممتحنة:10)، فحرم الزواج من المشركين.

المعنى؛ أنه لم يكن جائزًا خروج المسلمين للجهاد إذا عاد عليهم بالضرر، فما غلب ضرره على نفعه؛ فالصحيح منعه.

ولم يوجب النبي (ص) الجهاد – بعد تشريعه – على من عجز عن الهجرة من المستضعفين بمكة خوفًا عليهم. كذلك لم يوجبه على المهاجرين بالحبشة الذين لم يعودوا منها إلا عام فتح خبير (عام 7هـ)، فلم يكن في جهاد هذين الفريقين مصلحة؛ بل كان يضرهم.. فسقط عنهم.

فالمستضعف في حاجة إلى من يجاهد لإنقاذه ونصرته؛ لا أن يؤمر هو بالجهاد.. وقد عذر الله غير القادرين بقوله تعالى (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا) (النساء:98، 99).

ففقهًا؛ كان التكييف الشرعي وقتها.. أنه لا يجوز دفع المسلمين إلى مواجهة غير

21- راجع. دراسة الدكتور سيد إمام المعروفة بـ"مراجعات الجهاد الفقهية". و"الإسلام السياسي" و"جوهر الإسلام" للمستشار محمد سعيد العشماوي. وأحمد أمين "ضحى الإسلام".

22- الدكتور سيد إمام. المرجع السابق.

متكافئة مع أعدائهم، لذلك؛ ورد في القرآن الكريم ما سُمي بأحكام "التخفيف".[23]

فقد خفف الله أمره من وجوب ثبات المسلم لعشرة من الكفار، إلى وجوب ثباته لاثنين كما في قوله تعالى «الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا...» (الأنفال:66).

إذًا، لم يكن المقصود بالجهاد مجرد الصدام مع غير المسلمين، فلو كان هذا هو المقصود؛ لما شرع الله "التخفيف"، لهذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما: «من فر من اثنين فقد فر، ومن فر من ثلاثة فما فر»، وعمم بعض العلماء السبب في التخفيف، من الضعف في العدد، إلى الضعف في العدة، فقالوا إنه يجوز للمسلم الفرار من الكافر إذا كان سلاح المسلم أضعف.

من جانب آخر؛ فقد أجاز الله للمسلمين الفرار "المعروف فقهًا بالانحياز" من مواجهة أعدائهم لأجل التحرف للقتال، والتحرف يعني "تغيير الخطط"، أو التحيز إلى فئة، بمعنى الاستعانة بغيرهم من المسلمين، أو تدعيم قوتهم بآخرين. ظهر هذا في قوله تعالى (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (الأنفال:16)، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من شفقته على المسلمين يقول (أنا فئة لكل مسلم)، وكانت جيوشه تقاتل في بلاد فارس والروم وهو بالمدينة؛ لينحاز إليه من شاء.

وذكر ابن عبد ربه أن عمر بن الخطاب (رض) كان قد نهى قادة جيوشه عن التسرع إلى القتال، وقال: "مسلم واحد أحب إلي من فتح مدينة من مدائن المشركين"، وروى عنه أنه قال: "وما يمنعني أن أؤمر سليطًا بن قيس إلا سرعته إلى القتال؛ فإن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث".[24]

وتجنب خالد بن الوليد المواجهة غير المتكافئة مع العدو؛ فانسحب بالجيش في غزوة

23- روى في قاعدة التخفيف عن ابن عباس قوله: "من فر من اثنين فقد فر ومن فر من ثلاثة فما فر". ووردت آية التخفيف في قوله تعالى: "الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً..." (الأنفال: 66). وفي غزوة مؤتة اعتبر الرسول (ص) أن انسحاب خالد بن الوليد بجيش المسلمين من المعركة بعد ظهور هزيمتهم بـ"الفتح". وفي شرحه للحديث في البخاري قال ابن كثير:

"إن الانسحاب الذي سماه النبي (ص) فتحًا. فلم يفهم المسلمين كيف يكون الانسحاب فتحًا. فقد كان إنقاذ المسلمين من المهلكة أمام الروم. لذلك سمى النبي (ص) انسحاب خالد فتحًا. وسماه "سيف الله". وقال: "فأخذ الراية سيف من سيوف الله (فانسحب بالمسلمين) حتى فتح الله عليه".

24- العقد الفريد. ابن عبد ربه الأندلسي.

"مؤتة "؛ فسمى النبي (ص) انسحابه هذا فتحًا.

يقول ابن حجر: "استشكل شراح الحديث كيف يكون الانسحاب فتحًا؟ وأن أفضل ما وقف عليه في ذلك هو ما ذكره ابن كثير في شرحه للبخاري (إن الفتح كان إنقاذ جيش المسلمين من المهلكة أمام الروم)".

فكما أن النصر على العدو في فترة ما كان يسمى فتحًا؛ فإن عدم تعريض المسلمين للهلاك يعتبر فتحًا هو الآخر؛ لأن الصدام مع العدو ليس هدفًا في ذاته.

ففي معركة مؤتة بين المسلمين والروم (عام 8هـ)؛ لم يكن يتعدى جيش المسلمين ثلاثة آلاف.. بينما زاد الروم على مئتي ألف، ونصب النبي (ص) ثلاثة أمراء على التوالي على المسلمين، هم زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة، فقتل الثلاثة جميعًا؛ فاختار المسلمون خالدًا أميرًا عليهم، فقرر "الانسحاب" واحتال في ذلك لينسحب بأقل الخسائر الممكنة.

وروى عن أنس بن مالك أنه قال: "نعى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمراء مؤتة وعيناه تذرفان فقال: "أخذ الراية زيد فقتل، ثم أخذها جعفر فقتل، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل، ثم أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليه"؛ فسُمي خالدًا سيف الله، وسُمي انسحابه فتحًا.

إذًا.. المبدأ الأول في "الجهاد" المحافظة على المسلمين وعدم الدفع بهم إلى خوض ما لا يعود عليهم بنفع، أو دفاعًا عن وطن.

وإن صح ما رويَ عن النبي (ص) في معركة "مؤتة"؛ ففيه دليل على أن اختيار المسلم للخيار الشرعي والقرار المناسب لواقعه هو الرأي الشرعي؛ فإن كانت المصلحة هو خيار الانسحاب في الحرب، أو الكف عن القتال وترك مواجهة العدو ـ كما فعل خالد رضي الله عنه؛ فإن هذا هو أيضًا "جهاد"!

خيار الصلح في الفقه الإسلامي كان فتحًا هو الآخر. فقد سمى الله صلح الحديبية

فتحًا بقوله تعالى " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1)"[25]، وقوله تعالى "... لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ.. " - (الحديد - 10)[26]، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: "إنكم تعدون الفتح فتح مكة وإنما الفتح هو الحديبية".

وإذا كان الله سبحانه قد شرع الجهاد وأوجبه على المسلمين في الدفاع عن النفس، واستعادة الحقوق؛ فقد أباح أيضًا الصلح والمعاهدات مع غير المسلمين من الأعداء وقت الحاجة إلى ذلك.. يعني لم يكن الجهاد أمراً على "إطلاقة" !

فقام النبي (ص) بذلك كله، فحارب وعاهد وصالح وسكت عن قوم بلا صلح ولا عهد لتحقيق مصلحة الإسلام والمسلمين، وقال تعالى (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنفال:61).

وصالح النبي (ص) كفار مكة في الحديبية، وتنازل لهم في أمور لم يتحملها الصحابة حتى قال عمر - رضي الله عنه: (ألسنا على الحق؟... أليسوا على الباطل؟... فلم نعط الدنية في ديننا)؟

حتى المرتدون؛ لم يتعامل معهم المسلمون إلا بحسب قدرتهم ومصلحتهم.

فقد خرج مسيلمة في حياة النبي (ص) وقدم إلى المدينة ثم أرسل رسوله "ابن النواحة" إلى النبي (ص)؛ إلا أن النبي (ص) سكت عن مسيلمة ولم يقاتله[27].

تاريخيًا.. لم يكن المعنى الإسلامي للجهاد وجوب الدخول في مواجهة مطلقة مع غير المسلمين؛ إنما كان الجهاد هو الدفاع عن المسلمين، وعدم تعريضهم للمهالك من غير طائل.

والمسلمون الأوائل لم يصفوا غير المسلمين بالكفار. فـ"التكفير" إذا كان قاعدة إسلامية هو الآخر؛ فإن له ضوابط من حديد، وضعها الفقه الإسلامي منعًا للفوضى، وحقنًا لإراقة الدماء.. واستباحة الأعراض.[28]

25- سورة الفتح، الآية رقم 1.

26- سورة الحديد الآية رقم 10.

27- راجع السير الكبير، لمحمد بن الحسن الشيباني، ومجموع الفتاوى، في مهادنة المرتدين، للإمام ابن تيمية، حال ضعف المسلمين، وقصة أعراض النبي (ص) عن ابن النواحة، رسول مسيلمة.

28- راجع: "القاضي عياض، في كتابه الشفا في بيان حقوق المصطفى، باب (ما جاء من إكفار المتأولين)، وحقق قواعد التكفير،

التكفير فقهًا نوعان.. "تكفير المطلق"[28] هو الحكم على الفعل، وهل هو صريح أم محتمل؟ وكذلك النص المؤثم له، هل هو صريح أو محتمل؟

النوع الثاني هو "تكفير المعين"، وهو الحكم على الفاعل بعد النظر في حاله وتبين خلو الواقعة من الشروط والموانع التي تحققت. وقد كرر ابن تيمية – رحمه الله – التنبيه على وجوب التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين وسمى هذا (قاعدة التكفير).

[29]وإذا كان لا بد من تبين الشروط والموانع في حق "المعينين"؛ فهي مسائل تركها أهل الفقه، وأوكلوها للقضاة.

إذا؛ الكلام عن التكفير وعن الجهاد على الشاشات مصيبة، والحديث بين غير المتخصصين كارثة، إضافة إلى أن "موضوع التكفير" نفسه ليس يسيرًا، لذلك؛ فهو لا يدرس من كتب العقائد والتوحيد وحدها؛ إنما يلجأ فيه إلى كتب الفقه في أبواب القضاء والشهادات والردة وطرق الثبوت الشرعية وعوارض الأهلية.

فلاحظ لم تبح الشريعة الإسلامية لآحاد الرعية معاقبة عامة الناس أو إقامة الحدود عليهم أو وصفهم بالكفر ببساطة، بخلاف نظريات وحديث الشيخة نوارة، فحديث التكفير يتطلب قدرًا عاليًا من الأهلية الفقهية والدراسة الشرعية التفصيلية، إن لم يكن ممارسًا في الفتوى والقضاء الشرعي[30].

ثم إن إطلاق الأحكام على عمومها على المسلمين أو غير المسلمين لا يجوز.

إضافة إلى أن فتح الباب أمام وصف غير المسلمين بالكفر "جائحة"، ووصف الأقباط المصريين في القرن الواحد والعشرين بأهل الذمة مصيبة أيضًا.[31]

ابن تيمية. وخالفه فيها كثيرون في قواعد الاستتابة ومدتها. ولزومها. وتكلموا في عدم جواز من لم يتخذ الكافرين أولياء. لضرر المسلمين.

29- المراجع السابقة. ومجموع الفتاوى. ابن تيمية الحنبلي.

30- راجع مجموع الفتاوى. للإمام ابن تيمية. قواعد التكفير. والأصل فيها.

31- الرأي الغالب بعد سقوط الخلافة الإسلامية. وتفرق البلاد حسب حقوق السيادة لكل منها. وظهور الدساتير المنظمة لحقوق المساواة بين مواطنيها: فإن غير المسلمين. وفق هذه الظروف الأصل الفقهي الإسلامي فيهم معاملتهم وفق حقوق المواطنة. لا وفق عقد الذمة: إذ إن عقد الذمة يغيب بغياب الخلافة. فهو عقد بين خليفة المسلمين. أو ولي أمرهم. وبين غير المسلمين ليدخلوا بموجب هذا العقد في حمايته. وحماية المسلمين. حال وجود الخلافة. على أرض وشعب. وبغياب الخلافة: يغيب الشكل والموضوع في إنشاء عقد الذمة.. ورغم الخلاف: فإن هذا الرأي هو الأرجح لدينا.

كثير من المدارس الفقهية استقرت - قبل أكثر من 4 قرون - على أن "أهل الكتاب المقيمين في بلاد المسلمين – مثل النصارى – في مصر ليسوا أهل ذمة". وعليه؛ فإنه لا فرق بينهم وبين المسلمين في البلدان التي يعيشون فيها.

السبب؛ أن حكم "الذمة" كان ساريًا خلال حكم الخلافة الإسلامية؛ رغم أنه كان حكمًا فيه خلاف، لكن مع نشوء الدولة المدنية، وتحكيم القوانين البشرية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي؛ سقطت عن غير المسلمين ببلاد المسلمين هذه الصفة، لتحل محلها مفاهيم مثل "الجنسية" و"المواطنة".

فالدول الإسلامية تخضع في الوقت الحالي للدساتير، وتحكم بالقوانين.. وبقاء مصطلح أهل الذمة، أو التصنيف على أساس ديني ضد مبادئ المواطنة.. ومخالفة لإعلاء سيادة القانون في المساواة بين الناس.[32]

وإصرار بعض مشايخ السلفية، حتى الآن على أن الأقباط في مصر ما زالوا "أهل ذمة" ليس إلا اعتقادًا شخصيًا، وليس حكمًا شرعيًا؛ لأن حقوق المواطنة تساوي بين سكان البلد الواحد في الحقوق والواجبات.. بموجب الدستور.

وإذا صح ما روي عن الإمام مالك؛ فقد رفض إلزام "الأقباط" في بلاد المسلمين بارتداء "الغيار"، مشيرًا إلى أنه إلزام غير شرعي.

ورفض الإمام مالك أيضًا الأخذ ببعض الآراء القديمة باستمرار اعتبار "النصارى" ذميين، كما رفض إعادة تلك الأفكار للمناقشة وقال: "أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما أنزل الله على محمد - صلي الله عليه وسلم - لقول آخر".

لم يصف الإسلام غير المسلمين بالكفر، ولا أمر الأئمة بالتعرض لهم بأذى. ولا قال الإسلام قول كثير من "جماعات السلفية"، أو كما قالت "الشيخة نوارة":

32- تعتمد الدول الحديثة في إقرار دساتيرها: على المساواة في جميع الحقوق وفق قواعد الانتماء للأرض، لا الانتماء للدين. وعلى هذا تقوم جميع قواعد الفقه الدستوري في الحكم على ما ينظم هذا في روح أي قانون جديد مصدر، أو في الحاجة إلى إقرار صدوره. وهو المتعارف عليه بدستورية القوانين الخاصة بالحريات. لهذا؛ فإن التكييف الفقهي لتوصيف اليهود والنصارى في بلاد المسلمين، هو أنهم أهل كتاب غير معاهدين. والنصراني غير المعاهد ليس ذميًا. على خلاف النصراني الأجنبي، أو من غير مواطني البلد. وهو الذي يحتاج لعقد ذمة، لدخوله البلاد. وهو ما يطلق عليه ذمي، في حال تواجد الخلافة الإسلامية على حدودها الجغرافية.

بأن يظل المسلم على استعداد دائم لقتال غير المسلمين كل وقت، بلا سبب، ولا داعٍ.

فقهًاأيضاً: لغير المسلمين على المسلمين المعاملة الحسنة، وحسن الجوار. فقد قال تعالى: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة:8)، ومعنى "تبروهم" من البر، وهو الإحسان، ومعنى "تقسطوا"، من القسط، وهو العدل، فكل من لم يؤذ المسلمين تجب معاملته بالعدل والإحسان.[33]

فغير المسلمين هم جيران المسلمين في السكن والعمل والدراسة، والإحسان إلى الجار "من مسلم وغير مسلم" واجب شرعًا وليس مجرد استحباب، فقد شهر عن النبي قوله: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره".[34]

ولم يقصر الإسلام المسالمة على الجار المسلم؛ إنما أطلق اللفظ ليشمل عموم الجار.. أي كل جار "مسلم وغير مسلم".. فجعل النبي (ص) إكرام الجار من شروط الإيمان فقال: "من كان يؤمن.." إلى آخر الحديث.. "فجاء فيه إكرام الجار".

ونفى النبي (ص) الإيمان عن الذي لم يأمن جاره من شره.. سواء كان جاره مسلمًا أو غير مسلم، والجوار في السكن، مثل الجوار في الدول، فشهر عنه (ص) أنه قال: "لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه".

ولم ينف الإسلام الإيمان إلا عمّن ترك شيئًا من أصل الإيمان.. أو من واجباته.. والمعنى؛ أن حسن الجوار من تمام الإسلام.. بلا فرق بين مسلم وغير مسلم.

من جهة أخرى؛ ليس في الشريعة، ما يسمى بقتال "اليهود" أو "النصارى" الذين يسميهم بعض دعاة الفضائيات "الصليبيين"، فلو كان هذا صحيحًا؛ لما بقي على

33- الأصل الفقهي في الموضوع في المتعارف عليه من قاعدتي مستور الحال ومجهوله. فالناس فقهًا على أمرين: الأول هو "مستور الحال". وهو من كان ظاهره الإسلام. ولم يظهر منه ما ينقض إسلامه. وجهول الحال. وهو من لم يظهر منه ما يدل على إسلامه. أو كفره. وعلى المسلمين المعاملة الحسنة. في الحالتين أمام أهل الكتاب. أو أهل الذمة. من غير المسلمين. فإن الأصل فيهم أنهم كتابيون. أي أصحاب شريعة سماوية. وهم على خلاف الكافر. فالأولى المعاملة الحسنة للكتابيين. إذا كان الأصل في مجهول الحال. معاملته بالحسنى.

34- صحيح البخاري ومسلم.

الأرض من اليهود والنصارى إلا القليل.. وما بقى منهم أحد في "بلاد المسلمين".[35]

الصحيح في الإسلام؛ أن يعامل المسلم الأقباط واليهود كالمسلمين، بلا شجار.. أو توصيفات تثير الفتنة، وتكدر السلم.

فالجهاد في الإسلام يعني قتال المعتدى، ولا يعني قتل أي يهودي، أو أن كل مسيحي مطلوب جهاده.. لأن الأصل في الإسلام.. السلام.

لكن؛ إذا غاب العلماء اتخذ الناس رؤساً جهلاء فضلوا وأضلوا.. إن هو إلا هوى، أو هو "الجهل"، والجهل في تحليل ما لا يحل في الدين.. بلوى سوداء ضمن بلاوٍ كثيرة قطعت فينا.

كثيرون لا يعرفون الأسباب وراء تعمد "دعاة السوبر ماركت" التمسك بآراء الإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية في مسائل معينة، رغم وجود آراء أخرى أكثر يسرًا.. وأفضل مصلحة لدى الأئمة الآخرين.

ابن حنبل ليس مجروحًا، لكن لأسباب كثيرة لم يتفق على آرائه كثير في العصر الحديث، فآراء ابن حنبل في بعض المسائل الفقهية لم تكن تليق برحابة الإسلام.. ولا باتساعه، ولا بظروف المجتمعات الإسلامية الحديثة.

لكن ما الذي حدث؟

الذي حدث أن مشايخ السلفية أخذوا من ابن حنبل تشدده، ومن ابن تيمية تصلبه.. فحولوه إلى "إسلام مظهر"، يقوم على "الطقس"، يكره الآخر، ويعادي المختلف معه في الرأي.. ثم يأمر بجهاد غير المسلم بالنفس والمال في القرن الواحد والعشرين، رغم سقوط "أحكام الجهاد".. بوفاة النبي قبل ما يزيد على 1430 عامًا!

هذا في عصر المعلومات والفضائيات. يعنى في وقت باتت الشاشات فيه أمضى حدًا من "السيوف"، وفي وقت كان ملايين المشاهدين في حاجة إلى من يرشدهم إلى طريق "العودة إلى الله"، في مقابل شغف مسئولي الفضائيات، للعودة إلى مكاتبهم المكيفة..

35- راجع كتاب المراجعات الفقهية لجماعة الجهاد. للدكتور سيد إمام. وتأصيله الفقهي في الموضوع. وفق الضوابط الشرعية. للانتهاء إلى هذا الرأي.

لحصر إيرادات برامج "الدعاة"!

فقد ساووا بين مقاييس نجاح استضافة نانسي عجرم أو هيفاء وهبي واستضافة مشايخ الأزهر.

بعض المسئولين في القنوات الفضائية بدأ يوازي بين مواد ما سمّوه "التليفزيون التفاعلي" من عينة "ستار أكاديمي" و"سمعنا صوتك".. وبين مواد الدين على شاشاته، والنتيجة: أن وقع المشاهد العربي - بما عاناه من أزمات وجد معها نفسه في أمس الحاجة إلى الدين - في فخ "تجار الدين"!

أعادنا "نجوم الفضائيات" للثمانينات، عندما أقامت أفكار "الجهاد" مجتمعًا "كفر بالمجتمع".

صحيح نظريات "الخروج في سبيل الله" كانت موجودة في شروحات بعض أهل الفقه، لكن الذين أعادوا إحياءها في السبعينيات والثمانينيات كانوا متطرفين.. استغلوها، وحوّروها وسيطروا بها على العامة الذين كانوا في حاجة للرجوع إلى الله.

لم يستيقظ أحد وقتها أيضًا إلا بعد أن مهدت "أفكار الجهاد" للبنادق والسيوف، والقنابل والمتفجرات.

تضخمت "نظريات الجهاد".. فخرج أمراء التطرف الديني، وفصّلوا إسلامًا جديدًا على باترونات "قنابل يدوية".

فسمعنا أزيز الرصاص بدلًا من "التواشيح"، وصمّت آذاننا انفجارات عبوات "محلية الصنع" رغم انتظارنا من يجود لنا آيات الله.

في الثمانينيات أفقنا على فزع ليليّ من طلقات أسلحة آلية قاتل بها المسلمون المسلمين دفاعًا عن الإسلام.. وبأدلة شرعية من الإسلام أيضًا!

ولما دخلنا عصر الفضائيات والدش، كنا قد دخلنا في الوقت نفسه عصر تطرف من نوع جديد، اعتدنا فيه أكل العسل، بينما كان السم فيه!

(2)

عام 2004؛ أذاع أحد مقدمي برامج الدين ذو الجماهيرية ما سمّاه "دعاء العنوسة"، ونسبه إلى حديث نبويّ قال إن النبي (ص) أوصى اللاتي تأخر بهن سن الزواج بتلاوة الدعاء عددًا من المرات يوميًا.

ولما أحدث الحديث جدلًا شديدًا؛ فتساءل البعض عن صحته، واستفسر آخرون عن حجيته.. ظهر المذيع على الشاشة بعد ساعات وقال إنه قرأ الدعاء نيابة عن شيخ أزهري كبير له اسمه ومركزه العلمي.

واحتد النقاش والكلام في الشارع المصري، وكان أمرًا طبيعيًا، فخمسة ملايين عانس نصفهن على الأقل مسلمات؛ كن ينتظرن خلاصًا من أي نوع للهرب من آلام نفسية وضغوط اجتماعية شديدة؛ فالتي تأخرت في الزواج غالبًا ما تتعرضن لقهر في مجتمع يرى أن قطار الزواج هو الأهم.. بعد قطار سوق تجارة إكسسوار المحمول.

سيطر حديث "دعاء العنوسة" على الجميع، لكن لم تسيطر أفكار عن كيفية تحولنا إلى مجتمع منتج بدلًا من سمات استهلاكية شديدة.

احتدم الجدل حول "جدوى دعاء العنوسة"، بشكل لم نره يتصاعد في مناقشة أسباب التفسخ الاجتماعي الذي وصلنا إليه، أو محاولة البحث عن سبيل لعودة مجتمعنا إلى رشده.

كأنها أزمة متوقعة؛ فالمذيع كان قد قدم حلًا ربانيًا للعنوسة، وسقط هذا الحل في قلوب الآلاف المؤمنات المأزومات، بدعاء منبعه "شيخ أزهري"، ومصدره رسول إلهي، أذاعه برنامج مشهور على شاشة معروفة.

كان المعنى أن الحل في أيدينا، وأيدي العذارى اللاتي لم يتقربن من الله كما كان يجب أن يفعلن في مثل تلك الظروف، لذلك؛ فإن لكل من تأخرت في الزواج أن تقرأ الدعاء ثلاث مرات قبل نومها وبعد صلاة العشاء.. إذا كانت ترغب في

ارتداء طرحة الفرح خلال أسابيع قليلة!

والذي حدث لم يكن متوقعًا.

فقد بعث فتيات يشكرن الله، والفضائيات.. بعدما زال الهمّ.. وأتى المراد من رب العباد، بعضهن قلن إن الرسول (ص) جاء إليهن في المنام، ومسح على شعرهن ويشرهن بالفتح القريب.

وحكايات كثيرة أخرى من هذا النوع.. وكانت "هيصة"!

وبهت المعترضون، وسكتوا عن مزيدٍ من الكلام في هذه "المهزلة"، واضطروا للكف عن رفع أصواتهم بأن اللاتي أتاهن نصر الله والفتح كن سيدخلن القفص الذهبي بالدعاء أو بغيره.

شيوع دعاء "العنوسة" كان تغييبًا للناس عن ظروف مجتمع مرّ بأربعة نظم اقتصادية خلال أقل من خمسين عامًا.

وثانيًا: كان صورة ممّا يمكن أن نسميه "تديين الحلول"، أو الاعتقاد في ضرورة وضع حلول مشكلاتنا في إطار ديني.. "خرافي أحيانًا": يبعدنا بالضرورة عن لب المشكلات.

كأن الحلول تأتي في الغالب من السماء، فالذين على الأرض تكفيهم تمتمات قبل النوم وبعض الأدعية بعد صلاة العشاء؛ ليذهب المرسال بصوته الجهوري لفلان: يا فلان.. إن الله يقرئك السلام بأن تتزوج.. وقد اختار لك فلانة؛ فاذهب إنك لمأمور"!!

حل مشكلات العوانس بالدين مثلًا: كان ذكاء تسويقيًا؛ لكنه لم يكن تخريجًا شرعيًا، وحتى إن قال أصحابه هذا؛ فهو أشبه بالذي تناصح وعلق تفسير الأحلام على كتاب الله وسنة رسوله.

كانت "صنعة" أيضًا، فاجتذاب ملايين المسلمين إلى فضاء الله، بكتاب الله.. ودعاء رسول الله لم يكن مشروعًا سهلًا.

حتى إن لم يكن سوء النية متوافرًا، ولا مقصودًا؛ فإن وضع جماهير غفيرة على أرضية عقائدية للوصول إلى أهدافها.. كانت صيغة استحكمت؛ فنفذت منها إلينا كل ما يمكن أن نتصور.

فلا أحد يمكن أن ينكر "كلام الله"، ولا هناك من لديه الفرصة لفحص ما قيل إنه نقل عن رسول الله!

في الموالد لا يليق بأحد الحزن، ونسبة الأقوال للنبي (ص) كانت "مولد".. أو كانت زفة، تكسّب منها بعضهم، بينما دخل منها الفرح "وهمًا" إلى آخرين.

وفي النهاية؛ ينفض الشادر من دون أن يتنبه.. الفرحان ولا الكسبان لما خلفته الليلة من "صماد" على الأرض وعلى الحوائط.. وداخل النفوس أيضًا.

إحدى نظريات علوم الإعلان تعتمد على "المصادقين من المشاهير".[36]

وطبقًا للنظرية؛ فالاعتماد على شخصية جماهيرية أو مفهوم اجتماعي في الإعلان عن سلعة ما عامل أساسي في رواجها، بصرف النظر عن جودتها.

جملة صغيرة في كتب علوم الاتصال تشير إلى أن نظرية "المصادقين المشاهير" تصبح أكثر فاعلية، وأكثر انتشارًا في الأزمات الاجتماعية.

في أزمات المصريين؛ كانت نسبة الأفعال والأقوال إلى الله ورسول الله "مصادقة من مشاهير"، لذلك؛ دخلت أدعية "العنوسة" فجأة، واختفت فجأة.. ودخلت "تفاسير الأحلام" هي الأخرى فجأة.. ثم اختفت أيضًا فجأة؛ لتفسح المكان لفكرة أخرى.. تأتي هي الثانية فجأة!

ففي الأزمات الاجتماعية؛ تكون الظروف مهيأة لـ"معلبات الدين"، وفقه "التيك أواي".. الذي يخضع لنظريات التفنن في طرق جذب الزبون المعمول بها لدى سلاسل

36- تعتمد نظرية المصادقين من المشاهير في الإعلان على استغلال شهرة وشعبية الأشخاص. للترويج إلى سلعة معينة. بما يترتب عليها زيادة المبيعات. باعتبار أن شهرة أشخاص المعلنين. وشعبيتهم. تؤدي بالضرورة إلى التجاوز عن بعض عيوب السلعة. وربما التعلق بها. لمجرد التعلق بشخصيات "المصادقين" من المشاهير. وهي نظرية متعارف عليها في علوم الإعلان. إضافة إلى أنها الأكثر تنفيذًا بين أساليب الدعاية المختلفة.

"السوبر ماركت" الكبيرة.

كان التعلق بشماعة الشرع عملًا صالحًا.. في متجر رابح.

المعنى الآخر؛ أن مجتمعًا بهذه الصورة لا هو متدين.. ولا يحزنون؛ فإن بدا منه ما يشير إلى التدين.. فهو "شكل".. أو "برافان".

أما إذا لم يكن "برافان"؛ هو أن تديننا "طقسي"، يحفل بالألفاظ.. ويسعى للكمال من الخارج.. من دون ترتيب البيت من الداخل.

يبدو أن "دين الطقوس" جزء من سمات العصر، وملامح الأزمة، لذلك غرقنا في "دين اللباس"، ودعاء "دخول الخلاء"، والمأثور في "الجماع"، وما يستحب قوله قبل أن يأتي الرجل زوجته!

اختصر المصريون الدين في "طرق العبادات".

واختصروا اللغة العربية أيضًا، فلم نعد نعرف منها إلا عبارات "جزاك الله خيرًا" و"أختي المسلمة أحبك في الله" و"السلام عليكم"، بينما نخطئ في الإملاء، وتظهر "مصائب" في كتابة طلبة الجامعة من الملتحين.. والمتنقبات.

المدلول؛ ظهور ما يجوز تسميته بـ"شكلنة" الإسلام، أو إعادة "ترسيمه"، بمعنى الحرص على "الإطار" بدلًا من التعاطي مع الجوهر، والنتيجة تفاصيل كثيرة سطحية، لا تقترب من مضامين الأفكار، ولا أعماق الأسباب.

غياب "التفلسف الديني" لدى المصريين.. هو الذي شبعهم بالاستعداد للتسليم التام بكل ما يمكن أن يوضع في أطر دينية، وهو ما انسحب بالوقت على ما لم يكن دينيًا من الأساس.

طبيعة تعاطي المصريين مع الفكر الديني تاريخيًا؛ كانت سببًا في أن يختبئ الإسلام داخل أحكام النفاس، وأحوال الحائض.. وأساليب الغسل الشرعي، وما يجوز في الجماع بين الرجل وزوجته.. وما لا يجوز!

كان تطرفًا اجتماعيًا لأقصى اليمين، وهي ظاهرة مقلقة؛ لأن التطرف لليمين أخطر

من التطرف لليسار.

فالأول عقائدي"ديني"، بينما الثاني عقيدي "أيديولوجي"، والفارق بين الاثنين غالبًا ملوث بالدماء.

فالعقيدة من عند الله، والأيديولوجيا من عند الناس، متطرف العقيدة دموي، حمال سلاح لفرض ما يعتقد بأنه من عند الله، بينما الأيديولوجي لا يحمل سوى مجموعات من الأفكار محبوكة العلاقة.. أملًا في الإقناع.

ثم إن جنوح رجل الدين.. أخطر من جنوح البغايا.

وعنف الجماعات الدينية المسلحة ظاهر.. محدد الملامح، بينما تطرف غير الدينيين أملس، غير ظاهر وغير محدد.

تطرف "رجل الدين" هو الذي أضاف أحاديث للسنة لم يقلها النبي، عن علاج الأمراض بـ"الحبوب" و"الغلال" مثلًا، فصُبغ الدين ف الخمس عشرة سنة الأخيرة بنكهات مختلفة.. معظمها "خالٍ من الكوليسترول".

وتطرف رجال الدين هو الذي قادنا إلى شيوخ العلاج بالقرآن، وعرفنا معه ما قالوا إنه "طب نبوي"، ثم عرفنا وقتها كبير دعاة "الطب النبوي".

قدم الشيخ عبد الباسط نفسه على الفضائيات عام 2006؛ بوصفه عضو المجلس الأعلى العالمي للطب النبوي.

والشيخ عبد الباسط هو الرجل الذي شهدت خواطره عن علاج الأمراض المستعصية بالقرآن الكريم جمعًا غير مسبوق من التهافت في ذلك الوقت.

ومع نجومية د. عبد الباسط بداية سمع المسلمون ربما للمرات الأولى عن أسانيد سنن خفض الكوليسترول بـ"الرجلة"، وأحاديث "التداوي بالخروب" و"الذبابة".

يأمر حديث "الذبابة" المسلم إذا وقعت ذبابة في إناء يشربه أن "يغمسها فيه ثم يلقيها، ففي أحد جناحيها داء وفي الآخر الدواء".

حديث "الذبابة" ضعيف الإسناد، منكر المتن، بما يلزم من العاقل عدم نسبته للنبي (ص).

لكن د. عبد الباسط قدم مليون دليل على صحة الحديث؛ فكلمه الملايين على الهواء.. وهنئوه.. وصدقوه.. في إصرار ملحوظ على تأصل اتجاه ربط الأمور الحياتية بالدين.[37]

كان الإصرار شديدًا على الاعتقاد في أن ربط الحقائق العلمية بالدين إعلاء للدين.. حتى لو التوت الحوادث، وابُتكرت أبحاث عالمية مزيفة، ورغم أن العقائد لا كانت في حاجة لما يعلي شأنها، ولا كانت في سباق مع نظريات الطب.. ونسب التحاليل في المعامل.

ثم إن ربط الدين بالعلوم ليس دائمًا في صالح الدين، وغالبًا ليس في صالح العلوم.

لكن محاولات تفسير التغيرات الحياتية برؤية دينية هي التي صنعت من د. عبد الظاهر وجهًا فضائيًا "نجح" في علاج المسلمين بالطب النبوي "تلفونيًا" من خلال الشاشات، فشفى الأمراض، وأبرأ الأكمه والأبرص، ونافس زملاء الكلية الملكية الإنجليزية للأطباء.. بسنة رسول الله!

طبيعي بعد تطورات العشرين عامًا الأخيرة أن يصبح تفتيش "المسلمين" في مطارات الولايات المتحدة الأمريكية أمرًا عاديًا.

وبعد تحولات العشرين عامًا الأخيرة؛ كان الكشف على أحذية المسلمين، وجواربهم وملابسهم الداخلية بالأشعة تحت الحمراء منطقيًا أيضًا في بقية دول أوروبا.

لم يكن التعاطي مع قضايا الدين على الفضائيات سببًا أساسيًا في تشكيل وجهة نظر العالَم تجاهنا فقط؛ إنما أعاد ما أبداه مشايخ الإعلام من تطرف مثلًا تجاه المرأة والمخالفين في الديانة صياغة أفكار الغرب تجاه المسلمين..

37- حديث الذبابة، أخرجه البخاري في صحيحه. وقال كثيرون بعدم معقوليته. وسط دعوات إعادة إخضاع السنة للفحص. وتنقية الحديث النبوي. وقال الإمام الألباني: أما حديث الذباب، وما في جناحيه من داء وشفاء: فحديث ضعيف، بل هو عقلًا حديث موضوع.

وعليهم.

لم ينجح أحدنا في أن يعيد الأمر إلى نصابه، ولا استطاع المسلمون أن يطفئوا نارًا بدأت تأكل المسلمين أنفسهم.

اسم "المسلم" على جواز المرور؛ بدا سببًا عاديًا لتأخير سفره في المطارات، ملامحه العربية تحولت إلى ذريعة روتينية لاقتياد المتهم "بالإسلام" إلى الصالة الحمراء، وهناك يكون محمد أو أحمد أو عبد الرحمن مطالبًا بإثبات براءته وتقديم تفسيرات منطقية عن ملامحه واسمه!!

دخل المسلمون في "خانة اليك"، وقتما كانوا مطالبين بتغيير ما التصق بهم من صور، وما أحاط بهم من أفكار.

تصورنا بسرعة ـ وقد وصلت الأمور إلى هذا الحد ـ أن يخرج منا من يشرح الفرق بين الإسلام والإرهاب.. لكن هذا لم يحدث.

ولما كنا في حاجة إلى من يسارع إلينا بصورة مقبولة، على أن الإسلام ليس دين "خرافات"، ولا عقيدة "خزعبلات"، "طلع نأبنا على شونة"، فالحال ظلت كما هي عليه، واستمر الجدل عندنا في أحوال المستحاضة، والاختلاف تبعًا كان في مدة دم حيض الحائض.. وفترة النفاس.

حتى الآن لم ننجح، بالعكس؛ زاد بعضنا في المغالاة في الدين، واستمر آخرون في استعراض ما تصور أنه من عند الله، فتلقاه كثيرون منا بقبول حسن.. وأنبتوه نباتًا حسن.. وكفلوه، ثم نجموه.. وولوه عليهم فقيهًا، ثم صار فقيهنا هو الدين، وقوله هو القول الفصل، قبل أن يتبين منا قليلون أنه لا كان فقيهًا، ولا كلامه يمكن أن يكون فصلًا.

فشلنا في تصدير صورة حقيقية لدين أنزله الله منذ أكثر من 1430 عامًا بينات وهدى للعالمين؛ فتحول العالمين ضدنا، خوفًا من ذقوننا الطويلة، وقلقًا من جلابيبنا البيضاء.. وسراويلنا القصيرة.

قاومنا العالم فاستهزأ بنا.. ثم طاردنا، ليس خوفًا من خروج مارد "الإسلام"

من القمقم، ولا خشية من عودتنا لحكم العالم كما يرى مشايخنا فيما يرى النائمون.

خافنا العالم ولم يخشانا، خاف السلاح بين الملابس، ولم يخش عقولًا، خافت أوروبا سواطير المسلمين، ولم تخش صناعات وابتكارات واحتكارات إنتاج.

لكننا لم نخف، ولا أشفقنا على أنفسنا، رغم أن كل ما فعلناه في أنفسنا، واستمرأناه هز صورتنا حتى بيننا وبين أنفسنا، لكننا راكمنا مزيدًا من الخرافات، حشرنا بها عقولنا.. ليكسب بعضنا، بينما يصبح آخرون نجومًا.

رغم أننا زدنا في "مظاهر التدين"؛ فإنه في الوقت نفسه لم تتناقص نسب جرائم القتل.. ولا اختفت السرقات.

امتلأت المساجد بأعدادٍ هائلة من المصلين، وتكدست في الوقت نفسه بالمحاكم أعداد هائلة من ملفات قضايا محولة للجنايات يوميًا بمتخاصمين في اعتداءات على الحرمات والأعراض والأموال والأنفس.. قام بها مسلمون ضد مسلمين.

رغم ازديادٍ ملحوظ في الإقبال على "طقوس الإسلام"، بدا الغش التجاري ظاهرة لم تنحسر، إضافة إلى زيادة مطردة في عمليات تزييف العملة والتجارة بأقوات الفقراء في السوق السوداء.

رغم تديننا، وشغفنا بأحاديث رسول الله وسيرته، وتمسكنا بالمنقول عن النبي، حتى ولو خالف المنطق أحيانًا حبًا في الرسول، أو اعتقادًا منا في حبه؛ ما زالت قاعات محاكم الأحوال الشخصية مكتظة بـ"محجبات" نشزن عن طاعة أزواجهن، وحليقي شوارب ملتحين، تقوّموا على زوجاتهم، فضربوهن وعقلوهن، ورموا أطفالهم في الشوارع!

لم يعد لدينا من الدين الحنيف سوى أحكام دخول الحمام بالقدم اليمنى، في حين تُركت الحقوق.

عالم النفس الشهير "كارل يونج" قال إن الأوروبيين ملوا كثرة الحروب، وتوالي

النكبات قبل دخلوهم "عصور الظلام الدينية" في القرون الوسطى.

فبعدما مات الرجال، وقتل الأطفال، وانتهكت الأعراض؛ شعر الأوروبي بالحاجة المفاجئة للعودة إلى رشده، ولمّا لجأ المجتمع الأوروبي - في ذلك الوقت - للدين مدفوعين بالرغبة في الخلاص والاحتماء بالله؛ دخلت أوروبا مرحلة الظلام الفكري الشديد، وبعد مئات السنين؛ اكتشف الأوروبي أن ظلام "التدين الخرافي"، أشد قسوة من مصائب الحروب.. وبشاعة القتل ونار التشرد.

لم يقل "يونج" إن المشكلة في "الدين"؛ إنما قصد أن "البلوي" في المتدينين!

بسم الله الرحمن الرحيم

"إِنَّ هَذَا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)

صدق الله العظيم

قرآن كريم
سورة الإسراء

.. والمشايخ يريدونها عوجًا!

(1)

في الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ خاف العرب "الأحناف" وسمّوهم "الصابئة".. أو قالوا إن "الصابئة" فرع من "الأحناف".[1]

وفي المجتمع المكي قبل البعثة المحمدية؛ عاش النصارى إلى جوار اليهود وإلى جوار عبدة النار وعبدة الجن، لا اختلف هؤلاء مع هؤلاء في المجالس، ولا حرض أحد هؤلاء على هؤلاء بالقتل والمنكر والسب.

كان الدين لله، والخلافات لـ"الدنيا".. لكن الصابئة ألبوا اليهود على النصارى، وألبوا النصارى على اليهود، وجعلوا خلاف الدنيا خلافًا في الدين.. وجعلوا ما لقيصر لله وما لله لقيصر.

الصابئة كانوا عنصريين، لذلك اعتقدوا أنهم الوحيدين عباد الله، وأن رحمته تسعهم وحدهم، بينما لا تسع جميع خلق الله.

الصابئة لم يعترفوا بالآخر، ولا بباقي الخلق؛ فقالوا إن الدين دين إبراهيم، وانتظروا أن يحكمهم واحد منهم.. لذلك لم يؤمنوا بالكتب السماوية، ولا برسل ولا بأنبياء النصارى واليهود.[2]

ونسب الصابئة أنفسهم لإبراهيم ـ عليه السلام، ونفوا النسب نفسه عن القبائل العربية الأخرى، فقد اعتقدوا أن اشتراكهم مع قبائل: تيم وغطفان وطيّئ وعرب اليمامة في نسب إبراهيم تدنيسًا للشرف، وتحقيرًا للمنزلة.

ولما بعث محمد (ص) استغربوا نبيًا يساوي بين الأحناف واليهود والنصارى ومن عمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

1- راجع الحزب الهاشمي وتأسيس دولة الرسول. الدكتور سيد محمود القمني. بطبعاته.
2- المرجع السابق.

ومثلما فعل الصابئة قبل الإسلام؛ فعل د. زغلول النجار بعد الإسلام بأكثر من ألف وأربعمائة وثلاثين عامًا.

عام 2007؛ صبأ د. زغلول النجار. قلب الإسلامي "المستنير" الدنيا من على قناة الجزيرة، فاحتقن الأقباط المصريين، واستغرب المعتدلون المسلمون.

ازدرى زغلول المسيحيين حول العالم "عيني عينك" من دون سبب ولا مناسبة، قال إنهم حرفوا الكتاب المقدس.. وحقر الإنجيل، والذين كتبوا شروحات الإنجيل.

الفتنة نائمة، لكن زغلول النجار والذين معه يفضلون إحياءها "عاطل مع باطل"، إقامة الفتنة عندهم إقامة للدين.

عند المشايخ مثل د. زغلول "زبد" يرغي على الشفاه.. ورعًا، وميلة رأس في الحديث.. تقى، ونبرة صوت في الكلام.. هدى، وعندهم أيضًا أن "الفتنة".. عماد الدين!!

الذين استشيخوا على طريقة الصابئة.. يكثرون اللعن، ويكفرون العشير.. يقولون هذا من عند الله.. وما هو من عند الله.. لكنهم أضل سبيلًا.

من الصابئة سويد بن عامر المصطلقي، وورقة بن نوفل، وزهير بن أبي سلمى. ومثلهم مثل الأحناف كان لهم مناسك في الطهارة وحج البيت، ولهم قواعد في نواقض الوضوء.[3]

في الجزيرة العربية شهر عن الأحناف وبعض الصابئة صلاتهم خمس مرات تجاه الحرم المكي.[4]

اعتاد العرب قبل الإسلام رؤية الصابئة يسعون بين الصفا والمروة، وسمعت القبائل سويد بن عامر يلبي في الشوط السابع "لبيك متعبدًا مرقوقًا".. وشهر عن أمية ابن أبي الصلت اعتكافه في البيت الحرام.. لكن الأحناف لم يكونوا مسلمين، ولا الصابئة كانوا كذلك! [5]

3- الحزب الهاشمي.
4- الحزب الهاشمي.
5- الحزب الهاشمي.

أدرك زهير ابن أبي سلمى محمد (ص) لكنه رفض الإسلام؛ فقد استغرب زهير تصديق الرسالة المحمدية للإنجيل، ومناداة القرآن اليهود بـ"أهل الكتاب".

استكبر زهير، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر.

بعض المشايخ يستكبرون أيضًا، تلهو بهم الخرافة باسم الإيمان، مع أنه لا إيمان.. ولا يحزنون.

يرفضون الإنجيل، ويحرضون على الأقباط الذين تزوج النبي منهم، يتكلمون فيما سمّوه الإعجاز العلمي في القرآن وعما سمّوه بالطب النبوي، في الوقت الذي صدق فيه النبي (ص) ما بين يديه من الإنجيل والتوراة، من دون أن يتكلم عن أي إعجاز علمي.. ولا تكلم الصحابة فيما يسمى بعلاقة آيات الله بالشجر، ودوران الأرض.. ووزن الحديد الذري، ولا ربط أحد بين علاقة الآيات المتشابهات، وبين علوم الهندسة الوراثية لتحسين سلالات محاصيل الطماطم!![6]

بعد وفاته (ص)؛ روى عنه ابن عباس والسيدة عائشة وأبو هريرة في المواريث والزواج والطلاق وحقوق أهل الذمة، لكن أحدًا منهم لم يروِ عن إعجاز القرآن العلمي في نظريات إقامة الكباري، والفيزياء النووية.

لا تكلم ابن عباس (رض) عن نبوءات القرآن بانهيار برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك، ولا حكت أم المؤمنين السيدة عائشة عن نزول جبريل (عليه السلام) بوحي للنبي يخبره دخول الجيش الأمريكي بغداد في المستقبل.[7]

6- للدكتور زغلول النجار محاضرات طويلة وكثيرة في إثبات أن لآيات القرآن الكريم علاقة بتفسير نظريات علمية مختلفة. معتقدًا أن في هذا تنبؤ الآيات الكريمة بحقائق العلوم. وهذا إن كان لا علاقة له بعلوم الفقه. ولا بأصوله ولا بفروعه. إذ إن الفقه في التعريف هو استخراج الأحكام الشرعية. من أدلتها التفصيلية. ويدخل في ذلك المراد من آيات الأحكام في القرآن التي لم يرد فيها ولا اقترب منها كلام الدكتور النجار؛ فإن كلامه لا يخرج عن الرأي. الذي يرى الكثيرون من دارسي الإسلاميات؛ أنه يتعارض مع طبيعة كتاب الله. والمراد من آياته.

ضف إلى ذلك أن الدكتور النجار ربط بين نظريات العلوم وتفسيره لمعاني آيات القرآن المتشابهة. مع مخالفة هذا في الوقت نفسه لآياته نفسها لقوله تعالى "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ.... " إلى:" فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ..... " ـ (آل عمران ـ 7).

7- شهر عن الدكتور زغلول النجار تأكيده في إحدى محاضراته اعتقاده في أن الاعتداء على برج التجارة العالمي الأمريكي كان القرآن قد تنبأ به في بعض آياته. والطريف أن هناك من أكد هذا من المسيحيين المتطرفين. مشيرين إلى تنبؤ الإنجيل بهذه الأحداث أيضًا. وهو ما أشار إليه أيضًا بعض اليهود. بالنسبة إلى سفر "إشعياء" النبي. في الوقت الذي ارتفعت فيه مبيعات

لا تكلم أحد من الصحابة. ولا روى بلال مثلًا عن النبي (ص) أحاديث في فضل ارتداء "الجلابيب"، والسراويل القصيرة.

لم يرد في السنة ما لـ"حف" الشوارب، وإطلاق اللحى من أثر على "الدورة الدموية" لابن آدم!

لكن زغلول النجار تكلم في كل هذا كله، وأحاله على الكتاب الكريم، ورسول رب الكتاب الكريم.. بينما احتقر المسيحيين، واتهمهم بالتحريف والخرافة!

تاريخيًا؛ كان في قلوب بعض الأحناف والصابئة مرض.. فزادهم الله مرضًا.

أما الذي يبدو أنة فعل هو الآخر؛ فكان الداعية الشيخ صفوت حجازي؛ إمامته قبل تراجعه عن فتواه التي أطلقها عام 2006 لا تجوز، وإمامته بعد تراجعه عن الفتوى نفسها عام 2006 لا تجوز أيضًا.

تراجع حجازي عمّا قال إنه فتوى تحت إكراه وضغط الدنيا، والرجوع عن الرأي الشرعي بضغط دنيوي؛ يخرج صاحب الفتوى بالضرورة من شرط "العدالة".. ويحجب عنه الثقة فقهًا.

فقهًا.. تحول الشيخ حجازي من صاحب فتوى، وناقل علم ـ كما يحب أن يصف نفسه ـ إلى "فاحش الغفلة"، بعدما تراجع عن حكم شرعي توصل إليه بكامل إرادته، إلى ما يناقض الحكم نفسه بكامل إرادته أيضًا.. من دون سبب وجيه يقتضي العدول.

فتواه الأولى "وهنة"، والثانية مضعفة.

الحكاية أن الشيخ حجازي خاف نيابة أمن الدولة.. مع أن الله أحق أن يخشاه!!

فلولا استدعاء الشيخ حجازي للنيابة؛ لملأت فتواه بجواز قتل اليهودي في دار الإسلام تجمعات الشباب الدينية على المنتديات الإلكترونية، وفي المساجد الفايف "ستارز".

كانت "ولعت"، لكن رئيس نيابة أمن الدولة وقتها، المستشار هشام بدوي عصمنا من

"نبوءات نوستراداموس" في الولايات المتحدة والعالم. بعد إشاعات عن تنبؤ العراف القديم بحوادث سبتمبر. ووصفه لها في كتابه المسمى "النبوءات"!

تداعيات فتوى حجازي، وربما عصمه من نفسه.. والنفس أمارة بالسوء.

لا يعرف أحد السر في سيطرة الأفكار عن حد الردة والأمر الديني بـ ضرورة الاستمرار في "قتال المستأمن" على كلام الدعاة، والسلفيين خلال السنوات الأربعين الماضية.

ضِف إلى ذلك؛ أن التطورات الفقهية لحد الردة، ونظريات الدخول في حروب مستمرة مع غير المسلمين؛ لم تكن فروضًا دينية، ولا نصوصًا شرعية؛ إنما كانت اجتهادات رجال مقابل اجتهادات أخرى بالضد.

لا أحد يعرف - أيضًا - ما الذي حول التمسك باجتهادات قتال غير المسلمين، بمرور الزمن، إلى ما أصبح معروفا في علوم المسلمين بـ"فقه الجهاد" من دون سند شرعي أكيد.. ومن دون أمر ديني صريح.[8]

تحول فقه "الجهاد"، وما به من تحفز تجاه "غير المسلمين" من مجرد آراء شخصية لبعض الفقهاء القدماء، إلى معلوم دينيًا بالضرورة.. ثم وسيلة "إرهاب" لفوها في إطار ذهبي، رغم أنها لا تتماشى مع صلب العقيدة.. ولا تتناسب مع سماحة الإسلام.

حتى في الفقه القديم الذي يجوز العدول عنه بآراء أكثر تطورًا؛ حدد المسلمون الأوائل - اقتداء بالنبي - شروطًا محددة لقتل "المرتد" و"المستأمن".

كانت آراء القدماء، أكثر سماحة مما ابتكره المشايخ الجدد، الذين علقوا المشانق لكل ما ينضم تحت مفاهيم المواطنة، والمسالمة وحقوق الجيرة.. وأمان المستأمنين.

"المستأمن" هو المواطن غير المسلم في بلاد المسلمين، أو هم غير المسلمين الذين دخلوا بلاد المسلمين بغير قصد الحرب أو التجسس أو العداء.[9]

8- الجهاد فقهًا نوعان: جهاد الدفع. وجهاد الطلب. وجهاد الدفع هو الذي يخاف المسلمون على أنفسهم ونسائهم وأولادهم لو تركوه: إذ يكون فيه العدو في هجومه عليهم داخل بلادهم. وهو جهاد "الاضطرار".

اما جهاد الطلب: فهو الذي لا يؤثم المسلمون إن تركوه. ولا خوف عليهم إن لم يقوموا به. وهذا النوع من الجهاد. لم يعد مطلوبًا بعد فتح مكة. وتأسيس دولة الإسلام هناك. ولو أن هناك خلافًا. إلا أن هذا الرأي هو الأرجح لدى الكثير من فقهاء الجمهور.

9- مصادر متعددة في تعريفات "المستأمن" وعقد الأمان. راجع الأحكام في قواعد الأحكام للآمدي. ومجموع الفتاوى. والأحكام السلطانية للماوردي.

وهؤلاء لا تجوز ولو مجرد الدعوة لقتالهم، أو استحلال مالهم، أو التعرض لهم بأي من أعمال العداء. فقد استقر غالب الفقهاء على أن لـ"المستأمن في دار الإسلام ما للمسلم من حقوق.. فله ما له، وعليه ما على المسلم".[10]

ولم يرد حديث نبوي عن قتال غير المسلم إلا بشروط، أولها ثبوت تأليبه غير المسلمين على المسلمين (وقت الحرب)، أو مساعدة الأعداء للتفوق بأية طريقة من الطرق على أهل بلاده.

وشروط قتال المستأمن؛ كشروط قتال المسلم ومحاكمته، بثبوت إفشائه أسرار دولة الإسلام لأعداء المسلمين، وهي الأحكام التي أوقفها بعض أهل الفقه على الأعوام السابقة على فتح مكة المكرمة.

فقد فرضت ظروف الدولة الإسلامية الوليدة، في عصور الإسلام الأولى - وقبل فتح مكة - على المسلمين أنواعًا من العنف بالنسبة لغير المسلمين أو بالنسبة للذين دخلوا الإسلام ثم أرادوا الخروج منه أو "المرتدين".

لكن بعد فتح مكة.. تغيرت الأحكام.

لذلك؛ يرى بعض أهل الفقه أن معظم آيات القرآن التي نزلت في قتال غير المسلمين تتوقف أحكامها عند ظروف تنزيلها؛ ما يعني توقف أحكامها، بعد تغير الظروف التي نزلت تلك الآيات من أجلها.

والحديث الشريف "من بدل دينه فاقتلوه" إن كان صحيحًا؛ فلا يُعتد به على إطلاقه، ولا يمكن تطبيقه على جميع الوقائع المشابهة بوجه عام؛ لأن حكمه مؤقت، لا يجوز فتح وقته.. أو مده.. ما دام قد تبدل ظرفه.[11]

فالحديث مربوط بفترة معينة. فترة ضعف الإسلام، وقتما كان تعاون واحد ارتد ضد الإسلام يؤدي بالضرورة إلى هلاك عشرات المسلمين، وهي قاعدة مشابهة لأسباب

10- لدى الشافعي، وأغلب فقه الإمام مالك.

11- راجع أحكام المرتد واختلاف المذاهب فيها. في محاضرات في الفقه الجنائي الإسلامي. المستشار بهجت عتيبة. فصل الردة وأحكامها.

تغليظ القانون الوضعي لأحكام التجسس والتخابر مع الدول والجهات الأجنبية.[12]

لذلك؛ ربط بعض دارسي الفقه الجدد بين أحاديث "حد الردة" وفترة "الجهاد بالنفس" في عصور الإسلام الأولى.

ثم إن مبدأ الجهاد بالسلاح نفسه زالت أسبابه بزوال قلق دولة الإسلام الوليدة التي كان وقت ضعفها يحيطها الأعداء والمتربصون من كل جانب.[13]

ربما الملاحظة وجيهة في أن معظم آيات الجهاد في القرآن؛ كانت فقط تحضر المسلمين لفتح مكة، وبعد الفتح تغيرت الظروف، وتغيرت الأحكام.. فلم يعد الجهاد فريضة، ولا الفتح واجبًا.[14]

فهم بعض الفقهاء الأوائل هذا، لذلك وضعوا لمفهوم الجهاد بالسلاح مقدمات وشروطًا.. أعلنوا انتهاءها بانتهاء أسبابها.

قالوا إن شروط "الجهاد" وجوبية، يعني أن ضرورة الأمر بخروج المسلمين للجهاد، مرتبط شرعًا بوجود تلك الشروط.. كلها، فإذا لم تتوافر تلك الشروط؛ يصبح الخروج للحرب.. محرمًا، ولا يمكن اعتباره أمرًا دينيًا، أو حكمًا شرعيًا.[15]

من شروط الجهاد أن يتشابه الزمن والأحداث بما يوفر "دارًا للهجرة والنصرة" كالمدينة المنورة، ودارًا للأمن كالحبشة.. أو قاعدة آمنة "كأبي بصير".[16]

ومن شروطه أيضًا؛ أن يكون هناك اعتداء حقيقي من متربصين بالمسلمين، في دارهم.. أو بلدانهم.. وهو المعروف بـ"جهاد الدفع" دفاعًا عن الأنفس والأموال والأطفال.

12- وحتى مع المرتدين. فالأصل الثابت هو تصرف المسلمين معهم وفق القدرة والمصلحة. فقد خرج مسيلمة الكذاب مدعيًا النبوة. ومعاديًا للنبي (ص). ولم يقف النبي له. ولا حضر الجيوش لحربه. ولما أرسل مسيلمة رسوله ابن النواحة للنبي (ص): سكت النبي (ص) عنه. وفي مجموع الفتاوى قال ابن تيمية: إن جهاد المرتدين. مربوط بقدرة المسلمين. وعلوهم.

13- راجع حكم الجهاد بعد فتح مكة. الإسلام السياسي. للمستشار الدكتور محمد سعيد العشماوي.

14- المرجع السابق. وجوب الجهاد ووقته.

15- من شروط جهاد الطلب. إذن الوالدين. وإذن المدين. وتوافر النفقة. والقدرة البدنية والاستطاعة المادية... (مجموع الفتاوى). ويحرم الخروج في جهاد الطلب: إذا كان فيه الضرر أكبر من المصلحة. ويؤثم المسلم. لو خرج فيه. رغم المخاطر على المسلمين.

16- كان منزل أبي بصير هو المكان الآمن الذي ترتاح عنده سرايا المسلمين. أو تجد حال ضعفها مددًا منه. فتلجأ إلي: طلبًا للدعم أو المنعة.

وفي جهاد الدفع؛ لا يبدأ المسلمون بالحرب، فلا يخرجون لمن أراد بهم سوءًا، فيحاربونه.

فجهاد الدفع مختلف عن "جهاد الطلب"، لأن في جهاد الطلب يخرج المسلمون لحرب لا يضيرهم إن لم يخرجوا إليها، أي يخرجون للحرب، رغم أنه لا هددهم أحد، ولا تعرض لهم عدو، وهو ما استقر كثيرًا من أهل الفقه على انتهاء الأمر بهذا النوع من الحرب بعد فتح مكة.

ومن شروط "جهاد الطلب"، توافر النفقة، وتأمين نساء المسلمين وأطفالهم، إضافة إلى أن من شروطه تمييز المسلمين صفوف الأعداء، أي تمييز المحارب الذي يحمل سلاحًا، من الذي لا يحمل سلاح.. حتى لا تنتهك دماء المعصومين.

واستقرت الآراء الشرعية على أن غير المسلم الذي لا يحمل سلاحًا، ولو في أرض المعركة.. لا يجوز قتله أو التحريض ضده.. على اعتبار أنه لم يأت لقتال، وقد يكون قد خرج للحرب مضطرًا.. والأصل إكرامه، وكريم معاملته.

لكن مشايخ إسلام "بول الإبل" التفوا على الأحكام، فوقعوا في محظورات شرعية.

بعضهم هاجم مواطنيهم المتجنسين بجنسيات بلادهم لأنهم أقباط، وبعضهم حرض على قتالهم لأنهم مختلفون في الدين، رغم أن المسلمين العرب هم الذين دخلوا على أقباط مصر فيما سمّوه الفتح، بينما مصر كانت أرضًا قبطية، وكان المسلمون وافدين!

صفوت حجازى، ونوارة هاشم، وزغلول النجار.. وآخرون دعوا لقتل "معصومين".. مع أنه لا أحكام شرعية بهذا، وكانت في كلامهم دعوات مستترة بالسطو والخطف من غير المسلمين لتمويل قتل المسلمين لغير المسلمين، مع أنه لا سند دينيًا بهذا أيضًا.

لخطورة حديث "الجهاد"؛ رأى بعض الفقهاء أنه حتى لو توافرت الظروف للحرب؛ فإنه لا يجوز للمسلمين الدخول فيها سواء ضد المسلمين أو غير المسلمين إلا بموافقة الإمام.

والإمام هو ولي الأمر أو الحاكم.

فقالوا إن من له إمام أو أمير لا يجوز أن يفعل شيئًا من ذلك إلا بإذنه لقوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ...) (النور:62).

وإن صح ما روي؛ فقد قال النبي (ص): (من أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني) "حديث متفق عليه".

وقد جاء في "المغني"[17] أن: "أمر الجهاد موكول إلى الإمام". فقد يرى ولي الأمر تكليف فرد وحده بمهمة لمصلحة، وهذا جائز، وإما أن يكون للرجل أمير وأقر بإمارته: (أو ولي أمر أو رئيس جمهورية في الدول الدستورية)، ثم يقوم للجهاد من دون إذنه ومن دون إعلامه، ومن دون أن يرضى، ومن دون أن يفرض القانون ما يمكن أن يندرج تحت توصيف الأعمال الجهادية، فيترتب على قيام المسلم بالحرب، ما يعود بالتدمير على الإمارة كلها وزوال الدولة على يد من استفزهم من أعداء الإسلام، فهذا الرجل يكون بذلك قد نكث عهده مع أميره وغدر وجلب الدمار على المسلمين، وخالف أحكام الدين المستقرة القاضية بأن "أمر الجهاد موكول إلى الإمام".. فهذه من كبائر الذنوب المهلكات.[18]

سبب تحريم خروج المسلم في الجهاد من دون إذن ولي الأمر؛ هو ألا تعود حروب المسلمين بالضرر عليهم، فالقاعدة أنه "لا ضرر ولا ضرار"، إذ إن المبدأ الفقهي أن "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

لذلك قالوا إنه لا يجوز للمسلم أن يقدم على أمر له فيه منفعة، إذا عاد هذا الأمر بالضرر على غيره من المسلمين.

بعد فتح مكة، ودخول الدولة الإسلامية مرحلة "الاستقرار السياسي".. اعتبر الفقه أن الأصل في دم غير المسلم.. حرام، تمامًا كما أن ماله حرام وعرضه حرام!!

والمرتد مثل المستأمن، مؤمن على نفسه وماله وعرضه، ما دام لم يتعد أذاه نفسه، فلا يجوز قتال المرتد أو قتله، كما لا يعتبر قتال المستأمن..جهادًا.

17- المغنى. لابن قدامة الحنبلي

18- المرجع السابق.

والإمام الشافعي مثلًا؛ رأى أن المستأمن له ما للمسلم وعليه ما عليه بدار الإسلام، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى ما هو أبعد، فغالى في وضع المستأمن، وفضله "مع المرتد" على المسلم، حتى إن بعض الأئمة شدد على ضرورة تأمين المستأمن حتى يخرج من بلاد الإسلام برغبته واختياره، ورأى هؤلاء أن المرتد لا يجوز قتله ما لم يجاهر بردته أو يغوي مسلمًا.[19]

لم تكن فتوى الشيخ صفوت حجازي بجواز قتل اليهودي خالية من الأبعاد؛ إذ إن وجهها الآخر يعني جواز قتال القبطي في دار الإسلام، فالرجل أفتى بجواز قتل أهل الكتاب، على اعتبار أن اختلاف الدين يعلي من المسلم في مواجهة غير المسلم.

فتوى الشيخ صفوت حجازي قلبت الدنيا؛ كانت خطيرة، لكن الذي حدث أنه تراجع عنها، وربما تبرأ منها أمام النيابة، وقال إنه لم يقلها، ولما واجهوه؛ قال إنه لم يقصدها.. مع أنه لو كان فقيهًا؛ لما تراجع، ولو كان خالص النية؛ لما أفتى.. ولا خاف بعدما فعل.

كانت أزمة بأبعاد مثيرة، لكن الذين يعرفون بعض مشايخ الفضائيات عن قرب؛ كانوا يعلمون أن "الكاميرا" و"الأضواء" كان لهما في فتاواهم حظ كبير.

كانت للأضواء على مشايخ الفضائيات سطوة، لذلك؛ تحولت "زهوة الكاميرا" إلى أحد مصادر التشريع لدى فقهاء.. "الريموت كنترول"!

19- راجع "التشريع الجنائي في الإسلام" الدكتور محمد عبد القادر عودة.

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم
سورة الأنبياء

"الفتنة" عماد الدين؟!

(1)

عام 2010، رأى ملك السعودية عبد الله بن عبد العزيز أن "اللجنة" هي الحل.

لذلك أصدر مرسومًا بقصر الفتوى في المملكة على لجنة من هيئة علماء يعين أعضاءها بنفسه.. أو يعينهم مفتي المملكة.

كان القرار جريئًا لا بد منه، لذلك أثار ارتياحًا بين المثقفين المسلمين باعتباره صيانة للدين، ودعمًا لاتجاهٍ إصلاحيٍ كان لا بد أن يتنبه له مشايخ المملكة العربية السعودية منذ فترة.

المهم أنه حدث.. وبالتالي؛ فإن الذين كانوا يخرجون ويحللون، ويخيفون المسلمين بفقه القبر وعذاب القبر، وطول ثعبان القبر، ثم يقولون إنهم مدعومون من أئمة الفتوى بمكة، سوف يحفرون الأرض كي تبلعهم من الكسوف، على أساس أن قرار الملك سوف يرفع الشرعية عن كثير ممن سمّوا أنفسهم بالأئمة.

السعودية وحدها كانت - منذ السبعينيات - قد تحولت إلى فاترينة للكلام الفارغ في الدين.. على يد مشايخ جاءونا من هناك، أو كروا علينا ثم طاروا إلى هناك.

الترحيب العام بقرار الملك عبد الله لدى أوساط المثقفين العرب.. كان أملًا في أن يحد من فتاوى معسكر التشدد الشاذة، وعلى أساس أنها خطوة أولى في الطريق لحفظ بلاد المسلمين من اضطراب فكري.. وأزمة اجتماعية، اعترف مفتي السعودية الشيخ عبد العزيز آل الشيخ بتزايد حدتها الآونة الأخيرة.

لكن عددًا كبيرًا من المشايخ رفضوا القرار بـ"اللجنة"!

لماذا؟

قالوا إن حصر الإفتاء في أشخاص معينين غير واقعي، وغير قابل للتطبيق لأنه لا يجوز لرجل العلم أن يمتنع عن الفتوى، وقالوا أيضًا إن مصلحة المسلمين في علمهم

بالدين، واعتبر الرافضون أن منعهم من الفتوى.. هدم لمصالح المسلمين.

من الرافضين كان الشيخ العبيكان والشيخ عادل الكلباني، صاحبا أشهر الفتاوى إثارة للجدل.. والضحك منذ عام 2005.

وصار سجالًا، دخل فيه بعض العقلاء؛ فقطعوا على الرافضين الطريق، وقالوا إن الخوف على مصالح المسلمين هو الآخر مبدأ مهم. فإذا ما كان لدى الذين منعتهم "اللجنة" من الحديث في الدين أمام الفضائيات علم ينفع المسلمين؛ فبالتأكيد العلم نفسه سوف يكون أيضًا لدى مشايخ "اللجنة".

ثم إن الحلال بيّن والحرام بيّن. وإذا كان لدى الشيخ العبيكان مثلًا رأي ديني صحيح، فالأكيد أن لجنة الفتوى سوف تقضي به، وسوف تجيز العبيكان. أما إذا كانت آراؤه فيها ما يخالف آراء مشايخ اللجنة، فالأولى تقديم رأي اللجنة بإجماعها، على رأي شيخ واحد.

لذلك؛ بهت الذين أفتوا، وجلجلوا، ونافست صورهم المنشورة في الصحف صور نجمات السينما، ومطربي الفيديو كليب، بينما هم لم يقتنعوا.. وأصروا على رفض قرار "اللجنة".

الخبثاء قالوا: ربما "الأضواء" أحب إليهم ممّا تكلموا فيه من مصالح المسلمين، وما يقولون إنه ضرورة نقل العلم.. إضافة إلى الكلام المزوقَ الآخر الذي يروجون به لأنفسهم.

ولو أن مشايخ اللجنة السعودية كان في بعضهم كلام، وعلى بعضهم ملاحظات من الليبراليين، والمعتدلين المسلمين؛ إلا أنها كانت - كما تصور كثيرون - خطوة على بلدان أخرى أن تحذوا حذوها، على الأقل في مصر، بينما في المقابل؛ كان تطبيق قرار حصر الفتوى على مجموعة معينة من العلماء؛ بمثابة إعلان حرب على مشايخ "إسلام بول الإبل".. وعدوانٍ عليهم في "أكل عيشهم".

وتوقع منصور النقيدان - الباحث السعودي في تاريخ حركات الإسلام السياسي الفشل للمحاولة؛ نتيجة ما استحكم من نفوذ للدعاة في المجتمع المسلم.[1]

وتخوف المعتدلون من فشل المحاولة هم الآخرون، فالفشل يعني تحول الفتاوى

1- مقالات متفرقة لمنصور النقيدان في صحف الخليج العربي بداية من نهاية التسعينيات من القرن الماضي.

المشددة إلى قانون تشريعي أو تقليدي، ولفتت الشبكة الليبرالية السعودية الحرة إلى أن القرار يمكن أن سيتسبب في سوق سوداء للفتاوى؛ ما يعني ظهور "مفتين" في الخفاء، ينافسون الدجالين والمشعوذين في السرية.. والتخفي من الشرطة!!

وحدث ما كان متوقعًا. تعاقد الشيخ العبيكان مع الإذاعة السعودية فجأة على برنامج، وقرر الشيخ الركبان هو الآخر تقديم برنامج يومي على الهواء مباشرة رغم قرار الملك.. في أول مواجهة.[2]

اعتمد الشيخان على شعبيتيهما؛ فبدآ بإطلاق أول رصاصة.. إلا أن إذاعة القرآن الكريم هناك أصدرت قرارًا بإيقاف الشيخين عن الفتوى، وقالت إنها توصية من أعلى هيئة دينية في المملكة.

لم يتوقع لا الشيخ العبيكان ولا الركبان ولا الشارع السعودي أن يحدث هذا.. إلا أن الإذاعة السعودية قالت: إن وزير الثقافة والإعلام قال إن الإيقاف سيستمر في جميع وسائل الإعلام والصحافة، مشيرًا إلى أن إجازة ظهور المفتين في الإعلام لا بد أن يجاز من الجهات المعنية بالأمر، فنشر بعض الصحف أخبارًا عن عزم الشيخ العبيكان الهجرة!

الشيخ صفوت حجازي هو الآخر احترق قلبه بعد اقتراح نواب مجلس الشعب المصري التعاون مع مفتي الجمهورية في تقنين سوق الفتوى عام 2009 .

ووافق المفتي، ووعد ببحث إنشاء لجنة على غرار لجنة السعودية، بعدما قال النواب إنه لا يمكن أن تنفتح الفضائيات لكل من هب ودب.. فيقول ويحكي، ويحكم ويفتي.. والناس تسمع وتصدق.. ثم تصيبها الحيرة.

النواب اقترحوا "ترخيص الفتوى". على أن تختص دار الإفتاء بمنح الرخصة للذين يريدون، بعد اختبارهم، على أن تلتزم الفضائيات، ويعاقب الذين يظهرون ويزيدون في الكتاب والسنة والحديث بلا تراخيص.

وخاف مشايخنا كما خاف العبيكان.. أو أشد خوفًا.

2- الخبران نشرتهما صحف خليجية متعددة. بعد قرار ملك السعودية بأشهر قليلة.

فاعترض الشيخ صفوت حجازي، ود. فؤاد شاكر، ود. ملكة دران، والشيخ حسان والشيخ يعقوب.

خشوا فوات "مترو" الفضائيات من دون تذكرة، فاحمرّ وجه كل منهم من الغيظ وهو كظيم.

كان لكاميرا التليفزيون "خضة"، والذي ذاق حلاوة أضواء الاستوديو لا ينساها. والذي لمح بريق شهرة أطباق الدش لا يستطيع الإقلاع عنها.

قال د. فؤاد شاكر إن الإفتاء "موهبة" لا يجوز ترخيصه ممن لا يملكون الموهبة، يقصد باقي علماء الأزهر.[3]

وتعلل د. صفوت حجازي بأن الكثير من "الأزهريين" غير مؤهلين!!

حجازي قال إن الكثير من المشايخ الذين يبعد عنهم الإعلام، وتتناساهم الفضائيات، تضايقهم شهرة زملائهم؛ فيحاولون إسكاتهم بـ"بالقانون".. لذلك ربما يمنعون التراخيص.. أو يسحبونها!!

ولما سألوا حجازي عن "الحل"؟ قال إنه يوافق على "لجنة" من الأزهر لمتابعة الفضائيات.. واستدعاء الدعاة لتصحيح آرائهم!!

إجابة مثيرة.. ولطيفة.. ومهينة أيضًا.

فقد رضي حجازي بالمثول أمام "لجنة أزهريين" وصفهم بالحاقدين في غرفة مغلقة، واقتنع بمحاسبة من وصفهم بـ"غير المؤهلين"، ما دام الأمر بعيد عن منعه من الفضائيات، أو قطع الدابر من شاشات التليفزيون.

طالب حجازي بأن يراقب المشايخ برامجه، واعترض على أن يختبروه، قبل التصريح له بالظهور على الشاشات.

أطرفهم المشايخ لو اختلفوا، وأجرؤهم أصحاب "المصاطب" لو ائتلفوا.

3- تصريحات للدكتور شاكر والدكتور صفوت حجازي نشرتها صحف القاهرة خلال أزمة المطالبات بلجنة لإقرار من يتصدى للفتوى من قبل لجنة أزهرية متخصصة عام 2005 و 2006.

جاء في "الأحكام السلطانية"[4] أنه يشترط في المفتي "أو من يقوم بأعماله في الاتصال بالناس" ما يشترط فيمن يقوم بأعمال "الولاية".. كالعلم والعدالة.

وقياسًا على عدالة المفتي عدالة الداعية؛ أن يكون: "صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، متوقيًا المآثم، بعيدًا عن الريب، مأمونًا في الرضا والغضب".

أما الإمام الشافعي؛ فلا تكلم عن "موهبة المفتي"، ولا حكى عن حقد غير المشاهير من المشايخ على زملائهم. لذلك؛ اشترط في المفتي "أن يجيزه من أجازه غيره على الشروط"، ويرى أنه "لولي الأمر تنظيم الإفتاء في الاختلاف وتضارب المصالح.. على أفضل مصلحة".[5]

ولدى الحنفية "يجوز لولي الأمر تنظيم من يقوم على الإفتاء للضرورة ولصالح المسلمين".

وعندهم "يجوز للوالي" ولي الأمر "ترك دليل اجتهادي في الإفتاء والأخذ بحكمٍ مخالفٍ جرت عليه مقتضيات المصلحة". أي أن لولي الأمر أن يفاضل بين حكمين شرعيين، قال بكل منهما رجل دين مختلف؛ فيختار أفضلهما للمسلمين، وأكثرهما مصلحة للشعب.[6]

ويرروا ذلك بأنه "قد يكون العدول عن حكم إلى حكم آخر مخالف، اقتضاءً للعدالة أو ترك العسر لليسر، أو رفع المشقة ودرء الغم عن المسلمين".

فقهًا؛ كان "العلم والعدالة والمصلحة العامة" هي الشروط الأربعة الواجب توافرها في الذي يريد أن يختلط بالمسلمين بالكلام في العقيدة والمعاملات والعبادات.

ويرى أهل الفقه المعتدل صفات خاصة في المفتي، يحكم عليها ويقيمها ولي الأمر، ويرون أيضًا أن لولي الأمر أن يضيف إلى هذه الصفات أو يجود فيها، فيعين من يراه صالحًا للفتوى، أو يعزله أو يبدله.. طبقًا لقوانين لا تخالف الشرع.

وعليه؛ يجوز ـ مثلًا ـ لمجلس الشعب، كما يجوز لمن أوكله الناس للتشريع نيابة عنهم..

4- كتاب الأحكام السلطانية. للإمام الماوردي.

5- راجع الأم. والرسالة للأمام الشافعي.

6- المرجعين السابقين ومصادر متعددة.

منع الإفتاء "من دون ترخيص"، على الأقل اقتداءً بأشرف زكي نقيب السينمائيين الذي منع "المشخصاتية" عام 2008 من "التمثيل" من دون تصريح.

فالجائز التشريع بكل ما يرتب الأمور ويمنع الفوضى، ولا يحكَم المشايخ في عقول "العامة والبسطاء".. لولا أن في قلوب بعضهم مرضًا.. على كل ضامر يأتين من كل فج عميق!

بعض "المشايخ" فيما يبدو يريدونها عوجًا.

ربما لذلك؛ لعبوا على الأزمة، أو لعبوا بالأزمة. وربما لعبت بهم الأزمة، فلعبوا بالمسلمين، ولعب بعضهم بالدين؛ فصدروا "صغائر العبادات" على أنها عماد الدين، ثم زينوا لنا أن "الفتافيت".. من "الكبائر"!

لكن لا صغائر العبادات من صميم الدين، ولا لقراءة البخاري في الأزمات أثر من آثار التابعين، تمامًا كما أن ما أسهبوا فيه من كلام عن "الجماع الشرعي" ونوافله، وأحكامه. ليس ديناً.

لكن.. تقول لمين؟ وتقول يا مين؟ بعدما أوقعونا في "سنن آداب المعاشرة"، والمستحب في دخول "دورات المياه"؛ فبدونا كالذي يتخبطه الشيطان من المس، لا صح ديننا، ولا انصلحت دنيانا.

بعضهم كالأنعام، أما نحن فمعظمنا ضل، بعدما ألّهنا جميع المشايخ، ووضعنا فوق رءوسهم هالات من الضوء.. رغم أن كثيرًا منهم ضحك علينا.

مثلًا عمرو خالد.. كم عامًا مرّ على زيارته للدنمارك، بعد أزمة الرسوم المسيئة؟ كم سنة فاتت على حملة عمرو خالد الكبرى لتعريف أوروبا بالإسلام، وهي الحملة التي صاحبها إعلان أكبَر من إعلانات انتصارنا في أكتوبر 1973؟

ما هي النتائج؟ ما الذي قدمه عمرو بعد سنوات من زلزال مبادرته للدنمارك، التي ارتفعت معها شعبيته لتوازي شعبية هرم خوفو؟

الإجابة: بعد مرور سنوات من الحملة: لاشيء.

فلا ارتدى الدنماركيون الجلابيب البيضاء، ولا ارتفعت في العاصمة كوبنهاجن أعلام الطريقة العزمية الخضراء.

لم يغير الدنماركيون أسماءهم من "تاجالي" و"ساندو" لـ"فاطمة" أو "حسين".

لا اعتذر الدنماركيون، ولا اعتذرت الحكومة هناك. يعني لا نهاهم عمرو خالد عن فاحشة الاستهزاء بالمسلمين، ولا أخذ حقنا.. رغم وعوده.. أنه سيفعل.

بالعكس رسم الدنماركيون رسومًا أخرى، وهاجم الهولنديون المسلمين، ونادوا بهدم مساجدهم.. ومنع الفرنسيون الحجاب في الشوارع والأماكن العامة.[7]

مبادرة عمرو خالد الأثيرة لشرح الإسلام للأوروبيين من كوبنهاجن بعد أزمة الرسوم المسيئة كانت أكذوبة كبرى، لكن منا من آمن.. وصدق.

ففي عام 2008؛ وبعد 3 سنوات تقريبًا من مبادرة عمرو للسفر مع "خيرة شباب المسلمين" ـ على حد قوله؛ سب النائب الهولندي فلدرز المسلمين، وقال إنه سيتقدم بمشروع لبرلمان بلاده للحد من حريتهم في شوارع هولندا.

فلدرز وصف المسلمين على تليفزيون بلاده بالحيوانات، ثم رفض الاعتذار لمّا هاج شباب المسلمين وعلقوا ملصقات على زجاج سياراتهم مكتوبًا عليها "فداك يا رسول الله".

النائب قال إن في هولندا يمكن للمواطن أن يقول ما يشاء، وتكلم مع إحدى قنوات التليفزيون وقال إنه مع حرية الاعتقاد.. ولما سألوه عن سبب هجومه على الإسلام؛ قال إنه لا يعرف عنه الكثير.. لكن سلوك المسلمين في المجتمعات الأوروبية في السنوات العشر الأخيرة هو الذي استفزه.

وقتها تساءل الشارع المصري: ألم يعد عمرو خالد بتعريف الغرب بالإسلام من الدنمارك؟ ألم يقل إن زيارته التطوعية على حساب جمعيته الخيرية سوف تصلح ما أفسده الدهر.. والدنماركيون في أوروبا؟

7- جرت هذه الأحداث في الدنمارك وفي فرنسا في الفترة ما بين 2005 و2010. وانتهت بقرار منع الحجاب في شوارع فرنسا في العام 2010.

حتى اعتذار حكومة هولندا عن تصريحات فيلدرز؛ لم يكن لعمرو أو غيره يد فيها، فالذي دعا الهولنديين للاعتذار هو خوف المحافظين هناك من "تهديدات" بعض الجماعات المتطرفة بتنفيذ أعمال عنف في شوارع أوروبا.

اعتذرت هولندا خوفًا من الإرهاب.. لا فهمًا للدين.

فأوروبا تخاف تطرف المسلمين، لكنها لا تفهم الذين مثل عمرو خالد، ولا تفهم ما قال لنا عمرو خالد إنه قاله في الدنمارك، من أنه قارع الحجة بالحجة، فأخجلت محاضراته المستفيضة الدنماركيين - كما قال، وكانت النتيجة - كما قال أيضًا - أن انتقلت أصداء محاضراته من الدنمارك إلى البلدان المجاورة؛ فغيرت وجهات نظرهم عن الإسلام! (روج شباب عمرو خالد على الإنترنت هذا الكلام بعد عودتهم من كوبنهاجن).

وفي عام 2007؛ كان مثيرًا أن يشيع فريق الشباب الذين سافروا مع عمرو خالد قصة مصرع الرسام الدنماركي صاحب الرسوم المسيئة في حادثٍ بشع بعد رفضه التوبة عن سب الإسلام.

قالوا مات محروقًا، مع أن الرجل ظل على قيد الحياة حتى عام 2010.

كان الغرض حفظ ماء الوجه، أو ربما كانت رغبة في إيهامنا بالسطوة الروحية لعمرو خالد. وربما - مرة ثالثة - كان أملًا من بعضهم في أنه يجب أن يكون هناك فعل ما قد حدث للرسام الدنماركي، بعدما خاب عمرو وفريقه في أن يفعلوا شيئًا.. فضحكوا علينا.

ذهب عمرو خالد وفريقه من الشباب، وعادوا.. فلا علمنا ماذا فعلوا، ولا ماذا قالوا للدنماركيين، ولا قال لنا أحد ماذا فعل النماركيون معهم.

ما أدراك ما الدنمارك؟

كوبنهاجن عاصمة نظيفة، والأنظف وفاضًا مجموعة من خيرة الشباب "اصطفاهم" عمرو خالد لتمثيل المسلمين في بلد "القطارات المعلقة".

مؤسسة عمرو قالت إنها دعمت الزيارة بآلاف الجنيهات، و"البوكت ماني" الذي حصل عليه فريق الشباب المسافر في "البعثة" قيل إنه يعادل أجر سبع سنوات لأكبر

أعضاء مجمع البحوث الإسلامية سنًا!

عضو مجمع البحوث لا يتحصل سوى على 20 جنيهًا في الاجتماع الواحد، ثم إن أعضاء مجمع البحوث لا زاروا الدنمارك، ولا ركبوا القطار الطائر.

ولما سبّ النائب "فيلدرز" دين المسلمين؛ التزم عمرو خالد الصمت، فالأكيد أنه لم يتصور أنه من الممكن أن تنطلي علينا خدعة جديدة، أو"حركة" أخرى.

في الدنمارك مثل يقول "رصاصة واحدة تكفي"، لكن الإنجليز يقولون "إن رصاصة وحيدة قد تقتل".

منهج عمرو خالد ومؤسسته الخيرية قتلتهما أكثر من رصاصة.. في العشر سنوات الأخيرة، ربما لذلك أطلق بارود الدعاية مرة واحدة من الدنمارك، ولمّا فشل؛ قال إن للإسلام ربًا يحميه ممن تطاول عليه من نواب هولندا.

في السفر سبع فوائد.

والذي يبدو أن الشباب الذين اصطفاهم عمرو للسفر إلى الدنمارك.. كانوا عكسه، أكثرهم سافروا بإيمان أكيد، ثم عادوا ـ مثله ـ كما ذهبوا، لا اعتذر أحد، ولا استطاعوا مقابلة الرسام الذي عقدوا النية على دعوته للإسلام ـ كما زين لهم عمرو خالد.

حتى شائعة موته "محروقًا" التي روجوها بعدما عادوا؛ لم تحقق المراد من رب العباد، لدى الرأي العام في الشارع الإسلامي.

مكسب زيارة الدنمارك الوحيد بالنسبة لشباب "عمرو خالد" الذين سافروا معه ـ فيما يبدو ـ كان "بوكت ماني" أو "مصروف جيب" الذي تكفلت به مؤسسة عمرو.. الخيرية، حلال عليهم "البوكت ماني".. وحرام علينا الكلام عن الشيخ عمرو الذي انكشف أيضًا في واقعة أخرى!!

عام 2006؛ أصدر اتحاد طلاب الجامعة الأميركية في الكويت ـ بيانًا استغربوا فيه "تكبره" الملاحظ بعدما دعوه لندوة عن "الطريق لمسلم ناجح".[8]

8- الخبر تناقلته صحف الخليج نقلًا عن صحف الكويت.

اكتشف الطلبة هناك أن عمرو خالد يود أن يظهر نفسه على خلاف حقيقته، واكتشفوا أيضًا أن بعضنا ليس دائمًا كما يحب أن يبدو.

فعمرو الذي استطاع في غفلة أن يصنع من نفسه لدى البعض "نموذجًا" إسلاميًا عصريًا؛ تأفف من تواضع القاعة التي خصصت لمحاضرته في الكويت.. فانسحب!!

عمرو أساءه - على حد قوله - غياب رئيس الجامعة عن استقباله، مع أن الطلاب قالوا إنهم أكدوا له أن اللقاء نظمه اتحاد الطلبة، ولا دخل لإدارة الجامعة به.

انسحاب عمرو أدهش الكويتيين، بينما أدهشهم أيضًا رفضه الاعتذار، بعدما قلبت الواقعة الدنيا هناك.

أما الذي اعتذر؛ فهو اتحاد طلبة الجامعة الأمريكية في الكويت، وناشدوا زملاءهم أن يسامحوا الاتحاد على الصدمة التي سببها لهم "الداعية الفيلسوف" الذي كسّر الدنيا من المحيط الهادي.. للمحيط الهادي.

طلاب الجامعة في الكويت قالوا: إن الذي يتابعونه على التليفزيون "ببدلة أنيقة" و"لثغة" لسان طفولية؛ مختلف عن "عمرو خالد" عن قرب.

وعمرو الداعية الإسلامي.. غير عمرو الشاب الذي يفضل أن يُستقبل على طريقة نجوم هوليوود الأمريكية.

فكما ليس جميع ممثلات الإغراء يمارسن "الدلال" الأنثوي بعيدًا عن الكاميرات وخارج البلاتوهات، كان الكثير من الدعاة "القطاع الخاص" بعيدين عن نصف ما ينادون به من مبادئ على الشاشات!!

من تواضع لله رفعه، لكن عمرو يكفيه ملايين الشباب الذين رفعوه فوق أعناقنا؛ بحجة أنهم كانوا في حاجة لنموذج ديني "حديث" أو "أوريجينال"، وعمر قدمه.. أو بدا أنه يقدمه. لذلك وقعوا في شِراكه، كما وقع الطلاب الكويتيون أيضًا، فهم الذين دعوه، وهم الذين اكتشفوه.. بينما ظل غيرهم لم يكتشف بعد.

كانت واقعة الكويت مثيرة، تمامًا كما كانت رحلة الدنمارك.

الأكثر إثارة؛ هو ما تناقلته الصحف القاهرية عام 2007.

فعمرو خالد الذي حرّض الشباب العربي على الولايات المتحدة؛ كان هو عمرو نفسه الذي نقلت الصحف تقارير عن محاولته فتح قنوات اتصال مع جهات رسمية بالولايات المتحدة.

وهو الذي طلب زيارة واشنطن في العام نفسه، فزكت بعض الهيئات الأكاديمية في أمريكا طلبه بوصفه أحد "أهم الدعاة المسلمين المجددين" أو "المتمدينين".

فقد رأوا هناك؛ أن الإسلام همجي، جدده الشيخ عمرو، ونظفه، لذلك رفض أن يقدم "نيولوك الدين" في قاعة مفتوحة بالجامعة الأمريكية في الكويت؛ لأن رئيس الجامعة "الأمريكي" لم يكن في شرف استقباله!

القصد؛ حتى الآن لا يوجد نموذج "داعية عصري". بدءًا بعمرو خالد مرورًا بخالد الجندي وانتهاء بالشيخ عبد الظاهر سيد. فالدعوة على طريقة هؤلاء والذين جاءوا من بعدهم؛ أصبحت مرادفًا لـ"أضواء الكاميرات".. والكاميرات في الفضائيات.. والفضائيات "بيزنس".

فهؤلاء "بزنسوا" الدين، وظهر أن أكثرهم حبًا للدين؛ هم أكثرهم حبًا في البيزنس.. مع الذين اتبعوهم بإحسان.

منذ بداية التسعينيات؛ تحول "الدعاة" إلى مجتمع تنافسي ينمق في غلاف البضاعة أكثر من البضاعة نفسها.

كان لدى الملياردير اليوناني الأصل "أوناسيس" نظرية تقول: "دعاية بدولار إن كنت تملك دولارين، وبخمسة إذا كانت بضاعتك لا تساوى إلا ستة دولارات".

تعامل أوناسيس ـ بداية حياته ـ بمنطق "الكليفتي"، والكليفتي لفظ يوناني يعني "الحلنجي"، وكان الملياردير أوناسيس "حلنجي"، وكانت نظريته سر نجاحاته.. وسر ملياراته أيضًا.

نظرية "أوناسيس": كان مفهومًا ان تكون صحيحة في عالم المؤسسات عابرة القارات، لكن ما لم يكن مهضومًا؛ أن تجد النظرية نفسها مكانًا في عالم دعاة الفضائيات.

أذكر أن الأستاذ محمود سعد منع نشر إحدى مقالاتي في مجلة "الكواكب" عندما كان

رئيسًا لتحريرها، ولما سألته عن السبب؛ قال وببساطة "ما تجيبش سيرة عمرو خالد.. لو جبت سيرته مش هبيع".

كانت مؤسسة "الدعاة" قد اخترقت الأجواء.. ففي المرض "الاجتماعي" استثمرت فئة ما الظروف.. ولامسوا احتياج الناس بطريقتهم.

المجتمعات ـ في بداية الأزمات عادة ـ لا يملكون من أمرهم شيئًا، لذلك لم يعد هناك فرق لدى المجتمع المسلم بين تصدير عيش الغراب.. وتصدير الدين.

وفي دردشة غير سابقة التجهيز؛ قالت د. آمنة نصير ـ أستاذ العقيدة الإسلامية ـ إن كلام د. أحمد المجدوب صحيح.

ماذا قال لي الدكتور المجدوب ـ رحمه الله ـ فنقلته للدكتورة آمنة؟

قال؛ إنه بعد اختصار الإسلام في أحكام "دم الحيض" وأحوال "المستحاضة"، لم يبق لإسلام المعاملات مكان.. فضاعت الحقوق، وجرنا على بعضنا؛ حتى الكهنوت الذي فرضه المشايخ على الدين ـ مع أنه لا كهنوت في الإسلام ـ لم يفدنا؛ فظللنا متمسكين بسير المشايخ، في الوقت التي بدأت تتهاوى فيه مفاهيم الكهانة في الديانات الأخرى.. حتى قاربت دولتها أن تسقط.

فقد فشل الكهنة في حفظ الدين.

أزمة رسوم الدنمارك المسيئة للرسول (ص) عام 2006 مثلًا، كانت انعكاسًا لصورة إسلام جديد، رسمها عمر عبد الرحمن وعمر عبد الكافي والنائب الإخواني علي لبن!

لم تكن هجمة دولية على الإسلام.. كما أصر البعض على أن يظهرها أو يعتقد في أنها كذلك.

أزمة رسوم كانت الدنمارك رد فعل.. وباكورة عبث "منظمات إسلام البيزنس" ومشايخ "اللي تغلب به العب به".

فقد أبهر المشايخ الشارع بالحديث عن "الجهاد ضد أعداء الدين"؛ فارتفعت أرصدتهم.. وزادت شهرتهم، مع أن الواقع كان ـ وظل كما كان هو ـ هو لم يتغير.. ولم تتغير الصورة.. إنما التي تغيرت.. التفاصيل.

بعضهم يرى أن الشارع المسلم وقع ضحية تعاطي بعضنا مع الدين.. وفق أهوائهم.. وكان كلامًا صحيحًا إلى حد كبير.

ففي الانتخابات البرلمانية المصرية عام 2005؛ فاز 88 نائبًا إخوانيًا، وبعد ذلك؛ اكتشف البسطاء أن الإخوان ليسوا ملائكة، لكنهم قدموا أنفسهم على أنهم حزب الله.

بن لادن والظواهري وشكري مصطفى ورفاعي طه،[9] كانوا قريبين في فترة ما قرب جماعة الإخوان من الشارع المصري، لماذا؟

لأنهم استطاعوا أن يكسبوا تأييد الشارع المسلم بأفكار التقرب إلى الله، والجهاد في سبيل الله، مع أن أحدًا لم يدرك إلا قليلون أن هؤلاء لو نجحوا لتحولوا.. من قتال الطاغوت إلى أن يكونوا الطاغوت نفسه.

خوف العالم من تطرف المسلمين؛ هو الذي جعل البابا بنديكت ـ بابا الفاتيكان ـ يكسب تعاطف ملايين الأوروبيين بكلامه "الجاف" عن أتباع محمد الذين يصلون بالسيوف، ويتوضئون وقنابل المولوتوف تحت أرجلهم، وفي طيات جلابيبهم ـ على حد قوله ـ[10]

ففي الوقت الذي يصلي فيه البابا للسلام أمام ملايين المؤمنين أسبوعيًا في ساحة القديس بطرس بالفاتيكان، تكون فرق إعدام "مجاهدي المسلمين" في عز ممارستها ذبح أكثر من ضحية، أكثر من مرة يوميًا أمام المليارات على شاشات التليفزيون، وفي الخلفية أصوات ترتل آيات الله المحكمات.. وأخر متشابهات.

لم تنخفض أسهم البابا بنديكت في أوروبا، بعد خطابه الهجومي على المسلمين، الذين قالوا وقتها إن البابا متطرف، بينما الحقيقة أن الرجل لم يكن كذلك، فقد كان رد فعل.. ومرآة للذي يحدث في أوروبا.. والمسلمون السبب!

9- شكري مصطفى قيادي جماعة التكفير والهجرة التي ظهرت في السبعينيات. ورفاعي طه قيادي بالجماعة الإسلامية. وينسب إليه التخطيط لقتل السياح فيما عرف فيما بعد بحادثة الدير البحري بالأقصر عام 1997.

10- حسب ما جاء في خطبة أثارت الكثير من ردود الأفعال الغاضبة في الشارع الإسلامي عام 2009. إلى الحد الذي أعلن فيه الجامع الأزهر وقف جلسات الحوار بين الأديان احتجاجًا على ما جاء في تصريحات البابا. وما جاء في خطبته.

بسم الله الرحمن الرحيم

"إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)"

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة النور

لا النقاب.. ولا الحجاب أيضًا!

(1)

يحسب للإمام الأكبر الراحل د. سيد طنطاوي أنه أول من دخل معركة النقاب من المشايخ "بشجاعة". فالرجل قال على الملأ إنه لن يسمح بأن يرى "المتنقبات" داخل الأزهر.

رحم الله الإمام الأكبر، فهو لم يستطع أن يملك أعصابه عام 2009، لذلك نزع عن طالبة إعدادي أزهري نقابها، وكشف شعرها.. وعنفها.

خاف الشيخ الجليل على الإسلام، وقال للتلميذة إن الإسلام لا يعرف "الخيام" التي غطت بها المسلمات أنفسهن، وتفنن في التعبد إلى الله بها.

رأى الشيخ الراحل أن "النقاب" ليس مجرد زي؛ إنما هو عقيدة جديدة، عندما تتمكن من فتاة إعدادي في الثانية عشرة من عمرها، فالمعنى أن الأفكار الغريبة بدأت تضـرب الدين من قاعدته.

وقتها علقوا للرجل المشانق.

صادروا على رأيه وهو أهل اختصاص، بدعوى حرية الرأي والزي والمعتقد. وأصاب الراحل لغط كلام كثير من كلام "الناشطين الحقوقيين"، مع أن تصرف د. سيد طنطاوي مع طالبة الإعدادية "المتنقبة" كان مبررًا.

تعامل الشيخ طنطاوي مع فتاة الإعدادي كواحدة من "حفيداته". لو رأى أمها، أو عرف أباها لعض على أصابعهم كما يفعل الأجداد في الصعيد.

لم يستطع الرجل أن يتسامح، تمامًا كما دعا الكثيرون ألا يتسامح خليفته د. أحمد الطيب.

قالوا "اللهم لا تجعل د. أحمد الطيب طيبًا"، وتضرعوا لله ألا يلين قلبه في الحرب على ما سموه "الإسلام الجديد"، فقد طال بالمذهب السني زمن "الطيبة"، حتى لعب بهم الذين

ظلموا، وغيروا الدين.

البعض يرى حتى الآن أن "الشدة"، وعدم التسامح المذهبي هو سلاح الأزهر الوحيد لمكافحة "فتن الدين".

فالفتنة في العقيدة حديد.. ولا يفل الحديد إلا الحديد.

منذ بداية ثمانينيات القرن الواحد والعشرين، بدأ المسلمون يتداولون ما يمكن أن نطلق عليه "إسلام الإسدال"، بعدما تم اختزال جميع طرق الصلاح في التقرب إلى الله بـ"الشادور الإيراني".[1]

من أيامها، للآن؛ لم يعد الحجاب زيًا دينيًا، بقدر تحوله إلى ضغط اجتماعي. فالإفراط في لبس العباية، وثقافة استبدال الملابس بـ"الإسدال" لم يعد تصنيفها ضمن مسائل الموضة واختلاف الأذواق بين النساء.

الإسدال وثقافة العباية كانتا فكرًا جديدًا، أو "تسونامي" جاء من بعيد؛ ليضرب القرى والمدن، ودخل على الأوقاف والأزهر.. بعدما اجتاح عواصم المسلمين السنة.

مع ذلك، لا يزال بعض المشايخ يستمرئون الحديث عن التسامح و"التقريب" بين المذاهب الإسلامية.

التسامح المذهبي كان غلطة أزهرية، ظهر بعدها الإسدال والنقاب، قبل أن تركب على الإسلام أفكار "خرافية أخرى"، جاءت من فارس على سجاجيد كما يعتقد المتصوفة عن السيد البدوي أنه جاء عليها في الطريق من المغرب إلى مصر.

النقاب عادة وليس عبادة، والمعركة التي قامت بين مؤيد وبين معارض للنقاب بوصفه فرضًا دينيًا من عدمه، هي السبب فيما فعله شيخ الأزهر مع طالبة الإعدادي.

الإمام الراحل سيد طنطاوي قال إنه عادة، ومن العادات ما كمن فيها الشيطان.

1- "الشادور" هو زى اسود. يشبه الإسدال. أو هو الأصل في "الإسدال" الذي انتشر في الشارع المصري منذ منتصف التسعينيات من القرن الماضي. والإسدال. وهو زي إيراني. انتقل من الأراضي الإيرانية إلى دول الخليج عن طريق مواطني تلك الدول من الشيعة. ونقله المصريون العاملون بدول الخليج بدورهم إلى الشارع المصري. فانتشر بغزارة بعد الغزو العراقي للكويت. عن طريق المصريين العائدين من الخليج.

وضمن المعركة؛ أصدر وزير الأوقاف وقتها قرارًا بحظر "لثام الحريم" في ديوان الوزارة، كما حظره على المرشدات الدينيات التابعات للوزارة، وكان قرارًا يوم إذ أقرب للإيمان عامة.[2]

منع "الملثمات" من الانخراط في سلك الإرشاد الديني لم يكن مواءمة سياسية كما رأى بعض "المشايخ".

لكن "تقول إيه؟"، ثقافة "النقاب" فتحت باب ما تلبس بالدين وهو ليس منه.

فـ"النقاب" ليس أصلًا شرعيًا، مع أن كثيرًا من السلفيين يخالفون الأزهر والأوقاف، ويقولون إنه فرض.

والحجاب أيضًا.. لا يزال البعض يرى في وجوبه جدلًا لم يحسم بعد.

وبصرف النظر عن الحكم الشرعي؛ فقد تحول الحجاب في الشارع إلى ظاهرة اجتماعية، في الوقت الذي بدا فيه النقاب رد فعل لثقافة 40 عامًا من غربة المصريين في دول الخليج.

البعض يرى عدم جدوى فتح ملف "النقاب" في الشارع الآن، وسط مشكلات من نوع آخر تواجهها الدعوة. لكن آخرين يرون أن فتح "الملف كاملا" بما فيه من كلام عن جميع أشكال "التدين الشكلي" واجب في ظل أزمة تبدأ في مجتمعاتنا من الدين.. وتنتهي عنده أيضًا.

من جهتهم لا يؤمن المشايخ بهذا. ففتح ملف "الطقوس الدينية" عند أكثرهم من المحرمات، لا مناقشة، ولا جدال.. ولا سبيل للوصول إلى محددات أزمة تتفاقم في الشارع.

لذلك؛ لما بدأ وزير الأوقاف حمدي زقزوق حملته على النقاب عام 2009، قلبوا عليه "الترابيزة"، وذكروه بمشروع الأذان الموحد الذي اقترحه قبل سنوات، ولم يستطع إتمامه.

قالوا إن "الأذان الموحد" أولى بالبحث من الحجاب والنقاب، وتكلموا عن هروب دعاة الأوقاف من مساجد القاهرة الكبرى إلى مساجد القرى السياحية صيفًا، وامتناعهم عن

2- صدر كتاب من الأوقاف ذلك الوقت بعنوان "النقاب عادة وليس عبادة".

خطب مساجد الأوقاف شتاء لقلة الأجر.

رد السلفيون على حملة وزير الأوقاف ضد النقاب بقولهم "جاء في الهايفة وتصدر"، فهناك قضايا أخرى أولى بالاهتمام، بينما وقف المجتمع على الحياد.

والنتيجة أن الدكتور زقزوق لم يستطع أن يحارب فكر "النقاب" وحده.

فاستمر النقاب في المدارس، والجامعات، وانتشر في وزارة الأوقاف التي حاول وزيرها منعه.

الواقع: كانت ثقافة "النقاب" اخطر من هروب دعاة الأوقاف لأكل العيش، والاسترزاق من آيات الذكر الحكيم. فقد تحول "لثام الحريم" إلى فريضة يدعمها "كارنيه الأوقاف" أو عضوية الأزهر، بعدما ارتدته المرشدات التابعات للأوقاف، ونزلن به إلى القرى والنجوع، وفوق رءوسهن هالة من أنوار القديسين لدى البسطاء، في حين لم يلتفت أحد إلى 50 ألف كتاب طبعته الأوقاف لتأكيد أن النقاب غلو في الدين.. ولغو في الإيمان.

"النقاب" ليس حرية شخصية.. تمامًا كما أن "البيكيني" ليس كذلك.

50 مرشدة دينية تم تعيينهن عام 2008، تنقبت 4 منهن، وفي مقابلة معهن: طرد وزير الأوقاف إحداهن لأنها جادلته في النقاب وقالت إنه أمر الله؛ فرد عليها الوزير أنه ليس كذلك.. فادعت علمها، وجهله!!

وفي عام 2007: عندما قالت د. سعاد صالح إن "النقاب عادة"، لا هو فرض ولا هو منصوص عليه؛ فتح الشيخ يوسف البدري باب الجهاد ضدها.. في سبيل الله.. وفي سبيل تغطية وجه النساء!

مع أن د. سعاد كان معها حق.

فالمصادر الإسلامية المعتدلة لا ترى في النقاب غير أنه عادة وليس عبادة، وبعضها يسحب هذا الرأي على الحجاب أيضًا.

وقد أفتى د. على جمعة، مفتي الجمهورية وقتها - عام 2007 - بأن النقاب ليس عبادة، وليس معلومًا من الدين بالضرورة.

هاجم المفتي النقاب، كما فعلت د. سعاد صالح، وهما أهل اختصاص، لكن الشيخ البدري "مسك" في د. سعاد وحدها.

لماذا د. سعاد وحدها؟

لأن د. سعاد زبون دائم على شاشات التلفزيون، إضافة لحضورها الواسع، وجمهورها المنتشر مع مريدين كثيرين.

لكن د. علي جمعة لم يكن - بحكم منصبه مفتيًا للجمهورية - ضيفًا مستديمًا على الفضائيات الدوارة، ولا هو لمكانته مجرد "رقم تليفون" في أجندة معدي التلفزيون.

ثم إن المفتي - لمكانته أيضًا - لم يكن في إمكان الشيخ البدري أن ينافسه أو ينازعه الكلام في الفتوى، فلو افتعل الشيخ البدري معركة ما مع د. علي جمعة؛ فالتفوق الأكيد لصالح المفتي.. ويخسر الشيخ البدري بالثلاثة.

بمعنى آخر - كما قال العض - كان دخول الشيخ البدري في "تلاسن" مع المفتي أوسع من عباءة الشيخ البدري، لكن المعركة مع د. سعاد صالح مختلفة.

وما حدث عام 2007: أن نشرت الصحافة أن الشيخ يوسف أنذر مذيعًا بإحدى الفضائيات على يد محضر، وأمهله 15 يومًا لاستضافة مخالفين ببرنامجه لفتوى الدكتورة سعاد فيما يتعلق بالنقاب، والواضح أن المخالفين كانوا هو![3]

ربما شعر الشيخ البدري بالجحود، وأظن شعوره لا يزال قائمًا حتى الآن. متعهدو إعداد برامج الدين على الفضائيات خانوه، واستضافة وائل الإبراشي لفضيلته من آن لآخر لم تعد تشبعه.. ولا ترضي غرور.. ولا تكفيه.

لا يبتغي الشيخ البدري مرضاة الله، ومعاركه - والعهدة على الراوي - ليست هي الأخرى لوجهه تعالى.

دعم الشارع وقتها هو الذي دفع وزير الأوقاف للتراجع عن حملته ضد المتنقبات عام 2009؛ فخسر تيار الاعتدال، وكسبت ثقافة "الإسدال" و"النقاب" التي استوردها بعضنا

3- أفتت الدكتورة سعاد صالح وقتها بأن النقاب ليس من عبادات الإسلام.

من الخليج.. ثم لم نستطع السيطرة عليها بعدما توحشت.. وتوغلت باسم الدين!

فلما شنت د. آمنة نصير أستاذ العقيدة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية - جامعة الأزهر، وإحدى المحسوبات على تيار الاعتدال الإسلامي حملة شديدة على تخاذل أجهزة الدولة في مقاومة النقاب، كان أن وصفها البعض بالجنون، وأشاع آخرون أن السيدة الفاضلة أخذت أموالا من الأمريكان؛ لاستثمار شعبيتها في مقاومة فرض إسلامي!!

قالت د. آمنة نصير إن النقاب عادة يهودية، وقالت أيضًا إنه أحيانا ما تثير المتنقبة فتنة الرجال، مؤكدة أن هناك من تتنقب فتفتن، وهناك من لا تتنقب وتستطيع تغطية مواطن فتنتها.

فالعبرة بالحشمة، لا بالملابس.

النقاب عادة يهودية فعلًا، فقد اعتبرت بعض آيات سفر التكوين أن خروج المرأة من بيتها من دون غطاء.. فجور.[4]

وأخرج الحاخامات في عصور اليهودية الأولى أكثر من قاعدة بعدم جواز إرسال المؤمن شعره من دون غطاء في الشوارع بين الناس، حتى تغيرت هذه القاعدة واقتصرت على الرجال والنساء في الهيكل، ووقت الصلاة.[5]

"غطاء الشعر" كان اجتهادًا يهوديًا، أو عرف اجتماعي ورثه اليهود من الحضارات القديمة، قبل أن يحولوه إلى طقس ديني وينقلوه إلى الجزيرة العربية.

وفي التاريخ القديم؛ ارتبط شعر الرأس بالشخصية البشرية، وبكبريائها.

ففي العهد القديم كان لغز قوة "شمشون الجبار" في شعر رأسه، وهو ما اكتشفه أعداؤه عن طريق دليلة التي استطاعت القضاء على كبرياء شمشون، ومصدر قوته.. بقص شعره.[6]

وفي الحضارة البوذية؛ كان بوذا المعلم أصلع الرأس بلا شعر، علامة على التواضع

4- راجع سفر إشعياء. وتعاليم العهد القديم فيما يتعلق بغطاء رأس اليهوديات.

5- آيات ضوابط الدخول للهيكل في أسفار العهد القديم. وأسفار التوراة.

6- راجع تفاصيل قصة شمشون في أسفار العهد القديم.

والخضوع الكامل للآلهة، وهو ما استقر عليه الرهبان البوذيون من وقتها حتى الآن، فهم يحلقون شعر رءوسهم كاملاً، ولا يدخل الجدد منهم في صيام بشعر رأس من دون حلاقة.[7]

والسيخ الهنود يقدسون الشعر، فلا يعمل المؤمن فيه مقصًا طوال حياته احترامًا للآلة؛ لكنهم في الوقت نفسه لا يكشفون شعور رءوسهم إلا في البيوت.. احترامًا للآلهة أيضًا.

كانت ثمة علاقة ما بين "شعر الرأس" وخضوع العبد إلى ربه في حضارات الشرق القديمة. ونقل اليهود هذه الفكرة للعرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وعرفتها الحضارة الفرعونية؛ حتى انتقل المفهوم نفسه للفلاح المصري في العصر الحديث، حتى إن أبناء القرية المصرية ما زالوا يعتبرون حتى الآن أن الخروج من البيت "مكشوف الرأس" بلا "طاقية" عيبًا اجتماعيًا.

في فارس القديمةأيضاً، غطى كهنة النار المجوس شعورهم أيضًا في الهيكل المقدس، ولم يحلقوا شعورهم هم الآخرون طوال حياتهم، والرسومات الفارسية القديمة لم تظهر كاهنًا واحدًا مكشوف الشعر.

ويرى البعض الحجاب هو الآخر عادة، فالآيات الواردة بخصوصه في القرآن خاصة بالنبي وبناته وأمهات المؤمنين، لا تنسحب على بقية المسلمين وهو رأي له وجهاته.. لا يضير إن تمت مناقشته.[8]

أما الملاحظة المهمة؛ فهي هجوم المثقفين على الحجاب في المقابل، رغم أن بقضايا الدين ما هو أهم للتبصير به. الاجتماعيين فسروا هذا الهجوم بأنه رد فعل، في مقابل ازدياد المطالبات بالحجاب في الشارع ازديادًا أكبر من مطالبات مماثلة بضرورة حفظ الحقوق، وصون الدماء.. والحرمات بين المسلمين.

ففي الشوارع علق مجهولون "بوسترات" تطوعوا، فبدروها في الطرقات، وداخل سيارات مترو الأنفاق، وعلى حوائط العمارات في المناطق الشعبية، وشوارعها، وكتبوا علي هذه "البوسترات" عبارات "الحجاب قبل الحساب يا مؤمنة"، بينما الذي لم نر

7- راجع كتاب "رهبان التبت". رايل كام. وضوابط الرهبنة لأبناء بوذا المعلم.

8- راجع بحث "حقيقة الحجاب وحجية الحديث" للمستشار سعيد العشماوي. ومبحث آيات الحجاب. الخاصة بالنبي. وزوجاته.

لافتات مماثلة مكتوبًا عليها "صوني حق زوجك، وراعى عائلتك.. وجيرانك".

وظهرت "بوسترات" أخرى كتبوا عليها "صلى قبل أن يصلى عليك"، رغم أن أحدًا لم يرَ أية إعلانات في الشوارع تتكلم عن حقوق الطريق، والتزامات الموظفين بحسن تيسير مصالح المواطنين!

لذلك؛ أكثر المصريون من صلاتهم، بينما انتشرت الرشوة، وسميت الإتاوة "إكرامية"، والسرقة "شاي".

وهو ما يُتوقع معه أن تخرج تيارات ثائرة على "طقوس الدين"، ثم متوقعة أيضًا؛ أن تخرج تيارات ثائرة على الدين نفسه، بعدما فعل به المتدينون ما فعلوا.

فلا الدين أصبح عصريًا، ولا العصر أصبح دينيًا.. مع أن الدين له القدرة على استيعاب العصر والمتدينين في كل وقت.

من السبب؟! إليك هذه القصة.

عام 2008؛ حاولت د. لالاه بختيار تقديم نموذج عصري للإسلام يتوافق مع الظروف، ويتماشى مع النص.

د. لالاه أمريكية من أصل إيراني، حصلت على الدكتوراه في الآداب من جامعة شيكاغو في الثمانينيات، مثلما حازت ملايين اللعنات من المشايخ في أمريكا بعد ذلك!

لالاه خلعت الحجاب بعد ارتدائه عشرين عامًا عاشتها في إيران، ولما فعلت؛ قال مشايخ أوروبا إنها خلعت ثوب العفة.

لكنها ردت عليهم بكتاب الله.

قالت: إن الحجاب لم يعد مناسبًا لها، فقد خلعته في عامها الخامس والستين، أي بعدما أصبحت من القواعد من النساء " اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ " - (النور - 60).[9]

9- الآية رقم 60، سورة النور، قرآن كريم.

فرد عليها المشايخ بأنها كفرت، وقالوا ارتدت.. وتفرج المجتمع الأمريكي على سيناريو فيلم سيئ، اغتاب المشايخ فيه لالاه، ونابزوها بالألقاب.. وخاضوا في سمعتها علنًا.

المهم أنها صمدت، واحتملت، وقالت إن ما يفعله المشايخ معها ليس من الدين، ثم إن هناك من القضايا ما هو أهم من خلعها الحجاب.

وضمن ما قالته د. لالاه: إن في الولايات المتحدة - مثلًا - أكثر من 17 نسخة مترجمة لتفسير القرآن، يحتوي بعضها أخطاء لغوية، ويحتوي البعض الآخر "كوارث عقائدية".

قالت لالاه إنه ليس من المنطق أن يترك الحريصون على الإسلام تحريف العقيدة باللغات الأجنبية، ويمسكوا بتلابيب واحدة خلعت الحجاب.. برخصة من الله.

فردوا عليها بأن الله لم يرخص بـ"الفجور"؛ فردت هي بالإعلان عن عزمها طرح نسخة جديدة من تفسير آيات الذكر الحكيم أكثر سماحة، وأقل عداء.. وأكثر استيعابًا للواقع، بخليط من أيسر تفسيرات الأئمة.

جن جنون أئمة مساجد الولايات المتحدة؛ بعدما قالت د. لالاه إنه بالتأكيد هناك طريق ما لتغير صورة المسلمين في المجتمعات الأمريكية.

المشايخ في أوروبا لا يعرفون عن د. لالاه سوى أنها خلعت غطاء الرأس.. والحجاب قبل الحساب يا مؤمنة.

قلوبهم غلظ، لذلك لا يحاسبهم في الولايات المتحدة إلا المباحث الفيدرالية.

ففي "جيتو" المسلمين في الولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا؛ لا يحاسب المشايخ أنفسهم. حتى تفاسير القرآن التي كتبوها، وترجموها، ويدرسونها في المكتبات الأوروبية؛ يحضون فيها على القتل [illegible] وسبي النساء بلغات مختلفة لم يحاسبهم عليها أحد!

لكن د. لالاه بادرت بالحساب؛ ببحث استغرق 20 عامًا في تفسير جديد للقرآن، اعتبرته أكثر واقعية، وقالت إنه الحل الوحيد العملي لإزالة سياج بناه مشايخ أوروبا بينهم وبين مجتمعاتهم من دون سبب.

وقصمت لالاه ظهر المشايخ؛ بعدما طرحت تفسرًا جديدًا لآية "النشوز".

قالت إن في اللغة العربية أكثر من معنى لـ"الضرب".[10]

وقالت أيضًا إن الزواج من أربع ليس تصريحًا قرآنيا بقدر ما هو ظرف محمول على الندرة؛ ما يعني أن التعامل معه بشكل مطلق.. خروج عن الدين.

لا يعتقد الأوروبيون في ديانة تدعو للعنف الزوجي.. بينما يوّصل مشايخ المسلمين حول العالم "للسيف" و"الجلابيب البيضاء" و"تصنيف درجات إيذاء الزوجات" في ندوات مطولة.

قالت لالاه إن تحقير المرأة، والتنقل بين النساء جنسيًا حسب الهوى لا هو دين ولا يحزنون، لذلك؛ وصفها المشايخ في الولايات المتحدة بـ"المرأة العنكبوت".

لكن د.لالاه لم تكن كذلك؛ فلا كانت عنكبوت، ولا كانت حشرة. كانت فقط امرأة، مسلمة تفكر. صفحتها بيضاء؛ استغربت فقط التناقض بين "إيذاء الزوجة بالضرب - مثلًا كما يقول المشايخ، وبين آيات الرحمة للمطلقة "فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ..." (البقرة - 229) التي نص عليها القرآن!![11]

قالت إنه من غير الممكن أن يأمر الله بالإحسان إلى المطلقة، وفي الوقت نفسه يأمر بضرب الزوجة التي لا تزال في عصمة الرجل!

وهي ملاحظة وجيهة.. والتساؤلات حولها منطقية.

في تفسيرها؛ قالت د. لالاه إن في اللغة العربية أكثر من معنى للضرب؛ منها "الهجر".. ومنها "المقاطعة"، ومنها "الابتعاد قليلا". حتى إذا كان المقصود الضرب بمعناه المعروف، وقت التنزيل؛ فإنه يجوز العدول عنه إلى ما هو أدنى إذا اقتضى الواقع.

اجتهدت لالاه، وقالت إن الحدود تدرأ بالشبهات، والأحكام يمكن أن تتغير مع تغير الزمان، لكن كأن "المشايخ" لم يكونوا يعلمون، لا درأ الحد بالشبهة، ولا الاجتهاد لتغير

10- الآية رقم 34. سورة النساء. قرآن كريم.

11- الآية رقم 229. سورة البقرة. قرآن كريم.

الحكم لغرض يقتضي.

عام 2008 مثلًا: أفتت واحدة داعية مصرية مشهورة، بوجوب تطبيق حد القذف على طفلة اغتصبها أحدهم؛ فحملت سفاحًا ثم ولدت سفاحًا قبل أن تتهم مغتصبها أمام النيابة.

لما هاج الرأي العام؛ كانت "الطفلة هند" قد بلغت الثانية عشرة من عمرها، والأطفال أحباب الله؛ لكنهم ليسوا أحباب بعض الداعيات.

لماذا طالبت الداعية المشهورة بإقامة حد القذف على هند؟ الداعية قالت إنها "عقوبة رمي الناس بالباطل". فقد اتهمت الطفلة هند الشاب الذي قالت إنه اغتصبها، من دون أن تستطيع إثبات التهمة عليه، لذلك؛ فإن اتهامها للشاب رمي بالباطل.. وطعن في شرفه!

ووصفت الداعية الطفلة هند بإشاعة الفحشاء، والادعاء الكاذب على بريء.

كانت فتوى "جرست" طفلة بالدين.. وفضحتها هي وعائلتها وطفلتها التي ولدتها من واقعة اغتصاب.. دافعت فيها الداعية عن الجاني!!

الدنيا تدور، والمواقف تتكرر. وعادات المشايخ لا تنقطع.. ربنا ما يقطع لهم عادة!

ففي قضية هند الحناوي والممثل أحمد الفيشاوي عام 2005؛ طعن الكثير من الدعاة في سمعة هند التي ادعت زواجها من أحمد الفيشاوي، وطلبت إثبات نسب طفلتها إليه.

قالوا ما معناه أن الفتاة التي ارتضت لنفسها أن تدخل في علاقة "عرفية" مع شاب.. لا تؤتمن، وشككوا في نسب الطفلة؛ رغم أن المحكمة أثبتت النسب فيما بعد، واعترف الفيشاوي نفسه.

في الشارع؛ مال الناس إلى كلام الدعاة، فقالوا إن هند الحناوي فضحت نفسها بإعلان علاقتها بالفيشاوي الصغير، ثم فضحت نفسها بالادعاء عليه إثباتًا لحقها. لكن بعضًا ممن كان لا يزال عقلهم معهم؛ قالوا إن تلك الفتاوى هي التي تجعل شباباً في طغيانهم يعمهون، ما دام مشايخنا يدفنون أنفسهم تحت الرمل.. قبل أن توارى فتاواهم الشرعية التراب.

اللهم استرنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض؛ لكن ربنا يبدو أنه لن يفعل. لماذا؟!

لأنه سبحانه يلعن الذين ضاع الحق بينهم.

فعندما تتحول طفلة مغتصبة إلى متهمة بالقذف في حق مغتصبها.. تبقى مصيبة!!

وعندما تتحول مطالبة أنثى بحقها في إثبات نسب ابنتها التي لم تر النور بعد إلى "فضيحة".. تبقى كارثة.

الكارثة الأكبر أن يكون هذا رأي "داعية".. وأستاذة شريعة!!

في قصة للأديب الروسي تشيخوف؛ يسير أحد الأبطال ليلًا وينظر للسماء ويسب الله؛ ولما سألوه لماذا؟ قال: كنت أتمنى لو أكيل الشتائم لصاحب البيت، وصاحب العمل، وصاحب المخبز والبقال، لكنني أخافهم جميعًا.

قالوا تخاف الناس ولا تخاف الله؟! قال: الله يفهم لكن الناس لا يفهمون!!

بطل تشيخوف اسمه سيرجي، والقصة اسمها "الحافي"، سيرجي ترك وطنه وبيته خوفًا من صاحب المخبز وصاحب البيت والبقال و.. رجل الدين.

سألوه أيضًا: لماذا تخاف رجل الدين؟ قال: لأنه لم يمنع صاحب البيت ولا البقال ولا الخباز من اضطهادي.

في قصة الطفلة هند، وفي قصة هند الحناوي؛ وقع الدعاة في المحظور.. بعدما طعنوا في سمعة الفتاتين، في واقعتين مختلفتين، فجرسوا الاثنتين، وركبوهما حمارًا بالمقلوب.. ومن ده بكره بقرشين!!

سيرجى بطل قصة تشيخوف أجاب عندما سألوه عما ينشده بعد خروجه من قريته شمال موسكو؛ فقال إنه يفضل أن يعيش في بلاد لم يولد فيها رجال دين بعد.

وكان عنده حق؛ فكثيرًا ما يفسد الدين.. بعض رجال الدين!!

(2)

يكيل بعض المشايخ أحيانًا بأكثر من مكيال.. فلا يكون إلا هوى.

ففي الوقت الذي هاجم فيه المسلمون اجتهاد السوري د. محمد شحرور في كتابه "الكتاب والقرآن" عام 1997؛ هللوا لدراسة أمريكية قالت إن محمدًا رسول الله عبقري، واعتبرته أول جنرال عسكري "منظم" في التاريخ القديم!

طبعات "الكتاب والقرآن" لشحرور سجلت منذ عام 2002 أعلى نسبة مبيعات عربية في أمريكا وإنجلترا والأرجنتين والإكوادور وأوروجواي؛ بينما منعته السعودية والكويت والبحرين والجزائر وتونس ومصر، في الوقت الذي طالبت فيه تلك الدول باستيراد مزيد من نسخ كتاب الأمريكي مايكل هارت "الخالدون مائة أعظمهم رسول الله".

ماذا كتب هارت؟

كتب أن محمدًا يأتي ضمن أشهر شخصيات في التاريخ، فوضع النبي (ص) في مصاف الخالدين، إلى جانب قيصر روسيا، وبوذا الصيني، سبارتاكوس.. العبد الروماني.

أعجب المسلمون بكتاب هارت، وطلبوه؛ بينما رفضوا كتاب د. شحرور الذي كان دراسة حقيقية، ومفيدة لمسائل وموضوعات لا تزال "شائكة" في العقيدة الإسلامية.

يرى د. شحرور ضرورة إعادة النظر في بعض ما يعتبره المسلمون مسلمات، أو معروفًا من الدين بالضرورة.

مثال على كلامه؛ قضايا "الرزق" و"الأعمار" و"المقدر والمكتوب". فالذي يراه الرجل أن الإرادة الربانية لا تتدخل في خصوصيات البشر.

كيف؟!

لأن الله قد وضع قوانين عامة بداية خلقه الكون، وأن هذه القوانين ما زالت تعمل من وقتها إلى الآن بعيدًا عن أي تدخل.

المعنى - مثلًا - أن الله خلق عوامل ومبادئ عريضة لـ"الموت". عندما تكتمل أو تجتمع يصبح الموت حتميًا. مع ذلك - وحسب القوانين التي وضعها الله في الكون - يجوز للإنسان التدخل بالنظريات الطبية، وبتوفير الظروف الملائمة لمنع عوامل الموت من الاجتماع لدى إنسان، وبذلك تطول الأعمار، وتنفتح أبواب جديدة للأرزاق!!

"المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين" و"تروح فين الشمس من على قفا الفلاح".. أمثلة ساذجة لا دخل لها لا بالعقيدة ولا بالعلوم الشرعية التي يمكن إعادة تفسير مسائلها بصورة أكثر منطقية.. في رأي د. شحرور.

فالأرزاق مثلها مثل الموت أيضًا.

لا بد أن تجتمع عدة عوامل (لا دخل للقدر فيها) تؤدي في النهاية إلى "كم ما من المال أو العيال أو الكمال" حسب اجتهادات الإنسان الشخصية، وحسب قدرته على التعلم وتنمية أدواته البشرية".[12]

إذًا؛ اختيارات المسلم مفتوحة في حياته، من دون تدخل إلهي، ولا ظروف مقدرة سلفًا عليه.

فالأرزاق لم تقدر سلفًا على بني آدم، ولا كتب الله عليه ظروفه أو سلوكياته أو حياته الخاصة أو عقيدته.

فلو كان الله قد كتب على أحدهم الإيمان، بينما كتب على الآخر الكفر؛ فإن المؤمن بإيمانه، والكافر بكفره ينفذان في تلك الحالة إرادة ربانية.

12- راجع "الكتاب والقرآن" للدكتور محمد شحرور، دراسة قوانين الله الأولى، وقدرة الإنسان على اختيار أعماله. حيث إن الله بموجب القوانين الأولى الذي وضعها في الكون، يختار الإنسان وفق إرادته الشخصية ما يريده. من دون أن يكون لإرادة الله سبحانه في تدخل الإنسان مشيئة. ومن ثم يجوز حساب الإنسان على اختياراته يوم الحساب.

وإذا كان الاثنان ينفذان إرادة ربانية؛ فلا يجوز مكافأة المؤمن على إيمانه، في الوقت الذي يتم عقاب الكافر على كفره.

فكرة "المكتوب على الجبين" ليست إسلامية؛ لأن الله سبحانه لم يكتب شيئًا على عباده. صحيح هو سبحانه الذي نظم القوانين الخاصة بالكون بداية خلقه؛ لكنه لم يدخل في علمه ما سوف يقدم عليه العباد من اختيارات.. إلا بعد اختيارهم، ووفق القوانين الذي وضعها سبحانه.

فلم يكتب الله مثلًا على أبي بكر الإيمان، كما لم يكتب على أبي لهب الكفر بالإسلام. لأنه لو كان كتب على كل واحد منهم اختياره؛ فأصبح كل منهم ملزومًا بإرادة الله.. ثم مات أبو بكر مؤمنًا، ومات أبو لهب كافرًا.. فالاثنان يجب أن يكون مصيريهما الجنة.. لأن الاثنين كانا ينفذان "إرادة ربانية"، لا يستطيع أي منهما الفكاك منها، أو الهروب!

كان كلامًا منطقيًا، وبحثًا جديرًا بالدراسة، أو على الأقل القراءة.

لكن المسلمين رفضوه، وقبلوا كتاب مايكل هارت.. ودراسة عام 2006 الأمريكية.

اعتبرت الدراسة الأمريكية أن محمد (ص) أول جنرال عسكري في التاريخ؛ فقالت إنه عبقري، واعتبرته أول منظر لاستراتيجيات ما سمي فيما بعد بـ"حروب العصابات".

احتفت الصحافة العربية بالدراسة، ولم ينتبه أحد للذي تقوله أو الذي تعنيه؛ فالذي حدث أن خالت عليهم مثلما خالت علينا.

وجدت نفس ما حدث في السبعينيات. فلما أصدر مايكل هارت كتابه "الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله": هلل المسلمون فرحًا؛ لأن الأمريكي، غير المسلم، قد وضع النبي محمد ضمن "الخالدين" أو "العباقرة"، مع القديس أوغسطين والإمبراطور إيفان الرهيب وبوذا وزرادشت.. واخرين قال إنهم أثروا في البشرية بعبقريتهم.

كانت لعبة.. وربما فخ.

فالذي قاله هارت؛ تمامًا كالذي قالته الدراسة الأمريكية. هارت قال إن محمدًا (ص) عبقري، والدراسة قالت الكلام نفسه.

لكن د. محمد شحرور كتب أن محمدًا ليس عبقريًا، ومواصفاته الشخصية لم تكن هي المواصفات التي حاول مايكل هارت تصديرها في كتابه.

شحرور قال إن محمدًا رسول الله.. وهذا يكفي، وقال إن "العبقرية" التي وصف بها مايكل هارت النبي (ص) تتعارض مع الرسالة المحمدية.

لماذا؟

لأن عبقرية أينشتاين - مثلًا - التي أدت إلى نبوغه في الفيزياء وحساب المثلثات وقواعد الجبر والهندسة الفراغية؛ كانت تشير إلى خصائص عقل أينشتاين الفريدة، فالرجل كان "مخه كبير"، وذكي.. لذلك اكتشف ما لم نكن نعرفه.. وقننه؛ فاستفادت به البشرية كلها.

لكن محمدًا (ص) كان نبيًا.

لا اكتشف شيئًا، ولا كانت دعوته مجرد ضربٍ من الذكاء.. والتفوق الذهني.

فقد كان (ص) نبيًا يوحى إليه، رسالته من السماء، ليست من "مخه"، والفرق بين العبقرية والنبوة.. واضح.

ومحاولات الخلط.. واضحة أيضًا!

ولما احتفي المشايخ بالدراسة الأمريكية، وبكلام مايكل هارت؛ ظهروا كما لو أنهم أرادوا شهادة من الغرب بنبوة محمد، ولا تزال صحف السعودية والأردن والإمارات تنشر بعض سطور الدراسة، وتشير لمقتطفات منها حتى كتابة هذه السطور، مع أن تفاصيل "الدراسة" بالعقل.. كانت جناية في حق الإسلام.

صاحب الدراسة الأمريكية ذو الأصول الألمانية "جابريل هانز" قال إن أحدًا على مر التاريخ الإسلامي لم يدرس سيرة النبي (ص) كمتمرد ناجح، والمعنى أن الباحث ساوى بين محمد (ص) وسبارتاكوس محرر العبيد الروماني.

وعندما ساوى مايكل هارت مؤلف كتاب "الخالدون مائة" بين محمد وبوذا؛ كان المعنى أيضًا أن محمد قد ابتكر دينًا، وأن هذا الدين "من عنده"، استطاع عن طريقه،

وباستراتيجية خططها هو من نفسه: أن يفتح العالم وأن يؤثر في الذين آمنوا به، والذين لم يؤمنوا أيضًا!!

ربما فعل بوذا ذلك بوصفه مصلحًا اجتماعيًا. وربما استمر البوذيون من بعده على تعاليمه بوصفه ساحرًا في مجتمع حول معظم أفراده للتعامل بأدب جم مع بعضهم.. فحلقوا رءوسهم، وبنوا معابدهم فوق التلال وعند سفوح الجبال.. بأدب جم أيضًا.

لكن محمدًا لم يكن كذلك.

ليس تحيزًا للإسلام: إنما دفاع عن محاولة الخلط بين الاستراتيجيات البشرية والدعوات السماوية.

فلم يكن محمدًا - عليه الصلاة والسلام - متمردًا أول، يعني لا هو كان عبقريًا، ولا كان قائدًا لمجموعة من المستضعفين بالمعنى الذي أراده جابريل وهارت.

لكن سبارتاكوس كان كذلك.[13] لذلك: عندما ثار على إقطاع الطبقات العليا في المجتمع الروماني فيما سموها ثورة العبيد، كان سبارتكوس مؤيدًا من فقر العامة، وجوع المساكين؛ بينما كان محمد رسول الله مؤيدًا من الله، في حربه مع مشركي الجزيرة العربية؛ فقد رزق الله النبي محمد برسالة سماوية.. لا بعبقرية.

لذلك؛ فإن وضع نبي المسلمين، أو نبي المسيحيين في مصاف الخالدين مائة لا يجوز، في الوقت الذي يجوز فيه هذا مع الإمبراطورة أوجينى، أو الليدي دي بومبادرو.. أو القيصر إيفان الرهيب.

ما الذي حدث؟!

الذي حدث أن المسلمين توقفوا عن التفكير، وتوقفوا عن التدبر أيضًا، لذلك ضحك

13- سبارتاكوس Spartacus العبد الذي خاض الثورة ضد الرومان التي سميت ثورة العبيد الثالثة(ت في عام 71 ق): إذ أسر وبيع كعبد لأحد الرومان الذي كانت لديه مدرسة لتدريب العبيد لاستخدامهم كمبارزين ومصارعين في حلبات خاصة تقام لأجل المتعة. ثار هو والعبيد الآخرون الذين كانوا معه. وألحقوا هزائم عديدة بالجيش الروماني إلى أن قتل في آخر معركة. وبموته انتهت الثورة وصلب العبيد الآخرون في الساحات العامة. سبارتاكوس تأثر لزوجته التي قتلت وهي في طريقها من سوريا وكانت جاريه وقد اشتراها والي اسبارتاكوس وقتلها لكي يكون سبارتاكوس منشغلًا بالقتال وجلب الأموال للوالي الذي يرأس مدرسة تدريب العبيد. وقتل سبارتاكوس واليه.

علينا العالم.. وخدعونا، بعدما تحولنا لمثار للضحك.. ومنبع للنوادر.

وأسهمنا نحن في النكات التي أطلقوها علينا.

إليك هذه القصة أيضًا:

(عام 2006) قلبت "فاطمة يوهانسو "المجتمع المسلم في إندونيسيا" وزرعت رأسه في التراب.[14]

رغم أن فاطمة مسلمة؛ إلا أنها قطعت قلوب الهندوس والطاويين.. وأثارت ضحك الباندويين وجعلت من المسلمين مسخرة خلق الله.

فالذي حدث أن فاطمة يوهانسو قد عاشرت رجلًا في سرير الزوجية؛ اكتشفت فيما بعد أنه ليس زوجها، إنما صاحب زوجها الذي يسكن معهم في المنزل هو وزوجته.

الباندويون تداولوا وقتها القصة بالنكات اللاذعة.[15]

قالوا: ماذا تفعل المسلمة عندما تصحوا من نومها؟ الإجابة: تطلب بطاقة زوجها الشخصية وتتأكد من هُويته!!

نكتة أخرى: إندونيسي وصديقه ذهبا لخطبة فتاة واحدة؛ لأن أحدهما يعمل طوال الليل والآخر يعمل.. طوال النهار.

"المسلمين اتهزءوا"؛ فقد قال الإندونيسيون كلامًا كثيرًا، ولجأت فاطمة للشرطة؛ لكن لا البوليس ولا المشايخ هناك استطاعوا أن يعيدوا لها حقها.

قال زوجها إن الحق على صديقه المقيم معهما بالمنزل، أما صديقه المقيم معه بالمنزل فقال: ما باليد حيلة، وقال أيضًا إنه لم يكن يعرف أن الطرف الآخر امرأة صديقه.

ووقف الثلاثة أمام القضاء.. واشتعلت قضية فاطمة، وضحك العالم.

14- قصة فاطمو يوهنسو تناقلتها صحف الشرق الأدنى، وقدمت شبكة الـ"سي إن إن"، و"بي بي سي"، تقريرًا مفصلًا عن تفاصيل القصة عام 2006، ونقلها عنهما كثير من الصحف العربية، خصوصًا صحافة المغرب العربي في العام نفسه.

15- يميل الكثير من الباحثين إلى التأكيد على أن الباندوية خرجت عن الديانة البوذية، بشيء من الاختلاف، مع وحدة الأصول والمبادئ، رغم الاختلاف في أسماء الأنبياء، والأشخاص المقدسين في كل ديانة.

سبب الغلطة؛ أن فاطمة وزوجها مسلمان على المذهب الحنبلي.. وصديق زوجها أيضًا حنبلي.

وفي مذهب الحنابلة رؤية الزوجين وجه بعضهما خلال الجماع حرام!

نكتة.. لكن حدثت؛ فاعتقدت فاطمة أن زوجها هو الذي معها، بينما اعتقد صديق زوجها أن التي في فراشه.. زوجته!!

فاطمة اتجننت بعدما عرفت الحقيقة، وزوجها أيضًا.. في الوقت الذي لم ير الكثير من المسلمين الإندونيسيين في الأمر غرابة.

اعتبروها "واقعة نادرة الحدوث" ودمتم.

فمن السنة على ما يعتقدون عدم رؤية وجه الزوج في المعاشرة.[16]

ليس مهمًا ما حدث؛ المهم أن السنة سارية.

يرى كثيرون على مذهب ابن حنبل؛ أن للجماع آداب، وسنن، لا يَمكن نقضها.. أو نقدها، ولديهم مثلًا أن استمتاع الرجل و المرأة مصيبة.. وكشف الحياء مع الزوجات في الأسرة كارثة،

المهم أن هذه الأفكار تكاثرت، رغم تكاثر المشايخ، وتزايد الدعوات للعودة إلى الله!

فكان للمسلمين في الأمصار عجائب؛ بعدما عملوها المشايخ.

لخبطوا بالمشكوك فيه من السنة ثوابت لم نتصور أنها يمكن أن ترتبك؛ فتنام فاطمة الإندونيسية مع رجل غير زوجها في سرير الزوجية.. ابتغاء مرضاة الله.. وسنة رسوله؛ بينما العالم لا يكفَ عن الضحك على "المؤمنين" منا.

16- لدى بعض الحنابلة أنه لا جماع إلا للإنجاب. ويميل آخرون لمزيد من التشدد معتقدين في عدم جواز رؤية الزوجين لبعضهما خلال الجماع. ويؤثم من يفعل هذا.. ورغم أنه لا نص. ولا سنة ولا أثر في هذا. بالأدلة الشرعية في الفقه الإسلامي. فالأصل أنه اعتقاد قديم. تسرب إلى معتقدات مسلمي البلاد المفتوحة؛ فاختلط بإسلامهم.. وهو تراث يهودي قديم. شهر عن مجموعة "الأيسينيين" اليهود. الذين ينتمي إليهم السيد المسيح. ويوسف النجار خطيب السيدة مريم العذراء. ولدى الأيسينيين. أن جماع الرجل وامرأته "نجاسة". وأن العبد إنما يتقرب إلى ربه. بالصوم. وترك المعاشرة. حتى ما يحل له منها.

وعام 2009؛ حدثت هذه القصة في إندونيسيا أيضًا.

فقد دعا مجلس العلماء ـ وهو أعلى سلطة للإسلام هناك ـ المسلمين إلى الامتناع عن ممارسة اليوجا؛ بعدما أفتى علماؤه أنها "حرام"!

لماذا؟ ما السبب؟

قالوا: ممارسة اليوجا تتضمن شعائر هندوسية ضد الدين، محرمة على المسلمين، فاليوجا قد تضعف العقيدة.. وربما تخرج المسلم عن دينه.

وبعد 5 أشهر من الجدل؛ تداولوا فيها كثيرًا من الأحكام الشرعية للحكم على الرياضة القادمة من الهند، وعن الأرواح "الشريرة" التي يمكن أن تتلبس المسلم عن طريق ممارسة الرياضة القادمة من الهند؛ قرر المجلس الإسلامي حظر الرياضة القادمة من الهند.

وأصدر فتوى بهذا نشرت في الجرائد وعلقها المسلمون على حوائط منازلهم؛ فرسموا راهبًا بوذيًا في وضع "يوجا" وكتبوا تحتها.. هذه الحركات تفسد الإيمان!

لكن المشكلة لم تنته بعدما ثار المعتدلون.. فالأمر بهذه الصورة سوف يظهر أتباع الديانة المحمدية بلا دين، ولا عقل ولا أية مساحة للتفكير في الاثنين.

قال شيوخ الاعتدال: إن التعصب عندما يدخل إلى العقيدة يفسدها، ويعمي عيون المؤمنين والمؤمنات، الصابرين والصابرات.. الأحياء منهم والأموات.

قال المعتدلون أيضًا إن الإسلام حول العالم لم يعد يحتمل الدخول في معارك وهمية، وصورة المسلمين على كوكبنا لم تعد في حاجة إلى مزيد من "الاهتزاز".. فلا الرياضة ممكن أن تفسد الدين، ولا يصح وصف اليوجا بأنها "قنطرة" للمعتقدات الوثنية في الطريق لعرين العقل الإسلامي.

لكن أحدًا لم يسمع.

وكالعادة.. اتهمت الجمعيات الشرعية أصحاب الآراء "المخالفة" بالتعدي على الدين، وأنهم "مأجورون " لزعزعة استقرار المجتمع، وثقة الناس في عقائدها.

في التلاسن.. اقترب الأمر من السباب والشتائم، وقلة الحياء.

رؤساء الجمعيات الشرعية وصفوا المفكرين المسلمين بألفاظ قذرة، وبعضهم ألمح إلى "الدولارات التي حصلوا عليها مقابل هز الإسلام".. وأشياء أخرى أكثر احتقارًا.

لكن د. أحمد الهيل أحد المفكرين الإسلاميين، وفي محاولة منه لسد فوهات المدافع؛ رد بسرعة قائلًا إنه إذا كانت "عقائد البعض هشة وضعيفة للدرجة التي تغيرها الرياضة، وتشككهم فيها اليوجا، فالأولى بالمسلمين أن يخرجوهم من الدين.. لا أن يحاربوا.. للتمسك بهم".

منطق.

لكن محمد أمين رئيس مجلس العلماء الإندونيسي رد بأن تحريم اليوجا "كان ضروري حتى لا يخلط المسلم بين الصواب والخطأ".. وقال إن المشايخ هم الذين أوكل الله إليهم هذه المهمة.

وأضاف أن المسلمين لا ينبغي لهم أن يمارسوا أي شعائر دينية أخرى حتى لو على سبيل التمثيل، أو الهزل.

فالهزل باب للجد، والوهم طريق للحقيقة.. و"اليوجا" ذريعة للكفر، وللمسلم أن يسد الذرائع على أخيه المسلم.. حتى إن لم يرغب الأخ.. وحتى لو لم تطلب الأخت.

وتدخل رئيس الوزراء الإندونيسي؛ فدعا المسلمين إلى ضبط النفس حتى لا يكونوا فرجة للعالم، فقد تحول الحدث إلى فضيحة في أسيا وفي أوروبا.

صحيح نصف الإندونيسيين مسلمون؛ ما يجعل المشكلة تبدو داخلية؛ إلا أن جمعيات حقوق الإنسان في العالم لم تتوقع أن يصل التطرف إلى هذا الحد.

لذلك رفع الحقوقيون المسلمون أصواتهم في الخارج، ونددوا بالذي يتعرض له المفكرون المسلمون من تهديدات في إندونيسيا.. واقتربت الأزمة من حافة الانفجار، إلى أن أصدر مجلس الوزراء قرارًا بإباحة اليوجا "بوصفها تمارين روحية، ليست شعائر دينية".

في المقابل؛ احتج البوذيون في الصين واليابان وهونج كونج، واندلعت أزمة أخرى بعد الخوف من تعرض المسلمين في تلك البلاد لأعمال عنف، حتى إن بعضهم ربط بين اعتداءات الصين على الإيجور المسلمين وقصة "اليوجا" في إندونيسيا.

حتى إن لم يكن هذا صحيحًا، أو لم يكن هذا هو السبب الوحيد في الأحداث الطائفية التي تعرضت لها الأقلية المسلمة في الصين؛ لكن الأكيد أن تداعيات قضية اليوجا في إندونيسيا لم تكن ضئيلة، مع ما أشارت إليه من نموذج لمحتوى فكرى لتيار يدفع باتجاه "أسلمة" المجتمع، وبين مستنيرين يميلون.. للاعتدال قدر الإمكان!

وليد طوغان

القاهرة 2012

صدر عن الدار

تخاريف خريف	شعر	مؤمن المحمدي
كل ما صنع الحداد	شعر	محمود خيرالله
قطة وقديسة وجنية	شعر	عبد الرحيم يوسف
حدثتنا ميرا	رواية	لميس فارس المرزوقي
إف/هم	رواية	كمامي
زعماء وعشاق	مقالات	سيد عبد القادر
يا قليل الأدب	نصوص	ميشيل نبيل
المدينة الملعونة	رواية	سعيد البادي
حوار الططظ	وثيقة	سعيد شعيب
المثقفون وكرة القدم	مقالات	أشرف عبد الشافي
الآخر في الشعر العربي	نقد	د. أيمن بكر
تفسر أعضاءها للوقت	شعر	وليد علاء الدين
يوميات من القرن الأفريقي	رحلات	علي العمودي
آلة الزمن	كوميكس	خالد الجابري
القطط أيضا ترسم الصور	قصص	أحمد شوقي علي
الشياطين لا تأتي عصرا	قصص	أشرف عبد الكريم
المهارات الأساسية في الكتابة العربية	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
مرة ١ مسلم و ١ مسيحي	مقالات ساخرة	محب سمير
أرقام سرية	شعر	ميسرة صلاح الدين
تدريس أدب الأطفال	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
التربية العملية الميدانية	تعليم	د. محمد محمود موسى د. محمد سعيد حسب النبي
فتوات وأفندية	مقالات	د. ياسر ثابت
كائنات الورق	قصص	مالك عبيد
الطريق إلى قصر العروبة	سياسة	محمد علي خير
الضريح	رواية	كرم صابر
موسم الفراشات الحزين	رواية	اسامة حبشي

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com



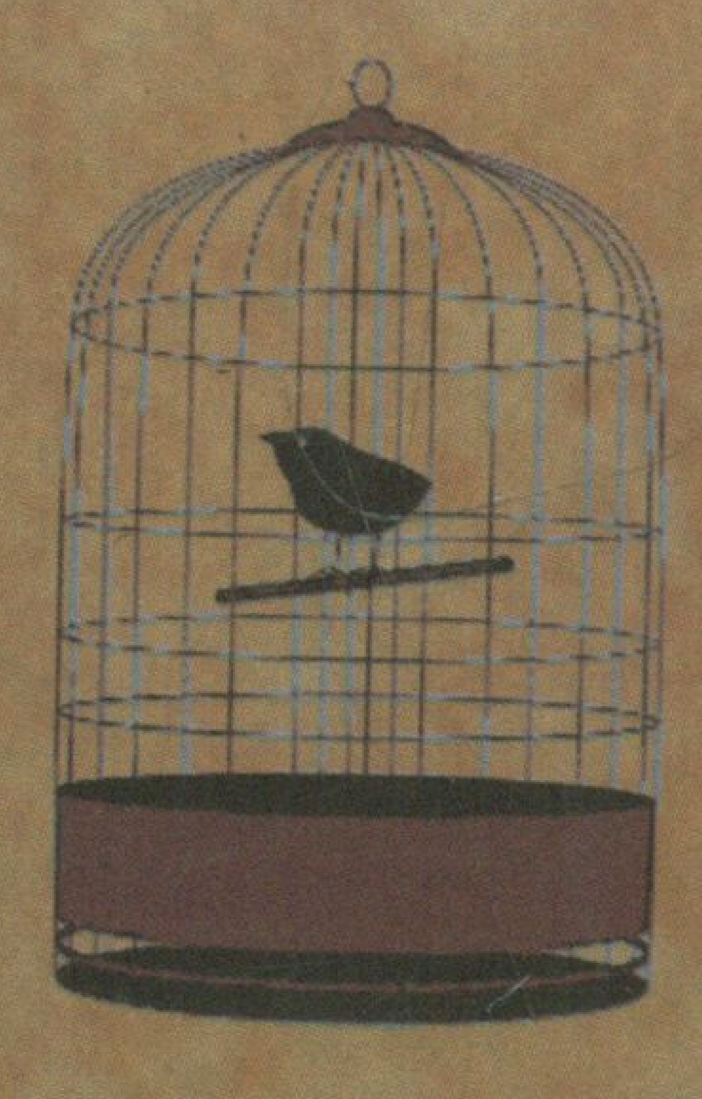
رائحة فرنسية	رواية	أسامة عبيد
مع ملائكة مكّة	رحلات	سعيد البادي
شوق	رواية	خليل أبوشادي
حبَّـــات التـــوت	قصص	عادل العجيمي
إغراء السلطة المطلقة	سياسة	بسمة عبد العزيز
همسات لها أجنحة	نصوص	سلطان الحجار
نهار خارجي	قصص	محمد عبد الرحمن
قراصنة المتوسط	تاريخ	مجموعة باحثين
الحية	رواية	ياسر سليم
المتهم	رواية	كرم صابر
ملك على الذكرى	شعر	أحمد كامل
مقدمات الثورة المصرية	سياسي	د. أيمن بكر
دماء على طريق الحرية	سياسي	حنان بدوي - حنان السمني
السلفيون ايضا يدخلون النارا	سياسي ديني	وليد طوغان
فراشة الميدان	سياسي	سلطان الحجار

قيد الإصدار

صعود ليبرمان	تحليل	أكرم ألفي
عيّل بيصطاد الحواديت	كتاب شعري	مجدي الجابري
حرب بلا نهاية	سياسة	رالف بيتر
مرآة الشرق	تاريخ	مجموعة باحثين
حنين للضي	شعر	صبري فواز



يرى البعض ان التيارات السلفية احدثت فى العقيدة الاسلامية ، مثلما أحدث الهراطقة والوضاعون . فإذا كان هؤلاء قد خاضوا فى الإسلام تجريحا وذما ، فالسلفيين على الجانب الآخر جمدوا الدين ، واحتفظوا به فى ثلاجات التاريخ لتفسده المواد الحافظة ، مع أن الله سبحانه لم يشرع الدين إلا لصلاح المجتمعات .. وصلاح المجتمعات لا توجد أدواته فى «ثلاجات» التاريخ! السلفيون رجعوا بالاسلام إلى الخلف ، و علبوه وقالوا إنهم احتكروا ماركاته وخلطاته بسيرهم على خطى السلف الصالح .. رغم أن السلف الصالح لا أمروا ولا شهدوا والأقرب أنهم لم يكونوا ليرضوا لو عرفوا.محاولات تقليد السلف الصالح، ومحاكاة زمانهم رغم تغير الظروف واختلاف البلاد وتلون العباد، كانت فاحشة تاريخية .. ومقتا اجتماعيا وساء سبيلا. ثم ان الإسلام ليس دينا سلفيا، ولم تنص شريعته على أن «السلف الصالح» رضوان الله عليهم كانوا هم الإسلام، ولا أن أقوالهم وأعمالهم، رضى الله عنهم جميعا كانت عماد الدين، مع ذلك لازال بعض الذين ولدوا بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام على وفاة الصحابة يرون ذلك . «أهل السلف» إذن ليسوا أهل الله، حتى لو قالوا ذلك ، فهم «مقلدون» تراثيون ، بينما الدين تقدمى .. عفا الله فيه عما سلف، او ما مضى قبل نزول الرسالة . وجاءت شريعته واضعة المستقبل أمام أعينها.. للذين يتفكرون.. بينما السلفية لا يفعلون . كان طريفا إعلان السلفية عزمهم المشاركة السياسية، بعد يناير أملا فى إصلاح الدنيا، بينما هم مصرون على أنهم أدرى المسلمين .. بشئون دنيا المسلمين ، ويعتقدون ايضا أنهم القيم على الدين القيم . هم يكذبون .. لذلك فربما يدخلون النار !!



Cover Design by: Mohamed Sayed





www.sefsafa.com